روائع

جُبران خَليل جُبران

روائع..

جبران خليل جبران

الإشراف العام

وائل سمير

الناشـــــر

دار الخلـود للتراث

42 سوق الكتاب الجديد ـ العتبة ـ القاهرة

تليفون: 0181607185 ـ 25919726 فاكس: 25102954

E-mail: dar_alkholoud@yahoo.com

الإخراج والتنفيذ الفنى



رقم الإيداع: 2012/185

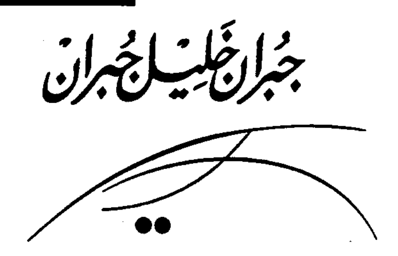
الترقيم الدولى: 4-28-6177-977

روائع

جبران خليل جبران

الخلود للتراث
للنشر والتوزيع

بطاقة تعريف
الكاتب الكبير



واجه جبران خليل جبران (١٨٨٣ - ١٩٣١) عصره ;فتعارفا وكان صراع.. سافر شاعرًا فى أبعاد العصر ليبلور الحكمة الكامنة، علّه يدفع بالإنسان نحو ذاته الفضلى.

من (بشرّى) لبنان (١٨٨٣ - ١٨٩٥)، حيث ولد وحيث تفتح وجدانه وخياله، انتقل إلى (بوسطن) (١٨٩٥ - ١٨٩٨) التى كانت تشهد -آنذاك- نهضة فكرية، وعاد إلى (بيروت) (١٨٩٨ - ١٩٠٢) ليعيش نكبات شرقه وتخلّفه، بينما كان يستزيد من تعلم العربية فى بلاده. ثم إلى (بوسطن) ثانية (١٩٠٢ - ١٩٠٨)، ليعيش تجربة الموت الذى حصد أسرته (١٩٠٢ - ١٩٠٤)، ثم إلى (باريس) (١٩٠٨ - ١٩١٠) ليسبر عمق التحول الثقافى والفنى الذى كانت تشهده، وبعدها (نيويورك) (١٩١١ - ١٩١٢)، حيث يدرك معنى المدينة الحديثة فى أوسع مفاهيمها.

ووسط (العالم الجديد)، يناديه التاريخ فى الحواضر العريقة فيسيح فى مصر وفلسطين وسورية (١٩٠٣)، وتجذبه روما ولندن ;فيقرأ فيهما نموّ الوعى الخلّاق فى رحم التاريخ.

وتقدم الحرب العالمية الأولى لجبران أغزر وأغنى مادة للتأمل الجذرى فى طبيعة القوة وماهية الضعف فى النفس البشرية. وينتهى إلى اكتشاف مكنون إنسانى أعمق وأبعد من ظواهر القوة والضعف، هو قدرة الإنسان الروحية اللامتناهية، التى رأى التوصل إليها ممكنًا عبر الحوار الباطنى مع النفس ومع الإنسانية.

كان ذلك الحوار هو طريق جبران إلى التجربة الصوفية، وكان -أيضًا- مصدر تحوّله من الرومنسى إلى رافض الحَرْفية والأنظمة الفكرية والفلسفية، ليركن إلى شاعرية الحكمة.

منذ أوّل مقال نشره بعنوان (رؤيا)، وأول معرض للوحاته (١٩٠٤) حتى اليوم، تتشاسع مدارات انتشار نتاج جبران ;فيزداد -باضطراد- عدد ترجمات مؤلفه (النبى) ليتجاوز الثمانى والعشرين لغة. وتقف العواصم الحضارية بإجلال أمام أعماله التشكيلية التى يقتنيها عدد من أهم متاحف العالم.

ويتكثف حضور جبران: الشاعر، والحكيم و(خلّاق الصور) كما كان يسمى نفسه. ويتفرّد نتاجه بمخيلة نادرة، وبإحساس خلاق مرهف، وبتركيب بسيط. وبهذه الخصائص، تبلور فى لغته العربية -كما فى الإنكليزية- فجر ما سيُدعى - فيما بعد- (القصيدة النثرية) أو (الشعر الحديث).

ويمكن تبيّن أربع مراحل فى إنتاج جبران:

الرومنسية: كما تنعكس فى كتيب (نبذة فى الموسيقى) (١٩٠٦)، وأقصوصات (عرائس المروج) (١٩٠٦)، و(الأرواح المتمردة) (١٩٠٨)، و(الأجنحة المتكسرة) (١٩١٢)، ومقالات (دمعة وابتسامة) (١٩١٤)، والمطوّلة الشعرية (المواكب) (١٩١٩).

الثورية الرافضة: تتصعّد الرومنسية لتنتهى إلى اكتشاف أن القوة الإنسانية تكمن فى الروح الخاص والعام، كما فى مقالات وأقصوصات وقصائد (العواصف) (١٩٢٠)، و(البدائع والطرائف) (١٩٢٣)، وفى كتابه بالإنكليزية (آلهة الأرض) (١٩٣١).

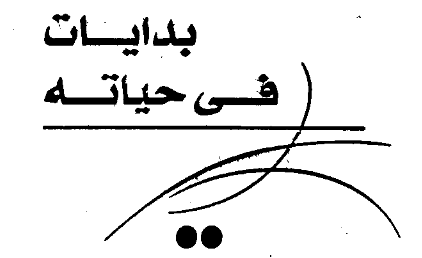
الحِكَمية: تعتمد المثل أسلوبًا، كما فى ثلاثيته إنكليزية اللغة: (المجنون) (١٩١٨)، (السابق) (١٩٢٠)، و(التائه) (١٩٢٣).

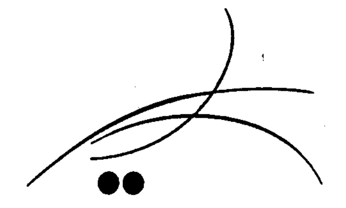
التعليمية: وفيها يختصر جبران خلاصات تجاربه وتأمله الحياة، والإنسان، والكون والعلاقات المتسامية. وهى المرحلة التى تُعَدّ ذروة نضجه الذى يتبدّى فى ثلاثية أخرى باللغة الإنكليزية: (النبى) (١٩٢٣)،)يسوع ابن الإنسان) (١٩٢٨)، و(حديقة النبى) (١٩٣٣).

ويكاد هذا النتاج / الموقف أن يكون علامة فارقة فى تراث تباينت حوله الآراء، لكن كان هناك دائمًا إجماع على شموليته الإنسانية التى تروحن الغرب بحكمتها الصوفية، وتُخرج الشرق من المطلقات المسبقة إلى التجربة الشخصية الحية باتجاه المطلق.

■■■

بدايات في حياته





قليلون جدا من لم يسمعوا بـ "جبران" حول العالم، والأقل منهم من لم يسمعوا بكتاب "النبى". وهذا الكتاب يختصر بالفعل فلسفة جبران ونظرته إلى الكون والحياة. وقد ترجم إلى لغات العالم الحية كلها، وكانت آخرها اللغة الصينية (هذا العام)، وقد حققت مبيعاته أرقاما قياسية بالنسبة إلى سواه من الكتب المترجمة إلى تلك اللغة.

صحيح أن معظم كتب جبران وضعت بالإنكليزية، وهذا ما ساعد كثيرا على انتشارها، ولكن جبران كتب ورسم و"فلسف" الأمور بروح مشرقية أصيلة لا غبار عليها، سوى غبار المزج بين ثقافات متعددة وعجنها ثم رقها وخبزها على نار الطموح إلى مجتمع أفضل وحياة أرقى وعلاقات بين البشر تسودها السعادة المطلقة التى لم يتمتع بها جبران نفسه. وكأن قدر كل عظماء العالم من فلاسفة ومفكرين ان يعانوا الآلام النفسية والجسدية فى سبيل بلوغ الغاية القصوى واكتشاف أسرار الحياة والمعرفة.

ولد هذا الفيلسوف والأديب والشاعر والرسام من أسرة صغيرة فقيرة فى بلدة بشرى فى ٦ كانون الثانى ١٨٨٣. كان والده خليل جبران الزوج الثالث لوالدته كاملة رحمة التى كان لها ابن اسمه بطرس من زواج سابق ثم أنجبت جبران وشقيقتيه مريانا وسلطانة.

كان والده، خليل سعد جبران، الذى ينحدر من أسرة سورية الأصل، يعمل راعياً للماشية ويمضى أوقاته فى الشرب ولعب الورق. "كان صاحب مزاج متغطرس، ولم يكن شخصاً محباً"، كما يتذكر جبران، الذى عانى من إغاظته وعدم تفهمه. وكانت والدته "كاملة رحمة"، من عائلة محترمة وذات خلفية دينية، واستطاعت ان تعتنى بها ماديا

ومعنويا وعاطفيا.. وكانت قد تزوجت بخليل بعد وفاة زوجها الأول وإبطال زواجها الثانى. كانت شديدة السمرة، ورقيقة، وصاحبة صوت جميل ورثته عن أبيها.

لم يذهب جبران إلى المدرسة لأن والده لم يعط لهذا الأمر أهمية ولذلك كان يذهب من حين إلى آخر إلى كاهن البلدة الذى سرعان ما أدرك جديته وذكاءه فانفق الساعات فى تعليمه الأبجدية والقراءة والكتابة مما فتح أمامه مجال المطالعة والتعرف إلى التاريخ والعلوم والآداب.

وبفضل أمه، تعلم الصغير جبران العربية، وتدرب على الرسم والموسيقى. ولما لاحظت ميل الرسم لديه،زودته بألبوم صور لـ "ليوناردو دفنشى"، الذى بقى معجباً به بصمت. بعد وقت طويل، كتب يقول: "لم أر قط عملاً لليوناردو دفنشى إلاّ وانتاب أعماقى شعور بأن جزءاً من روحه تتسلل إلى روحى...".

تركت أمه بصمات عميقة فى شخصيته، ولم يفته أن يشيد بها فى "الأجنحة المتكسرة": "إن أعذب ما تحدثه الشفاه البشرية هو لفظة "الأم"، وأجمل مناداة هى "يا أمى". كلمة صغيرة كبيرة مملوءة بالأمل والحب والانعطاف وكل ما فى القلب البشرى من الرقة والحلاوة والعذوبة. الأم هى كل شىء فى هذه الحياة، هى التعزية فى الحزن، والرجاء فى اليأس، والقوة فى الضعف، هى ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران، فالذى يفقد أمه يفقد صدراً يسند إليه رأسه ويداً تباركه وعيناً تحرسه...".

سنواته الأولى أمضاها جبران لا مبالياً، رغم الشجارات بين والديه والسقوط من فوق ذلك المنحدر الذى ترك فيه التواء فى الكتف. تتلمذ فى العربية والسريانية على يد الأب "جرمانوس". وعلمه الأب "سمعان" القراءة والكتابة فى مدرسة بشرى الابتدائية. ويروى صديقه الكاتب "ميخائيل نعيمة" أن الصغير جبران كان يستخدم قطعة فحم ليخط بها رسومه الأولى على الجدران. ويحكى أنه طمر يوماً، وكان عمره أربع سنوات، ورقة فى التراب وانتظر أن تنبت.

فى العاشرة من عمره وقع جبران عن إحدى صخور وادى قاديشا وأصيب بكسر فى كتفه اليسرى، عانى منه طوال حياته.

لم يكف العائلة ما كانت تعانيه من فقر وعدم مبالاة من الوالد، حتى جاء الجنود العثمانيون عام (١٨٩١) والقوا القبض عليه أودعوه السجن بسبب لسوء إدارته الضرائب التى كان يجيبها. أدين، وجرد من كل ثرواته وباعوا منزلهم الوحيد، فاضطرت العائلة إلى النزول عند بعض الأقرباء ولكن الوالدة قررت ان الحل الوحيد لمشاكل العائلة هو الهجرة إلى الولايات المتحدة سعيا وراء حياة أفضل!!

هجرة العائلة إلى أمريكا

أربك دخول خليل والدة جبران تماماً. كيف ستطعم أولادها الأربعة ولا تملك أى شىء. فكرت بالهجرة. ولكن، أين ستجد نفقات السفر.. باعت ما تبقى لها من تركة والدها. والتمست تدخل أحد الأساقفة للحصول على إذن السفر من السلطات الأمريكية. ورحلت الأسرة بحراً عام ١٨٩٥ إلى العالم الجديد، إلى بوسطن.

عام ١٨٩٤ خرج خليل جبران من السجن، وكان محتارا فى شأن الهجرة، ولكن الوالدة كانت قد حزمت أمرها، فسافرت العائلة تاركة الوالد وراءها.

حطت الأسرة الرحال فى "إليس إيسلاند"، نيويورك، فى ١٧ حزيران , ١٨٩٥ ووصلوا إلى نيويورك بالتحديد فى ٢٥ حزيران ١٨٩٥ ومنها انتقلوا إلى مدينة بوسطن حيث كانت تسكن اكبر جالية لبنانية فى الولايات المتحدة بعد ذلك بوقت قصير وهى المدينة التى ترتبط بها قضايا التاريخ الأمريكى الكبيرة: الثورة، والاستقلال، وإلغاء العبودية، وتحرير النساء.... ونزلت العائلة فى بوسطن فى ضيافة أقارب كانوا قد جاءوا من بشرى قبل سنوات قليلة وبذلك لم تشعر الوالدة بالغربة، بل كانت تتكلم اللغة العربية مع جيرانها، وتقاسمهم عاداتهم اللبنانية التى احتفظوا بها.

اهتمت الجمعيات الخيرية بإدخال جبران إلى المدرسة، فى حين قضت التقاليد بأن تبقى شقيقتاه فى المنزل، فى حين بدأت الوالدة تعمل كبائعة متجولة فى شوارع بوسطن على غرار الكثيرين من أبناء الجالية. وقد حصل خطأ فى تسجيل اسم جبران فى المدرسة وأعطى اسم والده، وبذلك عرف فى الولايات المتحدة باسم "خليل جبران". وقد حاول جبران عدة مرات تصحيح هذا الخطأ فيما بعد إلا انه فشل.

بدأت أحوال العائلة تتحسن ماديا حيث راح الأخ البكر غير الشقيق بطرس يبحث عن عمل. ووجده فى محل للمنسوجات. وكان على الأم كاملة أن تحمل على ظهرها بالة صغيرة من الشراشف والأغطية والحريريات السورية وتتنقل بها من بيت إلى بيت لبيعها. ثم عملت فى الخياطة، بمساعدة ابنتيها سلطانة وماريانا، وعندما جمعت الأم مبلغا كافيا من المال أعطته لابنها بطرس الذى يكبر جبران بست سنوات وفتحت العائلة محلا تجاريا.

وكان معلمو جبران فى ذلك الوقت يكتشفون مواهبه الأصيلة فى الرسم ويعجبون بها إلى حد ان مدير المدرسة استدعى الرسام الشهير هولاند داى لإعطاء دروس خاصة لجبران مما فتح أمامه أبواب المعرفة الفنية وزيارة المعارض والاختلاط مع بيئة اجتماعية مختلفة تماما عما عرفه فى السابق.

فى نفس الوقت أشفقت كاملة على بطرس وهى تراه يكد لإعالة الأسرة، بينما كان يمضى جبران وقته فى القراءة والرسم والاستغراق فى الأحلام. وطلبت منه مساعدة أخيه. لكنه رفض صراحة، معلناً إن إصبع رسام صغيرة لتساوى ألف تاجر. ما عدا بطرس؛ وإن صفحة من الشعر لتساوى كل أنسجة مخازن العالم!. فى الواقع، أخذ جبران يواظب على التردد إلى مؤسسة خيرية تعطى دروساً فى الرسم اسمها "دنسيون هاوس"،حيث لفتت موهبته انتباه مساعدة اجتماعية نافذة جداً اسمها "جسى"، التى عرّفته من خلال صديق لها إلى المصور الشهير "فرد هولاند داى"، الذى كان يدير داراً للنشر فى بوسطن.

كان داى بحاجة لموديلات شرقية لصوره. وقد راقه جبران بوجهه المسفوع، وشعره الأسود، ونظراته التأملية. ألبسه راعيه إياه ثياباً جديدة، وأوله، وعرّفه إلى عالم الرسام والشاعر "وليم بليك"، الذى اكتشف فيه جبران عالماً أسطورياً وتنبؤياً، وبهره تنوع الينابيع التى أثرت مفرداته الشعرية، وتأثر بخصوبة أعماله الرمزية الموسومة بالجدل الروحى بين الخير والشر والجنة والجحيم.... لم يكن بعد، لصغر سنه، بمستوى الارتقاء إلى فكر "بليك" كله، غير أنه تمثل بعض أفكاره كنقد المجتمع والدولة وفضيلة الرغبة الخلاقة،

ووحدة الكائن، وراح يخط رسوماً مشحونة بالرموز مستوحاة من رسوم الفنان والشاعر اللندنى الشهير...

كان لداى فضل اطلاع جبران على الميثولوجيا اليونانية، الأدب العالمى وفنون الكتابة المعاصرة والتصوير الفوتوغرافى، ولكنه شدد دائما على ان جبران يجب ان يختبر كل تلك الفنون لكى يخلص إلى نهج وأسلوب خاصين به. وقد ساعده على بيع بعض إنتاجه من إحدى دور النشر كغلافات للكتب التى كانت تطبعها. وقد بدا واضحا انه قد اختط لنفسه أسلوبا وتقنية خاصين به، وبدأ يحظى بالشهرة فى أوساط بوسطن الأدبية والفنية.

العودة إلى لبنان

قررت عائلة جبران وخصوصا أمه أن الشهرة المبكرة ستعود عليه بالضرر، وانه لا بد أن يعود إلى لبنان لمتابعة دراسته وخصوصا من أجل إتقان اللغة العربية.. وكان قد أثار تردد جبران المتزايد إلى أوساط "داى"، الذى لم تكن سمعته تدعو للارتياح، قلق الأسرة. وازدادت الأمور سوءاً بعد أن وقع فى شراك زوجة تاجر فى الثلاثين من عمرها، وغيابه المتكرر عن البيت ليلاً. وكان قد فتن قبلها بامرأة أخرى... وفكرت كاملة بإعادة ابنها المراهق إلى لبنان. ولم يعترض جبران فوصل جبران إلى بيروت وهو يتكلم لغة إنكليزية ضعيفة، ويكاد ينسى العربية أيضا.

رحل إلى بيروت فى ٣٠ آب ١٨٩٨. كان بين أمتعته الأناجيل وكتاب لـ "توماس بلفنيتش" فى الميثولوجيا اكتشف فيه الفنان الناشئ جبران دراما "بروميثيوس"، وأسطورة "أورفيوس"، والنبى الفارسى "زرادشت"، والفلسفة الفيثاغورسية، والأساطير الهندية...

هرع جبران فوراً إلى بشرى، وحضن أبيه، وتوافد الأقارب والأصدقاء لرؤية "الأمريكى". كان بينهم أستاذه الشاعر والطبيب "سليم الضاهر"، الذى نصحه بمتابعة دروسه فى "كوليج دو لا ساجيس"، التى بقى فيها زهاء ثلاث سنوات. ورغم تأخره فى العربية الفصحى، "طلب" الفتى قبوله فى صف أعلى وعدم سؤاله قبل ثلاثة أشهر. وقبل

القيمون "شروط" جبران، الذى أعجبتهم جرأته وقوة شخصيته. كان من بين أساتذته الأب "يوسف حداد"، الشاعر والكاتب المسرحى الذى اكتشف برفقته كنوز اللغة العربية، وابن خلدون، والمتنبى، وابن سينا، والشعراء الصوفيين. وبدأ يجيد التعبير عن أفكاره بلغته الأم، وكتب أولى نصوصه بالعربية. وتعلم الفرنسية وأخذ يقرأ آدابها. ويتذكر جبران أن تلك المدرسة كانت صارمة؛ وأنه لم يكن يمتثل لمعلميه؛ وأنه كان أقل تعرضاً للعقاب من بقية التلاميذ، لأنه كان يدرس كثيراً. كان فى الصف يسرح فى فكره دائماً، ويرسم، ويغطى كتبه ودفاتره برسوم كاريكاتورية لأساتذته. كان جبران فى نظر رفاق الصف غريباً، بشعره الطويل الذى يرفض قصه، ومواقفه غير المألوفة.

فى بداية العام ١٩٠٠ ?مع مطلع القرن الوليد، تعرف جبران على يوسف الحويك واصدرا معا مجلة "المنارة" وكانا يحررانها سوية فيما وضع جبران رسومها وحده. وبقيا يعملان معا بها حتى أنهى جبران دروسه بتفوق واضح فى العربية والفرنسية والشعر (١٩٠٢) وكان فى عام ١٩٠١ تم اختيار إحدى قصائده لنيل الجائزة التقديرية. وكان يتوق بحماس لنيل هذه الجائزة، لأن التلميذ الممتاز فى هذه المدرسة هو الأكثر موهبة فى الشعر، كما قال.

عودته إلى أمريكا.. والمآسى فى انتظاره

وقد وصلته أخبار عن مرض أفراد عائلته، فيما كانت علاقته مع والده تنتقل من سيء إلى أسوأ فغادر لبنان عائدا إلى بوسطن، ولكنه لسوء حظه وصل بعد وفاة شقيقته سلطانة. وخلال بضعة اشهر كانت أمه تدخل المستشفى لإجراء عملية جراحية لاستئصال بعض الخلايا السرطانية. قرر شقيقه بطرس ترك المحل التجارى والسفر إلى كوبا. وهكذا كان على جبران ان يهتم بشؤون العائلة المادية والصحية. ولكن المآسى تتابعت بأسرع مما يمكن احتماله. فما لبث بطرس ان عاد من كوبا مصابا بمرض قاتل هو (السل) وقضى نحبه بعد أيام قليلة (١٢ آذار ١٩٠٣) فيما فشلت العملية الجراحية التى أجرتها الوالدة فى استئصال المرض وقضت نحبها فى ٢٨ حزيران من السنة نفسها.

إضافة إلى كل ذلك كان جبران يعيش أزمة من نوع آخر، فهو كان راغبا فى إتقان الكتابة باللغة الإنكليزية، لأنها تفتح أمامه مجالا أرحب كثيرا من مجرد الكتابة فى جريدة تصدر بالعربية فى أميركا (كالمهاجر)؟ ولا يقرأها سوى عدد قليل من الناس. ولكن انكليزيته كانت ضعيفة جدا. ولم يعرف ماذا يفعل، فكان يترك البيت ويهيم على وجهه هربا من صورة الموت والعذاب. وزاد من عذابه ان الفتاة الجميلة التى كانت تربطه بها صلة عاطفية، وكانا على وشك الزواج فى ذلك الحين (جوزيفين بيبادى)، عجزت عن مساعدته عمليا، فقد كانت تكتفى بنقد كتاباته الإنكليزية ثم تتركه ليحاول إيجاد حل لوحده. فى حين ان صديقه الآخر الرسام هولاند داى لم يكن قادرا على مساعدته فى المجال الأدبى كما ساعده فى المجال الفنى.

مع فجر القرن العشرين، كانت بوسطن، التى سميت "أثينا الأمريكية"، مركزاً فكرياً حيوياً اجتذب فنانين مشهورين وواعدين. وكان بعضهم راغباً فى الخروج من معاقل المادية للبحث عن سبل فنية جديدة واستكشاف ميثولوجيا وحضارات الشرق بل وعلومه الباطنية والروحية. وغاص جبران فى هذا المجتمع البوسطنى الذى تزدهر فيه حركات صوفية كان أبلغها تأثيراً "الحكمة الإلهية" التى أنشأتها عام ١٨٧٥ الأرستقراطية الروسية "هيلينا بتروفنا بلافاتسكى" التى اطلعت على تراث الهند، والتيبت وشجعت نهضة البوذية والهندوسية. وشيئاً فشيئاً، اتضح له أن الروحانية الشرقية التى تسكنه يمكن أن تجد تربة خصبة فى هذه البيئة المتعطشة للصوفية....

فى ٦ كانون الثانى ١٩٠٤، عرض "داى" على جبران عرض لوحاته فى الربيع القادم. لم يكن أمامه سوى أربعة أشهر. وبتأثيرات من عالم "وليم بليك"، أنجز رسوماً عديدة تفيض بالرمزية. اجتذبت أعماله كثيراً من الفضوليين، ولكن قليلاً من الشارين. وعبر عدد من النقاد عن إعجابهم بها.

قدمته جوزفين إلى امرأة من معارفها اسمها مارى هاسكل (١٩٠٤)، فخطّت بذلك صفحات مرحلة جديدة من حياة جبران.

كانت مارى هاسكل امرأة مستقلة فى حياتها الشخصية وتكبر جبران بعشر سنوات، وقد لعبت دورا هاما فى حياته منذ ان التقيا. فقد لاحظت ان جبران لا يحاول الكتابة

بالإنكليزية، بل يكتب بالعربية أولا ثم يترجم ذلك. فنصحته وشجعته كثيرا على الكتابة بالإنكليزية مباشرة. وهكذا راح جبران ينشر كتاباته العربية فى الصحف أولا ثم يجمعها ويصدرها بشكل كتب، ويتدرب فى الوقت نفسه على الكتابة مباشرة بالإنكليزية.

عزم جبران على البحث عن عمل أكثر ربحاً من الرسم. ولما علم بأن شاباً لبنانياً يدعى "أمين غريّب" أصدر صحيفة بالعربية فى نيويورك اسمها "المهاجر"، تقرب منه وأطلعه على رسومه وكتاباته وقصائده. قبل "غريب" مقابل دولارين فى الأسبوع لجبران. وظهرت أول مقالة له فى "المهاجر" بعنوان "رؤية". كان نصاً مفعماً بالغنائية أعطى الكلام فيه لـ "قلب الإنسان، أسير المادة وضحية قوانين الأنام".

وفى ١٢ تشرين الثانى ١٩٠٤، احترق مبنى معرض "داى"، وأتى على موجوداته كلها، بما فى ذلك رسوم جبران. وتحت صدمة الحريق، الذى وصفه بأنه مشهد جديد من التراجيديا التى يعيشها منذ سنتين، أصبح جبران يكتب أكثر مما يرسم. وخصه "أمين غريب" بزاوية منتظمة بعنوان "أفكار"، ثم استبدله بعنوان "دمعة وابتسامة"، حيث راح جبران يتحدث عن المحبة، والجمال والشباب والحكمة. ونشرت له "المهاجر" عام ١٩٠٥ كتاباً بعنوان "الموسيقى".

باريس.. مرحلة جديدة

كانت باريس فى بدايات القرن العشرين حلم فنانى العالم كله. بعد وصوله إليها بوقت قصير، أقام فى "مونبارناس"، وسرعان ما انتسب إلى "أكاديمية جوليان"، أكثر الأكاديميات الخاصة شعبية فى باريس، التى تخرج منها فنانون كبار، "ماتيس"، و"بونار"، و"ليجيه"... وانتسب كطالب مستمع إلى "كلية الفنون الجميلة". أوقات فراغه، كان جبران يقضيها ماشياً على ضفاف نهر السين ومتسكعاً ليلاً فى أحياء باريس القديمة. بعد أن ترك باريس لاحقاً، قال لصديقه "يوسف حويك" الذى عاش معه سنتين فى مدينة النور: "كل مساء، تعود روحى إلى باريس وتتيه بين بيوتها. وكل صباح، أستيقظ وأنا أفكر بتلك الأيام التى أمضيناها بين معابد الفن وعالم الأحلام...".

لم يستطع جبران البقاء طولاً فى "أكاديمية جوليان"، حيث وجد أن نصائح أستاذه فيها لم تقدم له أية فائدة. من المؤكد أن أسلوبه لم يستطع إرضاء روح جبران الرومانسية. فى بداية شباط ١٩٠٩، عثر الفنان على أستاذ جديد: "بيير مارسيل بيرونو"، "الفنان الكبير والرسام الرائع والصوفى.."، حسب عبارة جبران. لكنه تركه أخيراً، بعد أن نصحه الفنان الفرنسى بالانتظار والتمهل حتّى ينهى كل قاموس الرسم، فجبران نهم إلى المعارف والإبداع وراغب فى حرق المراحل..

تردد حينذاك إلى أكاديمية "كولاروسى"، المتخصصة فى الرسم على النموذج، والتى كانت تستقبل فنانين أجانب، غير أن جبران كان يفضل العمل وحيداً وبملء الحرية فى مرسمه، وزيارة المعارض، والمتاحف، كمتحف اللوفر، الذى كان يمضى ساعات طويلة فى قاعاته الفسيحة. وأعطى دروساً فى الرسم لبعض الطلبة. وانخرط فى مشروع طموح: رسم بورتريهات شخصيات شهيرة، وقد ابتدأها بالنحات الأمريكى "برتليت"، دون أن نعرف بدقة إن كان قد التقى بهؤلاء.

فى هذه الأثناء، توفى والده. وكتب إلى "ميرى هاسكل" يقول: "فقدت والدى.. مات فى البيت القديم، حيث ولد قبل ٦٥ سنة.. كتب لى أصدقاؤه أنه باركنى قبل أن يسلم الروح. لا أستطيع إلاّ أن أرى الظلال الحزينة للأيام الماضية عندما كان أبى، وأمى وبطرس وكذلك أختى سلطانة يعيشون ويبتسمون أمام وجه الشمس...".

كان جبران دائم الشك، طموحاً، ومثالياً، متصوراً أنه يستطيع إعادة تكوين العالم، وسعى إلى إقناع الآخرين بأفكاره ونظرياته حول الفن، والطبيعة...، وقلقاً، وكثير التدخين، وقارئاً نهماً، وقد أعاد قراءة "جيد" و"ريلكه" و"تولوستوى" و"نيتشه"، وكتب نصوصاً بالعربية وصفها المحيطون به بأنها "حزينة ووعظية".

فى ذلك الوقت، قدم إلى باريس عدد كبير من دعاة الاستقلال السوريين واللبنانيين، المطالبين بحق تقرير المصير للبلدان العربية الواقعة تحت النير العثمانى. وظهرت فيها جمعيات سرية تطالب بمنح العرب فى الإمبراطورية العثمانية حقوقهم السياسية

وبالاعتراف بالعربية لغة رسمية... وتردد جبران إلى هذه الأوساط وتشرب بأفكارها. ورأى أن على العرب أن يثوروا على العثمانيين وأن يتحرروا بأنفسهم.

رغب جبران فى التعريف بفنه. ونجح فى الوصول إلى أشهر معارض باريس السنوية، معرض الربيع، حيث استطاع أن يعرض لوحة عنوانها "الخريف"، آملاً أن يمر بها "رودان العظيم" فيعجب بها ويثمنها. جاء الفنان الفرنسى، ووقف لحظة أمامها، وهز رأسه، وتابع زيارته. بعد ذلك، راح يهيئ اللوحات التى دعى لعرضها فى معرض الاتحاد الدولى للفنون الجميلة فى باريس الذى دعى إليه بشكل رسمى. إلاّ أن عدم الاستقرار أتعبه، فتخلى عن المشروع ليترك باريس ولم تتسن له بعد ذلك العودة قط إلى مدينة الجمال والفنون، ولا إلى مسقط رأسه لبنان. ولم تأته فرصة لرؤية إيطاليا التى طالما حلم بزيارتها...!!

غادر باريس ليعود إلى بوسطن

عام ١٩٠٨ غادر جبران إلى باريس لدراسة الفنون وهناك التقى مجددا بزميله فى الدراسة فى بيروت يوسف الحويك. ومكث فى باريس ما يقارب السنتين ثم عاد إلى أميركا بعد زيارة قصيرة للندن برفقة الكاتب أمين الريحانى.

وصل جبران إلى بوسطن فى كانون الأول عام ١٩١٠، حيث اقترح على مارى هاسكل الزواج والانتقال إلى نيويورك هربا من محيط الجالية اللبنانية هناك والتماسا لمجال فكرى وأدبى وفنى أرحب. ولكن مارى رفضت الزواج منه بسبب فارق السن، وان كانت قد وعدت بالحفاظ على الصداقة بينهما ورعاية شقيقته مريانا العزباء وغير المثقفة.

وهكذا انتقل جبران إلى نيويورك ولم يغادرها حتى وفاته. وهناك عرف نوعا من الاستقرار مكنه من الانصراف إلى أعماله الأدبية والفنية فقام برسم العديد من اللوحات لكبار المشاهير مثل رودان وساره برنار وغوستاف يانغ وسواهم.

ميرى العزيزة

حال وصوله إلى بوسطن فى بداية تشرين الثانى، هرع لرؤية أخته "مارينا". ثم مضى للقاء "ميرى"، التى أعلمته على الفور. حرصاً منها على إبقاء الفنان تحت رعايتها. بأنها

مستعدة للاستمرار فى منحه الخمسة وسبعين دولاراً التى كانت تقدمها له إبان إقامته الباريسية. ونصحته باستئجار بيت أوسع لممارسة فنه بحرية. وساعدته فى تحسين لغته الإنكليزية. وتعززت صداقتهما. وفى ١٠ كانون الأول، زارها فى بيتها لمناسبة عيد ميلادها السابع والثلاثين، وعرض عليها الزواج. لكنها رفضت بحجة أنها تكبره بعشر سنوات. وكتب لها فيما بعد أنها جرحته بهذا الرفض. وقررت "ميرى" أن تتراجع وتقبل... ثم عادت فرفضت مرة أخرى.. ربما بسبب علاقاته مع نساء أخريات، أو لخوفها من الزواج بأجنبى. وسعى جبران بعد ذلك لإغراق خيبة أمله فى العمل. وسرعان ما شعر بأن بوسطن مدينة باردة وضيقة وأنها أصغر من طموحاته الفنية، خصوصاً بعد تلك الإقامة فى باريس الرحبة والدافئة، عدا الجرح الذى تركته فيه "ميرى". وقرر المغادرة إلى نيويورك. حزم حقائبه غير آسف، حاملاً معه مخطوطة "الأجنحة المتكسرة" ونسخة من "هكذا تكلم زرادشت" لنيتشه.

نيويورك

قال الشاعر والكاتب الفرنسى "بول كلودل" بعد وصوله إلى نيويورك عام ١٨٣٨: ".... بالنسبة للغريب الذى يقع هنا، جاهلاً كل شىء ودواعى كل شىء، تكون أيامه الأولى مذهلة..". إلاّ أن جبران فهمها فوراً: "نيويورك ليست مكاناً يمكن أن يجد فيه المرء راحة". بدأ إقامته بزيارة متحف "متروبوليتان ميوزم أف آرت"، الذى خرج منه مندهشاً. تعرف إلى الجالية اللبنانية، وبعض مشاهير نيويورك. فى هذه الأثناء، جاءت "ميرى" إلى نيويورك ووجدته يرسم لوحة "إيزيس". زارا بعض المتاحف والأوابد. وبعد حين، عادا معاً إلى بوسطن، حيث تهيأت الصديقة لقضاء عطلة فى غرب البلاد. وعرضت حينذاك على جبران مبلغ خمسة آلاف دولار دفعة واحدة بدلاً من المبالغ الصغيرة المتقطعة. قبل بالعرض وألح بأن يوصى لها بكل ما يملك، عرفاناً بجميلها. وكتب وصية أدهشت أصدقاءه. أوصى بكل لوحاته ورسومه إلى "ميرى" أو، إن كانت متوفاة، إلى "فرد هولاند داى"؛ وبمخطوطاته الأدبية إلى أخته؛ وبكتبه فى لبنان إلى مكتبة بشرى....

استغل جبران الصيف لإنهاء "الأجنحة المتكسرة" وروتشة لوحة "إيزيس"، وبدأ برسم لوحات جديدة، وزين بالرسوم كتاباً لأمين الريحانى، وكتب مقالتين، إحداهما بعنوان

"العبودية"، حيث يندد بالعبودية التى تقود شعباً وفقاً لقوانين شعب آخر، والأخرى بعنوان "أبناء أمى" يتمرد فيها على مواطنيه الذين لا يثورون فى وجه المحتل. وحضر محاضرة للشاعر والكاتب المسرحى الإيرلندى "وليم بيتس" (جائزة نوبل ١٩٢٣)، وتعارفا والتقيا مراراً.

فى ١٨ تشرين الأول عاد جبران إلى نيويورك وأقام فى مبنى "تنث ستريت ستوديو" المخصص للفنانين. فى هذه السنة نشر روايته "الأجنحة المتكسرة"، أكثر أعماله رومانسية، والتى أنبأت بأسلوبه وفكره المستقبليين.

فى ١٥ نيسان ١٩١٢، هزت العالم حادثة غرق الـ "تيتانيك"، التى كان على متنها مئات الأشخاص، بينهم ٨٥ لبنانياً، غرق ٥٢ منهم. كانت الكارثة صدمة بالنسبة لجبران، الذى عز عليه النوم تلك الليلة. فى اليوم نفسه، التقى بعبد البهاء، ابن بهاء الله مؤسس حركة البهائية الروحية فى إيران، ودعاه لإلقاء خطاب أمام أعضاء "الحلقة الذهبية" حول وحدة الأديان.

فى بداية الخريف، التقى جبران بالكاتب والروائى الفرنسى "بيير لوتى"، الذى جاء إلى نيويورك لحضور عرض مسرحية "بنت السماء" التى ألفها مع ابنة الأديب والشاعر الفرنسى "تيوفيل غوتيه". وقد عبر له "لوتى" عن قرفه من صخب أمريكا وقدم له نصيحة: "أنقذ روحك وعد إلى الشرق؛ مكانك ليس هنا!".

كيف يمكننا تصور جبران فى هذه الفترة من حياته؟ كانت له ملامح أهل قريته: وجه ملوح بالسمرة، وأنف بارز، وشارب أسود وكثيف، وحاجبان مقوسن كثان، وشعر معقوص قليلاً، وشفتان ممتلئتان؛ وجبين عريض مهيب مثل قبة، وعينان يقظتان تنمان عن ذكاء هذا الشخص قصير القامة ذى الابتسامة المشرقة الموحية ببراءة الأطفال؛ "مكهرب، ومتحرك كاللهب" (ميرى)؛ وطبيعة هى أقرب إلى الحزن؛ محب للانعزال ("الوحدة عاصفة صمت تقتلع كل أغصاننا الميتة")، ويجد لذة فى العمل؛ أنوف، وبالغ الحساسية، ولا يتسامح مع أى نقد؛ مستقل وثائر بطبيعته، يأبى الظلم بأى شكل.

كان يدخن كثيراً : "اليوم - كتب إلى ميرى -، دخنت أكثر من عشرين سيجارة. التدخين بالنسبة لى هو متعة وليس عادة مستبدة...". وليلاً، كى يبقى متنبهاً ويستمر فى عمله، كان يتناول القهوة القوية ويأخذ حماماً بارداً. إلا أن أسلوب الحياة إياه بدأ ينهك جسمه ويضفى عليه ملامح الكبر.

فى العام ١٩١٢، التقى بعدد من مشاهير عالم الفن النيويوركيين، مثل الشاعر "ويتر بوينر". وفى شباط، تخلى لـ "ميرى" عن مجموعة من لوحاته وفاء للدين، متمنياً أن يتخلص من هذا الوضع الذى كان يضايقه. وعاد إلى إكمال مجموعة بورتريهاته، مخصصاً إحداهاللمخترع الأمريكى "توماس إديسون" وأخرى لعالم النفس السويسرى "كارل غوستاف يونغ" اللذين قبلا الجلوس ليرسمهما جبران. والتقى بالفيلسوف الفرنسى "هنرى برجسون" الذى وعده بأن يسمح له برسمه فى باريس، معتذراً آنئذ بسبب الإنهاك من السفر، وبالممثلة الفرنسية "ساره برنهاردت" : "باختصار، كانت لطيفة. يؤكد جبران. حدثتنى بفرح غامر عن أسفارها إلى سورية ومصر، وأخبرتنى أن أمها كانت تتكلم العربية وأن موسيقى هذه اللغة كانت وما تزال حية فى نفسها". وقبلت أن تجلس ليرسمها، ولكن عن بعد "كى لا تظهر ملامح وجهها". كانت قد أصبحت فى عامها التاسع والستين.

فى نيسان ١٩١٢، ظهرت فى نيويورك مجلة "الفنون"، التى أسسها الشاعر المهجرى الحمصى "نسيب عريضة". ونشر فيها جبران مقالات متنوعة جداً وقصائد نثرية. ووقع فيها على دراسات أدبية كرسها لاثنين من كبار الصوفيين، الغزالى وابن الفارض، اللذين تأثر بأفكارهما.

الأديبة مى

"مى" هو الاسم الذى اختارته تلك المرأة القلقة، التى تبدو، كالبحر، تارة هادئة وشفافة، وأخرى ثائرة. ولدت عام ١٨٨٦ ?من أب لبنانى وأم فلسطينية. رحلت أسرتها عام ١٩٠٨ إلى القاهرة. أتقنت لغات عدة، وأظهرت مواهب استثنائية فى النقد والأدب

والصحافة. حولت دارتها فى القاهرة إلى صالون أدبى، وراحت تستقبل فيها كبار الأدباء والمثقفين، كـ "طه حسين" و"عباس محمود العقاد" و"يعقوب صروف". اكتشفت جبران عام ١٩١٢، عبر مقالته "يوم مولدى" التى ظهرت فى الصحافة. وأسرها أسلوبه. وقرأت "الأجنحة المتكسرة" وأعجبت بآرائه حول المرأة فيه. تراسلا، وتبادلا فى رسائلهما الإطراء وتحدثا عن الأدب. روى لها همومه اليومية، وطفولته وأحلامه وأعماله. وانعقدت بينهما علاقة ألفة وحب. وطلب منها عام ١٩١٣ تمثيله وقراءة كلمته فى حفل تكريم شاعر القطرين "خليل مطران". كانت "مى" حساسة جداً وحالمة. ولما انقطعت رسائل جبران عقب قيام الحرب العالمية الأولى، تعلقت بذكرى مراسلها البعيد ورفضت كل الطامحين إلى الزواج منها. وتمنت فى مقالة لها أن تكون بقرب ذلك الوجه الذى يمنع البعاد رؤيته.

لم يلتقيا قط، غير أن الكاتبين شعرا أنهما قريبان أحدهما من الآخر، وأحس أن "خيوطاً خفيفة" تربط بين فكرهما وأن روح "مى" ترافقه أينما اتجه.

فى عام ١٩٢١، أرسلت له صورتها، فأعاد رسمها بالفحم. واكتشف بسعادة أنها امرأة مليئة الوجه، ذات شعر بنى قصير، وعينين لوزيتى الشكل يعلوهما حاجبان كثان، وشفتين ممتلئتين. وجد فى نظرتها البراقة شيئاً معبراً يجتذبه، وفى ملامحها بعضاً من الذكورة، صرامةً كامنة تضفى عليها مزيداً من الجاذبية: "مى" تجسد الأنوثة الشرقية. كان فى هذه المرأة كل ما يعجبه، غير أنها بعيدة جداً. ولم يكن يشعر أنه مهيأ بعد لترك أمريكا فيتخلى عن حريته. هذا الحب الروحى، الفكرى، أعجبه. ولكن هل فكر بمجرد ما لكماته من وقع على قلب مراسلته؟

فى عام ١٩٢٣، كتب لها يقول دون كلفة: "أنت تعيشين فىّ وأنا أعيش فيك، تعرفين ذلك وأعرفه". كانت "مى"، كلما بدت عبارات مراسلها أكثر جرأة أو شابها بعض سخرية من تعبير اختارته دون قصد منها، تلجأ إلى "مقاطعته" وتلوذ بصمت يستمر أشهراً أحياناً. مشاعرها الحقيقية كانت تبوح بها فى مقالاتها. وإن كانت قد خصت أعماله بمقالات نقدية مدحية، فقد نهرته فى أخرى. وفى مقالة بعنوان "أنت، الغريب"، عبرت عن كل هواها نحو "ذاك الذى لا يعرف أنها تحبه" و"الذى تبحث عن صوته بين كل الأصوات التى تسمعها".

في رسالة له عام ١٩٢٤، عبرت له "مي" عن خوفها من الحب. ورد عليها جبران: "..
هل تخافين ضوء الشمس؟ هل تخشين مد البحر وجزره؟...". فاجأه موقفها. وبدا أنه
اختار التراجع لإنقاذ حريته أو وقته، مفضلاً عدم الانطلاق في علاقة قد تتطلب منه
ومنها تضحيات كبيرة. أدركت "مي" حينذاك، بمرارة، سوء التفاهم بين رغبتها وفكرة
جبران عن علاقتهما. وأسفت أنها كانت على هذا القدر من الصراحة والمباشرة. وصمتت
ثمانية أشهر، رآها جبران "طويلة كأنها أزل".

رغم كل شيء، استمرت مراسلاتهما، متباعدة، حتى وفاة جبران، لتبقى واحدة من
الأخصب والأجمل في الأدب العربي.

الحرب الكبرى

أقلقت الحرب جبران رغم بعده عن ساحات المعارك بآلاف الكيلومترات. وجعله
الوضع في لبنان مضطرباً: استولت السلطات العثمانية على كل موارد البلد، وصادرت
الماشية، وانتشرت المجاعة، وقمع المعارضون وعلق جمال باشا السفاح مشانق الوطنيين
اللبنانيين والعرب في الساحات العامة. وشعر بالذنب لبعده عن "أولئك الذين يموتون
بصمت". ولم يتردد في قبول منصب أمين سر لجنة مساعدة المنكوبين في سوريا وجبل
لبنان. وساهم بمشاركة الجالية السورية ـ اللبنانية في بوسطن ونيويورك في إرسال
باخرة مساعدات غذائية إلى مواطنيه.

دفع هذا النشاط بعض الكتاب لأن يجعلوا من جبران أيديولوجياً وصاحب نظرية
سياسية، غير أنه لم يكن من ذلك في شيء. وقد رد على من حضه للقيام بدور الزعيم
السياسي بالقول: "لست سياسياً، ولا أريد أن أكون كذلك". كان دافعه هو حس المسؤولية
وتلبية نداء الواجب. كان همه إنسانياً، تحرير الوضع البشري من كل عبودية.

أبطأ هذا النشاط الإنساني والأخبار المأساوية التي توافدت عليه من أوروبا والمشرق
نتاجه الأدبي. صحيح أنه نشر عام ١٩١٤ مجموعته "دمعة وابتسامة"، غير أنها لم تكن
سوى جمع لمقالات بالعربية (٥٦ مقالة) نشرت في "المهاجر"، وكان هو نفسه قد تردد في

نشرها. كانت ذات نفحة إنسانية وضمت تأملات حول الحياة، والمحبة، والوضع فى لبنان وسورية، وقد اتخذت شكل القصيدة المنثورة، الأسلوب غير المعروف فى الأدب العربى، وقد كان رائده.

فى هذه الفترة تقريباً، شعر بالحاجة للكتابة بالإنكليزية، هذه اللغة التى يمكن أن تفتح له الكثير من الأبواب وتمكنه من ملامسة الجمهور الأمريكى. قرأ "شكسبير" مرة أخرى، وأعاد قراءة الكتاب المقدس مرات عدة بنسخة "كينغ جيمس"... كانت إنكليزيته محدودة جداً، غير أنه عمل طويلاً وبجد حتى أتقن لغة شكسبير ولكن دون أن يتخلى عن لغته الأم: "بقيت أفكر بالعربية". ".. كان غنى العربية، التى أولع بها، يدفعه دائماً إلى سبر الكلمة التى تتوافق بأفضل شكل مع مثيلتها فى الإنكليزية، بأسلوب بسيط دائماً..."، كما ذكرت مساعدته "بربارة يونغ".

من أين يبدأ؟ كان أمامه مشروع "النبى"، الذى نما معه منذ الطفولة. سار العمل بطيئاً جداً. أراد أخيراً أن يجد موضوعاً يستقطب أفكاره ولغته الثانية. وفكر جبران: ما الذى يمكن، مع الإفلات من العقاب، أن يكشف حماقة الناس وجبنهم وينتزعه حُجُب المجتمع وأقنعته؟. المجنون. أغرته الفكرة. لم ينس "قزحيّا" فى الوادى المقدس وتلك المغارة التى كانوا يقيدون فيها المجانين لإعادتهم إلى صوابهم، كما كانوا يعتقدون. فى "يوحنا المجنون"، كان قد كتب يقول إن "المجنون هو من يجرؤ على قول الحقيقة"، ذاك الذى يتخلى عن التقاليد البالية والذى "يصلب" لأنه يطمح إلى التغيير. برأيه، "أن الجنون هو الخطوة الأولى نحو انعدام الأنانية... هدف الحياة هو تقريبنا من أسرارها، والجنون هو الوسيلة الوحيدة لذلك". وهكذا، عنوان كتابه القادم: The Madman. وبقى أن يكتبه.

فى هذه الأثناء، شارك فى مجلة جديدة، The Seven Arts التى كان ينشر فيها كتاب مشهورون، مثل "جون دوس باسوس" و"برتراند راسل"، ومن خلالها أضحى مشهوراً فى الأوساط الفنية النيويوركية، حيث نشر رسومه ونصوصه الأولى بالإنكليزية.

كانت فترة ١٩١٤ ـ ١٩١٦ غنية باللقاءات: تردد جبران إلى صالونات المجتمع الراقى الذى كانت تديره نساء متنفذات. تعرف إلى الفنانة الشهيرة "روز أونيل"، وعمدة

نيويورك، والشاعرة "آمى لويل"، والرسام الرمزى "ألبرت رايدر". ودعى عدة مرات إلى Poetry Society of America التى ألقى فيها مقتطفات من كتاب Madman الذى كان بصدد تأليفه، أمام حضور منتبه.

فى خريف ١٩١٦، التقى مرة أخرى بمخائيل نعيمة، الذى ألف فيه كتاباً، جبران خليل جبران". كان "نعيمة" يدرس فى روسيا قبل أن يتوجه إلى الولايات المتحدة، حيث درس أيضاً القانون والآداب. كتب كلاهما فى "الفنون"، وكلاهما آمنا بالتقمص، وناضل كلاهما من أجل تحرير بلدهما عبر لجنة المتطوعين، جبران كمسؤول عن المراسلات بالإنكليزية ونعيمة كمسؤول عن المراسلات بالعربية.

فى كانون الأول ١٩١٦، التقى أخيراً بـ "رابندراناته طاغور"، الشاعر الهندى الشهير، المتوج بجائزة نوبل فى الآداب لعام ١٩١٣. وكتب إلى "ميرى" فى وصفه قائلاً: "حسن المنظر وجميل المعشر. لكن صوته مخيِّب: يفتقر إلى القوة ولا يتوافق مع إلقاء قصائده...". بعد هذا اللقاء، لم يتردد صحفى نيويوركى فى عقد مقارنة بين الرجلين: كلاهما يستخدمان الأمثال فى كتاباته ويتقنان الإنكليزية واللغة الأم. وكل منهما فنان فى مجالات أخرى غير الشعر".

مع اقتراب الحرب من نهايتها، أكب جبران أكثر على الكتابة. ألف مقاطع جديدة من "النبى"، وأنهى كتابه "المجنون"، التى اشتملت على أربعة وثلاثين مثلاً (قصة قصيرة رمزية) وقصيدة. أرسلها إلى عدة ناشرين، لكنهم رفضوها جميعاً بحجة أن هذا الجنس الأدبى "لا يباع". لكنه وجد ناشراً أخيراً، وظهر العمل عام ١٩١٨ مزيناً بثلاثة رسوم للمؤلف. وكان جبران قد كتب بعض نصوصه بالعربية أصلاً، ثم ترجمها إلى الإنكليزية. ويروى فيه حكاية شخص حساس ولكن "مختلف"، يبدأ بإخبارنا كيف أصبح مجنوناً. "... فى قديم الأيام قبل ميلاد كثيرين من الآلهة نهضت من نوم عميق فوجدت أن جميع براقعى قد سرقت... فركضت سافر الوجه فى الشوارع المزدحمة صارخاً بالناس: "اللصوص! اللصوص! اللصوص الملاعين!" فضحك الرجال والنساء منى وهرب بعضهم إلى بيوتهم خائفين مذعورين... هكذا صرت مجنوناً، ولكنى قد وجدت بجنونى هذا

الحرية والنجاة معاً ...". تميز أسلوب جبران فى "المجنون" بالبساطة واللهجة الساخرة والمرارة، وشكل هذا العمل منعطفاً فى أعمال الكاتب، ليس فقط لأنه أول كتاب له بالإنكليزية، بل لما فيه من تأمل وسمو روحى. وأرسل نسخة منه إلى "مى زيادة"، التى وجدته سوداوياً ومؤلماً. وأرسل نسخة أخرى إلى "جيرترود بارى"، حبيبته الخبيئة. ربما أخفى جبران هذه العلاقة كى لا يجرح "ميرى" ومن أجل أن لا تمس هذه العلاقة اللاأفلاطونية صورته الروحية. كان لجبران علاقات غير محددة، أفلاطونية وجسدية: "جيرترود شتيرن" التى التقاها عام ١٩٣٠ واعتبرت نفسها حبه الأخير، و"مارى خواجى" و"مارى خوريط، و"هيلينا غوستين" التى أكدت، كما فعلت "شارلوت" و"ميشلين" بأن جبران "زير نساء"، وقد روت، مازحةً ومداعبة، أنه طلب منها ذات مرة أن تشترى له مظلة ليقدمها إلى شقيقته "ماريانا"، لكنها اكتشفت بعد حين أنه قد أهداها لامرأة أخرى. هذه المغامرات عاشها جبران سراً، إما حفاظاً على سمعة تلك العشيقات أو خوفاً من تشويه الصورة التى كان يريد أن يعطيها حول نفسه: صورة الناسك، صورة الكائن العلوى، عاشق الروح وليس الجسد.

فى تشرين الثانى ١٩١٨، أعلن الهدنة أخيراً. وكتب جبران إلى "ميرى" يقول: "هذا أقدس يوم منذ ميلاد اليسوع!".

فى أيار ١٩١٩، نشر جبران كتابه السادس بالعربية، "المواكب". كان قصيدة طويلة من مائتين وثلاثة أبيات فيها دعوة للتأمل، كتبها على شكل حوار فلسفى بصوتين: يسخر أحدهما من القيم المصطنعة للحضارة؛ ويغنى الآخر، الأكثر تفاؤلاً، أنشودةً للطبيعة ووحدة الوجود. وقد تميز الكتاب بتعابيره البسيطة والصافية والتلقائية.

فى نهاية عام ١٩١٩، نشر مجموعة من عشرين رسماً تحت عنوان Twenty Drawings. وقد أدخل الناشر إلى مقدمتها نصاً للناقدة الفنية "أليس رافائيل إكستين"، حيث جاء فيها أن جبران "يقف فى أعماله الفنية عند الحدود بين الشرق والغرب والرمزية والمثالية". وقد قيل إن "جبران يرسم بالكلمات"، إذ يبدو رسمه فى الواقع تعبيراً دقيقاً عن أفكاره.

منتدى الشعراء المنفيين

فى ليلة ٢٠ نيسان ١٩٢٠، رأى الكتاب السوريون واللبنانيون فى اجتماع لهم فى نيويورك أنه يجب التصرف من أجل "إخراج الأدب العربى من الموحل، أى الركود والتقليد الذى غاص فيهما". يجب حقنه بدم جديد. وقرر المشاركون تأسيس تنظيم يتمحور حول الحداثة ويكرس لجمع الكتاب وتوحيد جهودهم لخدمة الأدب العربى. وجد جبران الفكرة ممتازة ودعا الأعضاء للاجتماع عنده بعد أسبوع لاحق.

اجتمعوا فى ٢٨ التالى وحددوا أهداف التنظيم الذى أسموه "الرابطة القلمية"، التى ضمت جبران، و"إيليا أبو ماضى" و"ميخائيل نعيمة" و"عبد المسيح حداد" صاحب مجلة "السايح" وآخرين، فى نشر أعمال أعضائها وأعمال الكتاب العربى الآخرين وتشجيع تعريب أعمال الأدب العالمى، فضلاً عن أهداف أخرى. انتخب جبران رئيساً، وميخائيل نعيمة أميناً للسر.

بقيت الرابطة تجتمع دورياً تقريباً حتى وفاة جبران. نشر الأعضاء مقالات فى مجلة "السايح" وكرسوا عدداً فى العام للمختارات. وأضحت الرابطة بأفكارها المتمردة رمزاً لنهضة الأدب العربى... رأى جبران أنه لن يكون للغته العربية مستقبل إذا لم تتحرر من القوالب القديمة ومن "عبودية الجمل الأدبية السطحية"، وإذا لم تتمكن من إرساء حوار حقيقى مع الغرب وتتمثل تأثير الحضارة الأوروبية دون أن تجعلها تهيمن عليها.

فى آب ١٩٢٠، أصدرت منشورات الهلال القاهرية مجموعة تضم ٣١ مقالة لجبران كانت قد ظهرت فى صحف مختلفة ناطقة بالعربية. حملت "العواصف" على عيوب الشرقيين - تعلقهم بالماضى بالتقاليد القديمة -، رافضة حالة خنوع المضطهدين وضعفهم، داعيةً إياهم إلى الطموح والرفعة.

بعد أسابيع لاحقة، نشر جبران كتابه الثانى بالإنكليزية، "السابق"، الذى زينه بخمسة من رسومه. وقد جاء على شكل أمثال وحكايات صغيرة مفعمة بالحكمة والتصوف، وكان بمثابة تهيئة لكتاب جبران الأهم، "النبى".

سنة ١٩٢٣ نشر كتاب جبران باللغة الإنكليزية، وطبع ست مرات قبل نهاية ذلك العام ثم ترجم فورا إلى عدد من اللغات الأجنبية، ويحظى إلى اليوم بشهرة قل نظيرها بين الكتب.

فى هذه الأثناء، حينما كان يعمل بمثابرة على مخطوطة "النبى"، ساءت صحته، ولم يداوها الفرار إلى الطبيعة برفقة الأصدقاء. آثر البقاء فى بوسطن قرب شقيقته "ماريانا"، ولم يعد يطمح إلا إلى إنهاء مخطوطته والعودة إلى مسقط راسه، غير أن أمنية العودة اصطدمت بمشكلة كبيرة: ملاحقة دائنى والده القضائية لاسترجاع ديونهم ممن تبقى من أفراد الأسرة، جبران وماريانا.

رائعة جبران الكبيرة.. النبى

سنة ١٩٢٣ ظهرت إحدى روائع جبران وهى رائعة (النبى) ففى عام ١٩٩٦، بيعت من هذا الكتاب الرائع، فى الولايات المتحدة وحدها، تسعة ملايين نسخة. وما فتئ هذا العمل، الذى ترجم إلى أكثر من أربعين لغة، يأخذ بمجامع قلوب شريحة واسعة جداً من الناس. وفى الستينيات، كانت الحركات الطلابية والهيبية قد تبنت هذا المؤلف الذى يعلن بلا مواربة: "أولادكم ليسوا أولاداً لكم، إنهم أبناء وبنات الحياة المشتاقة إلى نفسها...". وفى خطبة شهرية له، كرر "جون فيتزجرالد كندى" سؤال جبران: "هل أنت سياسى يسال نفسه ماذا يمكن أن يفعله بلده له... أم أنك ذاك السياسى الهمام والمتحمس... الذى يسأل نفسه ماذا يمكن أن يفعله من أجل بلده؟".

حمل جبران بذور هذا الكتاب فى كيانه منذ طفولته. وكان قد غير عنوانه أربع مرات قبل أن يبدأ بكتابته. وفى تشرين الثانى ١٩١٨ ?كتب إلى "مى زيادة" يقول "هذا الكتاب فكرت بكتابته منذ ألف عام..". ومن عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٢٢، كرس جبران جل وقته لهذا العمل، الذى اعتبره حياته و"ولادته الثانية". وساعدته "ميرى" فى التصحيحات، إلى أن وجد عام ١٩٢٣ أن عمله قد اكتمل، فدفعه إلى النشر، ليظهر فى أيلول نفس العام.

"النبى" كتاب شبيه بالكتاب المقدس وبالأناجيل من حيث أسلوبه وبنيته ونغمية جمله، وهو غنى بالصور التلميحية، والأمثال، والجمل الاستفهامية الحاضة على تأكيد الفكرة

نفسها، "من يستطيع أن يفصل إيمانه عن أعماله، وعقيدته عن مهنته؟"، "أو ليس الخوف من الحاجة هو الحاجة بعينها؟".

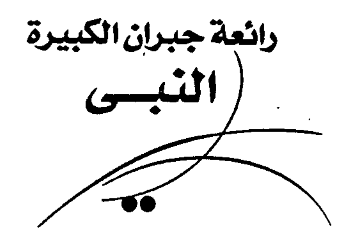
أمكن أيضاً إيجاد تشابه بين "النبى" و"هكذا تكلم زرادشت" لنيتشه. من المؤكد أن جبران قرأ كتاب المفكر الألمانى، وثمّنه. اختار كلاهما حكيماً ليكون لسان حاله. الموضوعات التى تطرقا إليها فى كتابيهما متشابهة أحياناً: الزواج، والأبناء، والصداقة، والحرية، والموت.... كما نعثر على بعض الصور نفسها فى العملين، كالقوس والسهم، والتائه..... مع ذلك، ففى حين تتسم الكتابة النيتشوية برمزية شديدة وفصاحة تفخيمية، تمتاز كتابة "النبى" بالبساطة والجلاء وبنفحة شرقية لا يداخلها ضعف. ونيتشه أقرب بكثير إلى التحليل الفلسفى من جبران، الذى يؤثر قول الأشياء ببساطة.

"النبى" هو كتاب فى التفاؤل والأمل. وبطريقة شاعرية، وأسلوب سلس، يقدم لنا جبران فيه برسالة روحية تدعونا إلى تفتح الذات و"إلى ظمأ أعمق للحياة".

■■■

رائعة جبران الكبيرة

النبــى



بماذا أجيب على كلماتك بشأن كتاب "النبى "؟ ماذا أقول لك؟

ليس هذا الكتاب سوى القليل من الكثير الذى رأيته وأراه فى كل يوم فى قلوب الناس الصامتة وفى أرواحهم المشتاقة إلى البيان. لم يقم فى الأرض من استطاع أن يأتى بشىء من عنده كفرد واحد منفصل عن الناس كافة. وليس بيننا اليوم من يقدر على أكثر من تدوين ما يقوله الناس له على غير معرفة منهم.

إنما النبى يا مى أول حرف من كلمة.. توهمت فى الماضى أن هذه الكلمة لى وفىّ ومنى، لذلك لم أستطع تهجئة أول حرف من حروفها وكان عدم استطاعتى سبب مرضى بل وكان سبب ألم وحرقة فى روحى...

وبعد ذلك شاء الله وفتح عينى فرأيت النور..ثم شاء الله وفتح أذنى فسمعت الناس يلفظون هذا الحرف الأول، شاء الله وفتح شفتى فرددت لفظ الحرف: رددته مبتهجا فرحا لأننى عرفت للمرة الأولى أن الناس هم هم كل شىء وأننى بذاتى المنفصلة لست شيئا. وأنتِ أعرف الناس بما كان فى ذلك من الحرية والراحة والطمأنينة، أنتِ أعرف الناس بشعور من وجد نفسه فجأة خارج حبس ذاتيته المحدودة

وأنتِ يا مى، أنت صغيرتى الكبيرة، تساعديننى الآن على الإصغاء إلى الحرف الثانى وسوف تساعديننى على لفظه، وستكونين معى دائما.

قربى جبهتك يا مريم، قربيها ففى قلبى زهرة بيضاء أريد أن أضعها على جبهتك. ما أعذب المحبة عندما تقف مرتعشة مخجولة أمام نفسها.

والله يباركك. الله يحرس صغيرتى المحبوبة، والله يملأ قلبها بأناشيد ملائكته

هذه الرسالة التى أرسلها جبران لمى زيادة يحدثها عن كتابه النبى..

النبـــى

وظل المصطفى، المختار الحبيب، الذى كان فجراً لذاته، يترقب عودة سفينته فى مدينة اورفيليس اثنتى عشرة سنة ليركبها عائداً إلى الجزيرة التى ولد فيها.

وفى السنة الثانية عشرة، وفى اليوم السابع من أيلول شهر الحصاد صعد إلى قمة إحدى التلال القائمة وراء جدران المدينة وألقى نظرة عميقة إلى البحر، فرأى سفينته تمخر عباب البحر مغمورة بالضباب

فاختلج قلبه فى أعماقه، وطارت روحه فوق البحر فرحاً، فأغمض عينيه، ثم صلىّ فى سكون نفسه.

غير أنه ما هبط عن التلة حتى فاجأته كآبة صماء، فقال فى قلبه: كيف انصرف من هذه المدينة بسلام، وأسير بالبحر من غير كآبة؟ كلا! إننى لن أبرح هذه الأرض حتى تسيل الدماء من جراح روحى

فقد كانت أيام كآبتى طويلة ضمن جدرانها، وأطول منها كانت ليالى وحدتى وانفرادى، ومن ذا يستطيع أن ينفصل عن كآبته ووحدته من غير أن يتألم قلبه؟

كثيرة هى أجزاء روحى التى فرقتها فى هذه الشوارع وكثير هم ابناء حنينى الذين يمشون عراة بين التلال فكيف أفارقهم من غير أن اثقل كاهلى وأضغط روحى!

فليس ما أفارقه بالثوب الذى انزعه عنى اليوم ثم ارتديه غدا، بل هو بشرة أمزقها بيدى

كلا وليس فكراً أخلفه ورائى بل هو قلب جمّلته مجاعتى وجعله عطشى رقيقاً خفوقاً

بيد أنى لا أستطيع أن أبطئ فى سفرى

فإن البحر الذى يدعو كل الأشياء إليه يستدعينى فيجب علىّ أن أركب سفينتى وأسير فى الحال إلى قلبه

ولو أقمت الليلة ههنا فإننى مع أن ساعات الليل ملتهبة أجمد وأبلور وأتقيد بقيود الأرض الثقيلة

وإننى أود لو يتاح لى أن يصحبنى جميع الذين ههنا ولكن أنى يكون لى ذلك؟

فإن الصوت لا يشتطيع أن يحمل اللسان والشفتين اللوتى تسلحن بجناحيه ولذلك فهو وحده يخترق حجب الفضاء

أجل والنسر يا صاح لا يحمل عشه بل يطير وحده محلقا فى عنان السماء

وعندما بلغ المصطفى سفح التلة التفت ثانية "إلى البحر فرأى سفينته تدنو من المرفأ وأبناء بلاده يروحون ويجيئون على نقدّمها

فهتف لهم من صميم فؤاده وقال:

يا أبناء أمى الاولى أيها الراكبون متون الأمواج المذللون مدها وجزرها كم من مرة أبحرتم فى أحلامى! وها قد أتيتم ورأيتكم فى يقظتى لتى هى أعمق أحلامى.

إننى على اتم الأهبة للإبحار وفى اعماقى شوق عظيم يترقب هبوب الريح على القلوع بفارغ الصبر

ولكننى أود أن اتنفس مرة واحدة فى هذا الجو الهادئ وأن ابعث بنظرة عطف واحدة إلى الوراء

وحينئذ أقف معكم ملاحا بين الملاحين

أما انت أيها البحر العظيم أيها الأم الهاجعة

أنت أيها البحر العظيم الذى فيك وحدك يجد النهر وانجدول سلامهما وحريتهما

فاعلم أن هذا الجدول لن يدور إلا دورة واحدة بعد ولن يسمع أحد خريره على هذا المعبر اليوم وحينئذ آتى إليك نقطة طليقة إلى اوقيانوس طليق

وفيما هو ماش رأى عن بعد رجالاً ونساء يتركون حقولهم وكرومهم ويهرولون إلى أبواب المدينة

وسمعهم يصرخون بعضهم ببعض من حقل إلى حقل مرددين اسمه وكل منهم يحدث رفيقه بقدوم سفينته

فقال فى نفسه:

أيكون يوم الفراق يوم الاجتماع؟

أم يجرى على الأفواه أم مسائى كان فجراً لى؟

وماذا يجدر بى أن أقدم للفلاح الذى ترك سكته فى نصف تلمه وللكرّام الذى أوقف دولاب معصرته؟

أيتحول قلبى إلى شجرة كثيرة الأثمار فأقطف منها وأعطيهم؟

أم تفيض رغباتى كالينبوع فأملأ كؤوسهم؟

هل أنا قيثارة فتلامسنى يد القدير أم أنا مزمار فتمر بى أنفاسه؟

أجل إننى هائم أنشد السكينة ولكن ماهو الكنز الذى وجدته فى السكينة لكى أوزعه بطمأنينة؟

وإن كان هذا اليوم يوم حصادى ففى أية حقول بذرت بذارى وفى أى فصل من الفصول المجهولة كان ذلك؟

وإن كانت هذه هى الساعة التى يجدر بى أن أرفع فيها مصباحى واضعا إياه على منارتى فإن النور الذى يتصاعد منه ليس منى

لأننى سأرفع مصباحى فارغا مظلما

ولكن حارس الليل سيملأ ه زيتا وسينيره أيضا

قال هذا معبرا عنه بالألفاظ ولكن كثيرة مثل هذا حفظه فى قلبه من غير أن يعلنه لأنه نفسه لم يقدر أن يوضح سره العميق

و عندما دخل المدينة استقبله الشعب بأسره وكانوا يهتفون له مرحبين به بصوت واحد

فوقفه شيوخ المدينة وقالوا له: بربك لا تفارقنا هكذا سريعا، فقد كنت ظهيرة فى شفقنا، وقد أوحى شبابك الأحلام فى نفوسنا

و أنت لست غريب بيننا كلا ولا أنت بالضيف بل أنت ولدنا وقسيم أرواحنا الحبيب

فلا تجعل عيوننا تشتاق إلى رؤية وجهك

ثم قال له الكهان والكاهنات:

لا تأذن لأمواج البحر أن تفصل بيننا فتجعل الأعوام التى قضيتها بيننا نسياً منسياً، فقد كنت فينا روحا محيية، وكان خيالك نورا يشرق على وجوهنا وقد عشقتك قلوبنا وعلقتك أرواحنا

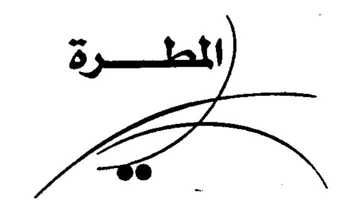
ولكن محبتنا تقنعت بحجب الصمت فلم نستطيع أن نعبر عنها، بيد أنها تصرخ إليك الآن بأعلى صوتها وتمزق حجبها لكى تظهر لك حقيقتها

فإن المحبة منذ البدء لا تعرف عمقها إلا ساعة الفراق

ثم جاء إله كثيرون متوسلين متضرعين فلم يرد على أحد جوابا ولكنه كان يحنى رأسه وكان الواقفون حوله ينظرون عبرات تتساقط بغزارة على وجنتيه وصدره

وظل يمشى مع الشعب حتى وصلوا إلى الساحة الكبرى أمام الهيكل.

■ ■ ■



المطـــرة

وحدث إذ ذاك أم امرأة عرافة خرجت من المقدس اسمها المطرة فنظر إليها نظرة ملؤها الحى والحنان لأنها كانت أول من سعى إليه وآمن به مع أنه لم يكن له إلا ليلة وضحاها فى مدينتهم

فحيته باحترام وقالت له: يا نبى الله قد طالما كنت تسعى وراء ضالتك المنشودة مفتشاً عن سفينتك التى كانت بعيدة عنك

وها قد وصلت سفينتك ولم يبق من بد لسفرك

عظيم هو حنينك إلى أرض أحلامك وتذكاراتك ومواطن الفائقات من رغباتك ولذلك فإن محبتنا لا تقيدك وحاجتنا إليك لا تمسك بك ولكننا واحدة نسألك قبل أن تفارقنا:

أن تخطب فينا وتعطينا من الحق الذى عندك، ونحن نعطيه لأولادنا وأولادنا لأولادهم وحفدتهم وهكذا يثبت كلامك فينا على مر العصور

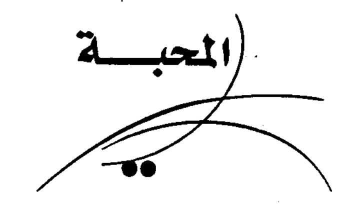
ففى وحدتك كنت ترقب أيامنا وفى يقظتك كنت تصغى إلى بكائنا وضحكنا فى غفلتنا

لذلك نضرع إليك أن تكشف مكنوناتنا لذواتنا وتخبرنا بكل ما أظهر لك من أسرار الحياة من المهد إلى اللحد

فأجاب قائلا:

يا أبناء اورفيليس بماذا أحدثكم إن لم أظهر لكم ما يختلج فى نفوسكم وتتحرك به ضمائركم حتى فى هذه الساعة؟

■ ■ ■



المحبة

حينئذ قالت له المطرة: هات لنا خطبة فى المحبة

فرفع رأسه ونظر إلى الشعب نظرة محبة وحنان فصمتوا جميعهم خاشعين فقال لهم بصوت عظيم:

إذا أشارت المحبة إليكم فاتبعوها، وإن كانت مسالكها صعبة متحدرة

وإذا ضمتكم جناحيها فأطيعوها، وإن جرحكم السيف المستور بين ريشها

وإذا خاطبتكم المحبة فصدقوها، وإن عطل صوتها أحلامكم وبددها كما تجعل الريح الشمالية البستان قاعا صفصفاً

لأنه كما أن المحبة تكللكم فهى أيضا تصلبكم، وكما تعمل على نموكم هكذا تعلمكم وتستأصل الفاسد منكم

وكما ترتفع إلى أعلى شجرة حياتكم فتعانق أغصانها اللطيفة المرتعشة أمام وجه الشمس،

هكذا تنحدر إلى جذورها الملتصقة بالتراب وتهزها فى سكينة الليل

المحبة تضمكم إلى قلبها كأغمار الحنطة

وتدرسكم على بيادرها لكى تظهر عريكم

وتغربلكم لكى تحرركم من قشوركم

وتطحنكم لكى تجعلكم أنقياء كالثلج وتعجنكم بدموعها حتى تلينوا

ثم تعدكم لنارها المقدسة لكى تصيروا جبزاً مقدساً يقرب على مائدة الرب المقدسة

كل هذا تصنعه المحبة بكم لكى تدركوا أسرار قلوبكم فتصبحوا بهذا الادراك جزءاً من قلب الحياة

غير أنكم إذا خفتم وقصرتم سعيكم على الطمأنينة واللذة فى المحبة فالأجدر بكم أن تستروا عريكم وتخرجوا من بيدر المحبة إلى العالم البعيد حيثما تضحكون ولكن ليس كل ضحككم ولكن ليس كل ما فى مآقيكم من الدموع

المحبة لا تعطى إلا نفسها، ولا تأخذ إلا من نفسها

المحبة لا تملك شيئا ولا تريد أن يملكها أحد

لأن المحبة مكتفية بالمحبة

أما أنت إذا أحببت فلا تقل: " إن الله فى قلبى " بل قل بالأحرى: " أنا فى قلب الله "

ولا يخطر لك البتة أنك تستطيع أن تتسلط على مسالك المحبة لأن المحبة إن رأت فيك استحقاقاً لنعمتها تتسلط هى على مسالكك

والمحبة لا رغبة لها إلا فى أن تكمل نفسها

ولكن إذا أحببن وكان لا بد من أن تكون لك رغبات خاصة بك فلتكن هذه رغباتك:

أن تذوب وتكون كجدول متدفق يشنف آذان الليل بأنغامه

أن تخبر الآلام التى فى العطف المتناهى

أن يجرحك إدراكك الحقيقى للمحبة فى حبة قلبك وأن تنزف دماؤك وأنت راض مغتبط

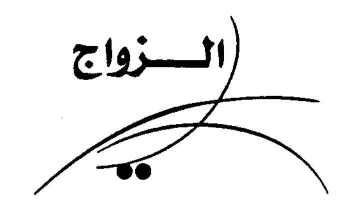
أن تنهض عند الفجر بقلب مجنح خفوق فتؤدى واجب الشكر ملتمسا يوم محبة آخر

أن تستريح عند الظهيرة وتناجى نفسك بوجد المحبة

أن تعود إلى منزلك عند المساء شاكراً:

فتنام حينئذ والصلاة لآجل من أحببت تتردد فى قلبك وأنشودة الحمد والثناء مرتسمة على شفتيك.

■ ■ ■



ثم قالت له المطرة ثانية: وما رأيك فى الزواج أيها المعلم؟

فأجاب قائلاً:

قد ولدتم معا وستظلون معا إلى الأبد

و ستكونون معا عندما تبدد أيامكم أجنحة الموت البيضاء أجل وستكونون معا حتى فى سكون تذمارات الله

ولكن فليكن بين وجودكم معا فسحات تفصلكم بعضكم عن بعض حتى ترقص أرياح السموات فيما بينكم

احبوا بعضكم بعضا ولكن لا تقيدوا المحبة بالقيود بل لتكن المحبة بحرا متموجا بين شواطئ نفوسكم

ليملأ كل واحد منكم كأس رفيقه ولكن لا تشربوا من كأس واحدة أعطوا من خبزكم كل واحد لرفيقه ولكن لا تأكلوا من الرغيف الواحد

غنوا ارقصوا معا وكونوا فرحين ابدا ولكن فليكن كل منكم على حده

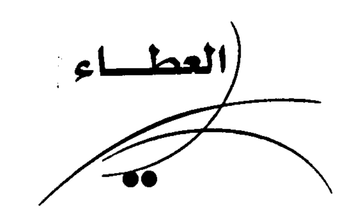
كما أن واتار القيثارة يقوم كل منها وحده ولكنها جميعا تخرج نغما واحدا

ليعط كل منكم قلبه لرفيقه ولكن حذار أن يكون هذا العطاء لأجل الحفظ لأن يد الحياة وحدها تستطيع أن تحتفظ بقلوبكم

قفوا معا ولكن لا يقرب احدكم من الاخر كثيرا لن عمودى الهيكل يقفان منفصلين

والسنديانة والسروة لا تنمو الواحدة منهما فى ظل رفيقتها

■■■



ثم قال له رجل غني: هات حدثنا عن العطاء

فأجاب قائلا:

إنك إذا اعطيت فإنما تعطى القليل من ثروتك

ولكن لا قيمة لما تعطيه ما لم يكن جزءاً من ذاتك لأنه أى شىء هى ثروتك ظل

ألبست مادة فانية تخزنها فى خزائنك وتحافظ عليها جهدك خوفا من أن تحتاج إليها غدا؟

والغد، ماذا يستطيع الغد أن يقدم للكلب البالغ فطنة الذى يطمر العظام فى الرمال غير المطروقة وهو يتبع الحجاج إلى المدينة المقدسة؟

أو ليس الخوف هو الحاجة هو الحاجة بعينها؟

أو ليس الظمأ الشديد للماء عندما تكون بئر الظامئ ملآنة هو العطش الذى لا تروى غلته؟

من الناس من يعطون قليلاً من الكثير عندهم وهم يعطونه لأجل الشهرة ورغبتهم الخفية فى الشهرة الباطلة تضيع الفائدة من عطاياهم

ومنهم من يملكون قليلاً ويعطونه بأسره

ومنهم المؤمنون بالحياة وبسخاء الحياة هؤلاء لا تفرغ صناديقهم وخزائنهم ممتلئة ابدا

ومن الناس من يعطونه بفرح وفرحهم مكافأة

ومنهم من يعطونه بألم وألمهم معمودية لهم

وهنالك الذين يعطون ولا يعرفون معنى الألم فى عطائهم ولا يتطلبون فرحا ولا يرغبون فى إذاعة فضائلهم هؤلاء يعطون مما عندهم كما يعطى الريحان عبيره العطر فى ذلك الوادى

بمثل أيدى هؤلاء يتكلم الله ومن خلال عيونهم يبتسم على الأرض

جميل أن تعطى من يسألك ما هو فى حاجة إليه

ولكن أجمل من ذلك أن تعطى من لا يسألك وأنت تعرف حاجته

فإن من يفتح يديه وقلبه للعطاء يكون فرحه بسعيه إلى من يتقبل عطاياه والاهتداء إليه أعظم منه بالعطاء نفسه

وهل فى ثروتك شى تقدر أن تستبقيه لنفسك؟

فإن كل ما تملكه اليوم سيفترق ولا شك يوما ما، ذلك أعط منه الآن ليكون فصل العطاء من فصول حياتك أنت دون ورثتك

وقد طالما سمعتك تقول متبجحاً: إننى أحب أن أعطى ولكن المستحقين فقط

فهل نسيت يا صاح أن الأشجار فى بستانك لا تقول قولك ومثلها القطعان فى مراعيك؟

فهى تعطى لكى تحيا لأنها إذا لم تعط عرضت حياتها للتهلكة

الحق أقول لك إن الرجل الذى استحق أن يقتبل عطية الحياة ويتمتع بأيامه ولياليه هو مستحق لكل شىء منك

والذى استحق أن يشرب من أوقيانوس الحياة يستحق أن يملأ كأسه من جدولك الصغير

لأنه أى صحراء أعظم من الصحراء ذات الجرأة والجسارة على قبول العطية بما فيها من الفضل والمنة؟

وأنت من انت حتى أن الناس يجب أن يمزقوا صدورهم ويحسروا القناع عن شهامتهم وعزة نفوسهم لكى ترى جدارتهم لعطائك عارية وأنفتهم مجردة عن الحياء؟

فانظر أولا هل أنت جدير بأن تكون معطاء وألة عطاء

لأن الحياة هى التى تعطى الحياة فى حين أنك وأنت الفخور بأن قد صدر العطاء منك لست بالحقيقة سوى شاهد بسيط على عطائك

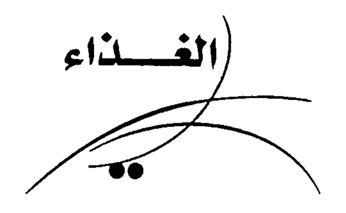
أما أنتم الذين يتناولون العطاء والإحسان وكلكم منهم فلا تتظاهروا بثقل واجب معرفة الجميل لئلا تضعوا بأيدكم نيراً ثقيل الحمل على رقابكم ورقاب الذين أعطوكم

بل فلتكن عطايا المعطى أجنحة ترتفعون بها معه

لأنكم إذا أكثرتم من الشعور بما أنتم عليه من الدين فإنكم بذلك تظهرون الشك والريبة فى أريحية المحسن الذى أمة الأرض السخية وأبوه الرب الكريم.

■ ■ ■

الغـــذاء



وبعد ذلك جاء إليه فندقى شيخ وقال له: هات حدثنا عن المأكل والمشرب

فأجاب قائلا: أود لو أنك تقدر أن تعيش على عبير الأرض تكتفى بالنور كنباتات الهواء

غير أنك مضطر أن تقتل لتعيش وأن تسرق المولود الصغير من حضن أمه مختطفا حليبها لتبريد ظمأك

لذلك فليكن عملك مظهرا من مظاهر العبادة

ولتكن مائدتك مذبحا تقرب عليه التقادم التقية الطاهرة من الحقول والسهول ضحية لما هو أكثر منها نقاوة فى أعماق الإنسان

وإذا ذبحت حيوانا فقل له فى قلبك:

إن القوة التى أمرت بذبحك ستذبحنى نظيرك

وعندما تحين ساعتى سأحترق مثلك

لأن الشريعة التى أسلمتك إلى يدى ستسلمنى إلى يدى من هو أقوى منى

وليس دمك ودمى سوى عصارة قد أعدت منذ الأزل غذاء لشجرة السماء

وإذا نهشت تفاحة بأسنانك فقل لها فى قلبك:

إن بذورك ستعيش فى جسدى، والبراعم التى ستخرج منها فى الغد ستزهر فى قلبى

وسيتصاعد عبيرك مع أنفاسى، وسأفرح معك فى جميع الفصول

و إذا قطفت العنب من كرومك فى أيام الخريف وحملته إلى المعصرة فقل له فى قلبك:

أنا كرمة مثلك وستجمع أنمارى وتحمل إلى المعصرة وسيضعوننى كالخمر الجديدة فى زقاق جديدة

و عندما تستقى الخمرة فى زقاقها أيام الشتاء أنشد فى قلبك أنشودة لكل كأس تشربها وليكن لك من أناشيدك أجمل التذكارات لأيام الخريف وللكرمة والمعصرة

■ ■ ■

العمــل



ثم جاء إليه فلاح وقال له: هات حدثنا عن العمل

فأجاب قائلاً:

إنكم تشتغلون لكى تجاروا الأرض ونفس الأرض فى سيرها

لأن الكسول غريب عن فصول الأرض وهائم لا يسير فى موكب الحياة السائرة بعظمة وجلال فى فضاء اللانهاية إلى غير المتناهى

فإذا استغلت فما أنت سوى مزمار تختلج فى قلبك مناجاة الأيام فتتحول إلى موسيقى خالدة

ومن منكم يود أن يكون قصبة خرساء صماء وجميع ما حولها يترنم معا بأنغام متفقة؟

قد طالما أخبرتم أن العمل لعنة والشغل نكبة ومصيبة

أما أنا فأقول لكم إنكم بالعمل تحققون جزءاً من حلم الأرض البعيد جزءاً خصص لكم عند ميلاد ذلك الحلم

فإذا واظبتم على العمل النافع تفتحون قلوبكم بالحقيقة لمحبة الحياة

لأن من أحب الحياة بالعمل النافع تفتح له الحياة أعماقها وتدنيه من أبعد الأسرار

لأن من أحب الحياة بالعمل النافع تفتح له الحياة أعماقها وتدنيه من أبعد أسرارها

ولكن إذا كنتم وأنتم فى الآلام تدعون الولادة كآبة ودعامة الجسد لعنة مكتوبة على جباهكم فإننى الحق أقول لكم إنه ما من شىء يستطيع أن يمحو هذه الكتابة ويغسل

جباهكم من آثارها سوى سعيكم وجهادكم وقد ورثتم عن جدودكم القول إن الحياة ظلمة فرحتم فى عهد مشقتكم ترددون ما قاله قبلكم جدودكم المزعجون

فالحق أقول لكم إن الحياة تكون بالحقيقة ظلمة حالكة إذا لم ترافقها الحركة

و الحركة تكون عمياء لا بركة فيها إن لم ترافقها المعرفة

و المعرفة تكون عقيمة سقيمة إن لم يرافقها العمل

و العمل يكون باطلاً وبلا ثمر إن لم يقترن بالمحبة لأنكم إذا اشتغلتم بمحبة فإنما تربطون أنفسكم وأفرادكم بعضها ببعض ويرتبط كل واحد منكم بربه

وما هو العمل المقرون بالمحبة؟

هو أن تحوك الرداء بخيوط مسحوبة من نسيج قلبك مفكراً أن حبيبك سيرتدى ذلك الرداء

هو أن تبنى البيت بحجارة مقطوعة من مقلع حنانك وإخلاصك مفكراً أن حبيبك سيقطن فى ذلك البيت

هو أن تبذر البذور بدقة وعناية وتجمع الحصاد بفرح ولذة كأنك تجمعه لكى يقدم على مائدة حبيبك

هو ان تضع فى كل عمل من أعمالك نسمة من روحك، وتثق بأن جميع الأموات الأطهار محيطون بك يراقبون ويتأملون

و كثيراً ما كنت أسمعكم تناجون أنفسكم كأنكم فى نوم عميق قائلين: إن الذى يشتغل بنحت الرخام فيوجد مثالاً محسوساً لنفسه من الحجر الأصم هو أشرف من الفلاح الذى يحرث الأرض

و الذى يستعير من قوس قزح ألواناً يحول بها قطعة من النسيج الحقيرة إلى صورة إنسان هو أفضل من الاسكافى الذى يصنع الأحذية لأقدامنا "

ولكنى أقول لكم لا فى نوم الليل بل فى يقظة الظهيرة البالغة إن الريح لا تخاطب السنديانة الجبارة بلهجة أحلى من اللهجة التى تخاطى بها أحقر أعشاب الأرض

والعظيم العظيم ذلك الذى يحول هيمنة الريه إلى أنشودة تزيدها محبته حلاوة وعذوبة

أجل إن العمل هو الصورة الظاهرة للمحبة الكاملة

فإذا لم تقدر أن تشتغل بمحبة وكنت متضجرا ملولاً فلأجدر بك أن تترك عملك وتجلى على درجات الهيكل تلتمس صدقة من العملة المشتغلين بفرح وطمأنينة

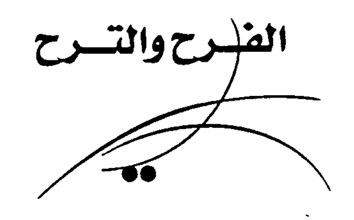
لأنك إذا خبزت خبزاً وانت لا تجد لك لذة فى عملك فإنما أنت تخبز علقماً لا يشبع سوى نصف مجاعة الإنسان

و إذا تذمرت وأنت تعصر عنبك فإن تذمرك يدس لك سماً فى الخمرة المستقطرة من ذلك العصير

و إن أنشدت أناشيد الملائكة ولم تحب أن تكون منشداً فإنما أنت تصم آذان الناس بأنغامك عن الإصغاء إلى أناشيد الليل والنهار

■■■

الفرح والترح



ثم قالت له امرأة: هات لنا شيئاً عن الفرح والترح

إن فرحكم هو ترحكم ساخرا...

و البئر الواحدة التى تستقون منها ماء ضحككم قد طالما ملئت بسخين دموعكم

وهل فى الإمكان أن يكون الحال على غير هذا المنوال؟

فكما أعمل وحش الحزن أنيابه فى أجسادكم تضاعف الفرح فى اعماق قلوبكم

لأنه أليست الكأس التى تحفظ خمرتكم هى نفس الكأس التى أحرقت فى أتون الخراف قبل أن بلغت إليكم؟

أم ليست القيثارة التى تزيد طمأنينة أرواحكم هى نفس الخشب الذى قطع بالمدى والفؤوس؟

فإذا فرحتم فتأملوا ملياً فى أعماق قلبوكم تجدوا أم ما أحزنكم قبلا يفرحكم الآن وإذا احاطت بكم جيوش الكآبة ببصائركم ثانية إلى أعماق قلوبكم وتأملوا جيدا تروا هنالك بالحقيقة أنكم تبكون لما كنتم تعتقدون أنه غاية مسراتكم على الأرض

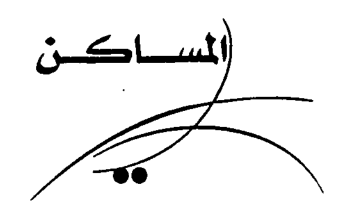
و يخيل إلى أن فريقاً منكم يقول: " إن الفرح أعظم من الترح " فيعارضه فريق آخر: " كلا، بل الترح أعظم من الفرح "

أما أنا فالحق أقول لكم: انهما توأمان لا ينفصلان يأتيان معاً ويذهبان معاً فإذا جلس احدهما منفرداً إلى مائدتكم فلا يغرب عن أذهانكم أن رفيقه يكون حينئذ مضطجعاً على أسرتكم

أجل إنكم بالحقيقة معلقون ككفتى الميزان بين ترحكم وفرحكم وأنتم بينهما متحركون أبداً ولا تقف حركتكم إلا إذا كنتم فارغين فبأعماقكم

فإذا جاء أمين خزائن الحياة يرفعكم لكى يزن ذهبه وفضته فلا ترتفع كفة فرحكم ولا ترجح كفة ترحكم بل تثبتان على حالة واحدة

■■■



حينئذ دنا منه بناء وقال له: هات حدثنا عن البيوت

فأجاب وقال:

ابن من خيالك مظلة فى الصحراء قبل أن تبنى فى داخل أسوار المدينة لأنه كما كان لك بيتاً مقبلا فى شفق حياتك كذلك للغريب الهائم فيك بيت كبيتك

إن بيتك هو جسدك الأكبر

ينمو فى حرارة الشمس وينام فى سكينة الليل وكثيرا ما ترافق نومه الأحلام أفلا يحلم بيتك وهل يترك الحلم المدينة ويسير إلى الغابة أم إلى رأس التلة؟

أواه لو أستطيع أن أجمع بيوتكم بيدى فأبددها فى الأحراج والرياض كما يبذر الزارع فى الحقول

أود لو كانت الأودية شوارع لكم ومسالك التلال الخضراء أزفة تطرقها أقدامكم عوضاً عن أزقتكم وشوارعكم القذرة وياليتكم تنشدون بعضكم بعضا بين الدوالى والكروم ثم تعودون حاملين عطر الأرض فى طيات أثوابكم

و لكن هذه جميعها تمنيات لم تحن ساعتها بعد

لأن آبائكم وجدودكم إذ خانوا عليكم الضياع والضلال جمعوكم معا لكى تكونوا قريبين من بعض وسيبقى هذا الخوف مجمعا لكم زمنا بعد وستظل أسوار المدينة فاصلة مواقدكم عن حقولكم ولكن إلى حين

بربكم أخبرونى يا أبناء اورفيليس ماذا تملكون فى هذه البيوت وأى شىء تحتفظون به فى داخل هذه الأبواب الموصدة؟

هل عندكم السلام وهو القوة الصامتة التى تظهر ذاتكم الشديدة العزم المستترة فى اعماقكم؟

هل عنكم التذكارات وهى القناطر اللامعة التى تصل قنن الفكر الانسانى بعضها ببعض؟

هل عندكم الجمال الذى يرتفع بالقلب من مصنوعات الخشب والحجارة إلى الجبل المقدس؟

بربكم اخبرونى هل عندكم كل هذا فى بيوتكم؟

أم عندكم الرفاهية فقط والتحرق للرفاهية الممزوج بالطمع الرفاهية التى تدخل البيت ضيفا ثم لا تلبث أن تصير مضيفا فسيداً عاتياً عنيفاً

ثم تتحول إلى رائض جبار يتقلد السوط بيمينه والكلاب بيساره متخذا ورغباتكم الفضلى ألعوبة يتلهى بها ومع أن بنان هذه الرفاهية حريرى الملمس فإن قلبها حديدي صلد فهى تهدىء من حدتكم لكى تناموا ثم تقف أمام أسرتكم هازئة بكم وبجلال أجسادكم

تضحك من حواسكم المدركة وتطرح بها بين الأشواك كأنها أوعية سهلة الانكسار لأن التحرق للرفاهية ينحر أهواء النفس فى كبدها فيرديها قتيلة ثم يسير فى جنازتها فاغرا شدقيه مرغياً مزبداً

أما انتم يا ابناء الفضاء العائشين فى الراحة والنعيم غير المستريحين فإنكم لن تؤخذوا بالأشراك ولن يقدر رائض على ترويضكم لأن بيتكم لن يكون مرساة وثكنة سيكون سارية

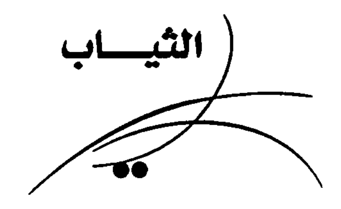
كلا ولن يكون غشاء براقا تغطى به الجراح بل جفنا تحفظ به العين وانتم لن تطووا أجنحتكم لكى تستطيعوا أن تدخلوا من الأبواب ولن تحنوا رؤوسكم لئلا تنطح السقف كلا ولن تخشى أن تتنفسوا خوفا من أن تقوض أساسات الجدران وتسقط على الأرض

أجل ولن تقطنوا فى القبور التى بناها أبناء الموت لأبناء الحياة

ومع كل ما يزين مناولكم من الجلال والجمال فإنها لن تستطيع أن تحتفظ بسركم أو أن تؤوى حنينكم لأن غير المحدود فيكم يقطن من منزل السماء الذى بوابته سحابة الصباح ونوافذه سكون الليل وأناشيده

■ ■ ■

الثيـــاب



ثم قال له الحائك: هات حدثنا عن الثياب

فأجاب قائلاً:

إن ثيابكم تحجب الكثير من جمالكم ولكنها لا تستر غير الجميل ومع أنكم تنشدون بثيابكم حرية التستر والانفراد، فإنها تفسدكم وتستعبدكم

ويا ليت فى وسعكم أن تستقبلوا الشمس والريح بثياب بشرتكم عوضاً عن ثياب مصانعكم لأن أنفاس الحياة فى أشعة الشمس، ويد الحياة تسير مع مجارى الرياح

يقول بعضكم: " إن الريح الشمالية دون غيرها قد حاكت الثياب التى نلبسها."

أنا أقول لكم: " نعم إن الريح الشمالية قد فعلت ذلك، ولكن العار كان نولاً لها، ولدونة العضلات كانت لها خيطاً.

وعندما فرغت من عملها ضحكت منكم وهى تعصف فى قلب الغاب

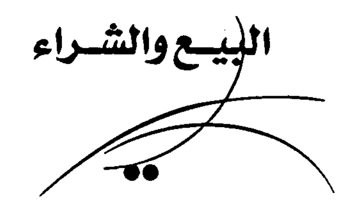
ولكن لا يغرب عن اذهانكم أن الحشمة هى ترس منيع متين للوقاية من عيون المدنسين

فإذا زال المدنسون من الجود، أفلا تصير الحشمة قيداً للفكر وتلويثاً له فى حمأة العبودية؟

لذلك ضعوا نصب عيونكم أن الأرض تبتهج بملامسة أقدامكم العاية. والرياح تتوق إلى ملاعبة شعوركم المسترسلة.

■ ■ ■

البيع والشراء



ثم دنا منه تاجر وقال له: هات حدثنا عن البيع والشراء

فأجاب وقال: إن الأرض تقدم لكم ثمارها، ولو عرفتم كيف تملئون أيديكم من خيراتها لما خبرتم طعم الحاجة فى حياتكم.

لأنكم بغير مبادلة عطايا الأرض لن تجدوا وفراً من الرزق ولن يشبع جشعكم

فيجدر بكم أن تتموا هذه المقايضة بروح المحبة والعدالة وإلا فإنها تؤدى بالبعض منكم إلى الشراهة وبغيرهم إلى الطمع والمجاعة

و إذا ذهبتم إلى ساحة المدينة أيها الدائبون فى خدمة البحر والحقول والكروم فاجتمعوا بالحاكة والخزافين وجامعى الحنوط والطيوب

و اضرعوا فى تلك الساعة إلى الروح المتسلطة على الأرض أن تحل عليكم وتبارك مقاييسكم وموازينكم التى تعينون بها مقدار ما تجرى عليه مقايضاتكم

و لا تأذنوا لذوى الأيدى العقيمة من ذوى البطالة أن يشتركوا فى معاملاتكم لأنه لا شىء لهم يتاجرون به سوى أقوالهم التى يبيعونها لكم بأعمالكم

بل قولوا لأمثال هؤلاء:

" تعالوا معنا إلى الحقل، أو اذهبوا مع اولادنا إلى البحر وألقوا هناك شباككم، لأن الأرض والبحر يجودان عليكم ،متى عملتم، كما يجودان علينا "

وإن جاءكم المغنون والراقصون والعازفون، فاشتروا من عطاياهم ولاترفضوهم،

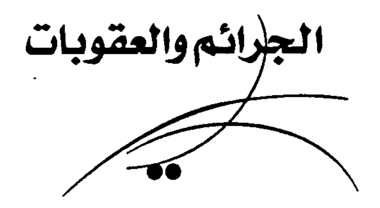
لأنهم يجمعون الأثمار والعطور نظيركم ومع أن ما يقدمونه لكم مصنوع من مادة الأحلام، فإنه أجمل كساء وأفضل غذاء لنفوسكم.

وقبل أن تبرحوا ساحة المدينة انظروا ألا ينصرف أحد منها فارغ اليدين

لأن الروح السـيـدة فى الأرض لا تنام بطمـأنينة وسـلام على تموجـات الـرياح حـتى تشاهد بعينيها أن الصغير فيكم قد نال كالكبير بينكم كل ما هو فى حاجة إليه.

■■■

الجرائم والعقوبات



حينئذ وقف أحد قضاة المدينة وقال له: هات لنا خطبة فى الجرائم والعقوبات

فأجاب وقال: عندما تسير أرواحكم هائمة فوق الرياح وتمسون منفردين ليس لكم طوارئ السوء، حينئذ تقترفون الاثم ضد غيركم وضد أنفسكم

و لأجل ذلك الاثم الذى تقترفونه يجب أن تقرعوا برهة وتنتظروا على بوابة القدوس

فإن ذاتكم الإلهية بحر عظيم

كانت نقية منذ الازل وستظل نقية إلى آخر الدهور

وهى كالأثير لا ترفع إلا ذوى الاجنحة

أجل إن ذاتكم الالهية كالشمس، لا تعرف طرق المناجذ ×(جمع خلد من غير لفظه) ولا تعبأ بأوكار الأفاعى

غير أنها لا تقطن وحيدة فى كيانكم

لأن كثيراً منكم لا يزال بشراً وكثيراً غيره لم يصر بشراً بعد بل هو مسخ لا صورة له يسير غافلاً فى الضباب وهو ينشد عهد يقظته

فلا أود أن احدثكم الآن إلا عن هذا الانسان فيكم، لأن هذا الانسان دون ذاتكم الإلهية ودون المسخ الهائم فى الضباب هو الذى يعرف الجرائم والعقوبات على الجرائم فى كيانكم

قد طالما سمعتكم تتخاطبون فيما بينكم عمن يقترف اثما كأنه ليس منكم بل غريب عنكم ودخيل فيما بينكم

ولكننى الحق أقول لكم كما أن القديس والبار لا يستطيعان أن يتساميا فوق الذات الرفية التى فى كل منكم

هكذا الشرير والضعيف لا يستطيعان أن ينحدرا إلى أدنى من الذات الدنيئة التى فى كل واحد منكم

و كما أن ورقة الشجرة الصغيرة لا تستطيع أن تحوّل لونها من الخضرة إلى الصفرة إلا بإرادة الشجرة ومعرفتها الكامنة فى أعماقها

هكذا لا يستطيع فاعل السوء بينكم أن يقترف إثما بدون إرداتكم الخفية ومعرفتكم التى فى قلوبكم

فإنكم تسيرون معاً فى موكب واحد إلى ذاتكم الإلهية

أنتم الطريق وأنتم المطرقون

فإذا عثر أحد منكم فإنما تكون عثرته عبرة للقادمين وراءه فيتجنبون الحجر الذى عثر به

أجل وتكون عثرته توبيخاً للذين يسيرون أمامه بأقدام سريعة ثابته لأنهم لم ينقلوا حجر العثار من طريقه

و إليكم يا أبناء اورفيليس هذه الكلمة التى وإن جلت ثقيلة على قلوبكم، فهى القيقة بعينها:

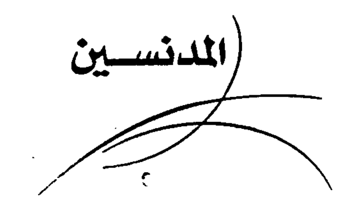
إن القتيل ليس بريئاً من جريمة القتل

وليس المسروق بلا لوم فى سرقته

لا يستطيع البار أن يتبرأ من أعمال الشرير والطاهر النقى اليدين من برىء الذمة من قذارة

■■■

المدنسين



كثيرا ما يذهب المجرم ضحية لمن وقع عليه جرمه، كما يغلب أن يحمل المحكوم عليه الاثقال التى كان يجب أ، يحملها الأبرياء غير المحكومين

لذلك لا تستطيعون أن تضعوا حداً يفصل بين الأشرار والصالحين أو الابرياء والمذنبين لأنهم يقفون معاً أمام وجه الشمس كما أن الخيط الأبيض والخيط الأسود ينسجمان معاً نول واحد

فإذا انقطع الخيط الأسود ينظر الحائك إلى النسيج بأسره ثم يرجع إلى نوله يفحصه وينظفه

لذلك إذا جاء أحدكم بالزوجة الخائنة إلى المحاكمة فليزن أولا قلب زوجها بالموازين وليقس نفسه بالمقاييس

و كل من شاء ان يلطم المجرم بيمينه يجدر به اولا أن أن ينظر ببصيرة ذهنه إلى روح من أوقع الجرم عليه

و لإ، رغب أد منكم فى أن يضع الفأس على أصل الشجرة الشريرة باسم العدالة فلينظر اولاً إلى أعماق جذورها

و هو لا شك واجد أن جذور الشجرة الشيرة وجذور الصالحة وغير المثمرة كلها متشابكة معاً فى قلب الأرض الصامت

أما أنتم أيها القضاة الذين يريدون أن يكونوا أبرارا أى نوع من الأحكام تصدرون على الرجل الأمين بجسده السارق بروحه؟

أم أى عقاب تنزلون بذلك الذى يقتل الجسد مرة ولكن الناس يقتلون روحه ألف مرة؟

وكيف تطاردون الرجل الذى مه أنه خداع ظالم بأعماله فهو موجع القلب، ذليل، مهان بروحه؟

أجل، كيف تستطيعون أن تعاقبوا اللذين لهم توبيخ ضمائرهم وهو أعظم من جرائمهم أكبر قصاص على الأرض؟

أليس توبيخ الضمير هو نفسه العدالة التى تتوخاها الشريعة التى تتظاهرون بخدمتها؟

فأنتم لا تستطيعون أن تسكبوا بلسم توبيخ الضمير فى قلوب الأبراء كما أنكم لا تقدرون أن تنزعوه من قلوب الأشقياء

فهو يأتى لذاته فى ساعة من الليل لا ننتظرها، داعيا الناس إلى النهوض من غفلتهم والتأمل بحياتهم وما فيها من التداعيات والمخالفات

وأنتم أيها الراغبون فى سبر غور العدالة كيف تقدرون أن تدركوا كنهها إن لم تنظروا إلى جميع الأعمال بعين اليقظة فى النور الكامل؟

فى مثل هذا النور تعرفون أن الرجل المنتصب والرجل الساقط على الأرض هما بالحقيقة رجل واحد فى الشفق بين الليل ذاته الممسوخة ونهار ذاته الإلهية وأن حجر الزاوية فى الهيكل ليس بأعظم من الحجر الذى فى أسفل أساساته

■■■

الشرائــع



ثم قال له مشرع: وماذا تعتقد بشرائعنا أيها المعلم

فأجاب قائلاً:

إنكم تستلذون أن تضعوا شرائع لأنفسكم، بيد أنكم تستلذون أكثر أن تكسروها وتتعدوا فرائضها

لذلك أتم كالأولاد الذين يلعبون على الشاطئ يبنون أبراج عظيمة من الرمل بصبر وثبات، ثم لا يلبثون أن يهدوموها ضاحكين صاخبين

فعندما تبنون ابراجكم الرملية يأتى البحر برمال جديدة إلى الشاطئ وعندما تهدمون أبراجكم يضحك البحر منكم فى نفسه لأن البحر يضحك من الأبرياء ابداً

ولكن أقول لكم فى من ليست الحياة بحراً فى عقيدتهم بل ليست الشرائع التى تسنها حكمة الانسان البالغة أبراجا من الرمال فحسب

أولئك الذين يحسبون أن الحياة صخرة صلدة وأن الشريعة إزميل حاد يأخذونه بأيديهم لكى ينحتوا هذه الصخرة على صورتهم ومثالهم وفى الثور الذى يحب نيره ويتهم الوعل والإبل والظبى أنها حيوانات متمردة ناشزة؟

وفى الأفعى العتيقة الأيام التى لا تستطيع أن تخلع جلدها ولذلك تتبرى متهمة جميع الحيوانات بالعرى وقلة الحياء؟

وفى ذلك الذى يسبق غيره إلى وليمة العرس وعندما يملأ جوفه من الأطعمة ويبلغ حده من النهم واشراهة يترك الوليمى ويذهب فى طريقه قائلاً إن جميع الولائم مخالفة للناموس وجميع الذين يجتمعون إليها متعدّو الشريعة؟

ماذا أقول فى امثال هؤلاء؟ انهم كجميع الناس يقفون فى أشعة الشمس ولكنهم يولون الشمس ظهورهم

فهم لذلك لا ينظرون سوى ظلالهم وظلالهم هى عند التحقيق شرائعهم المقدسة

وهل اعترافاتهم بالشريعة سوى انهم ينحون ويطأطئون رؤوسهم لكى يستقصوا ظلالهم على الأرض؟

أما أنتم الذين يمشون وهم يحدقون إلى الشمس بأجفان غير مرتعشة فهل فى الأرض من صورة تستطيع أن تستوقفكم هنيهة؟

وأنتم المسافرون مع الريح أية صفحة من الصفحات الدالة على مجارى الرياح تقدر أن تقودكم فى مسالككم؟

وما هى الشريعة البشرية التى تفيدكم إذا كنتم لم تحطموا نيركم على باب سجن من سجون الانسان؟

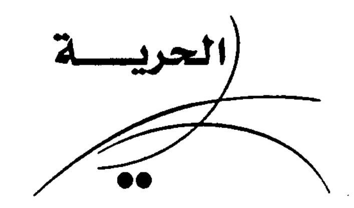
وأية شرائع ترهبون إذا كنتم ترقصون ولكنكم لا تعثرون بقيد من قيوم العالم الحديدية؟

ومن هو الرجل الذى يستطيع أن يأتى بكم إلى المحاكمة إذا مزقتم أثوابكم ولكنكم لم تضعوها فى طريق أحد الناس؟

أجل يا أبناء اورفليس إنكم تستطيعون أن تخمدوا صوت الطبل وتحلوا أوتار القيثارة ولكن مَن مِن أبناء الانسان يستطيع أن يمنع قبرة السماء عن الغناء؟

■ ■ ■

الحريـــة



ثم قال له خطيب: هات حدثنا عن الحرية

فأجاب قائلاً: قد طالما رأيتكم ساجدين على ركبكم أمام أبواب المدينة وإلى جوانب المواقد تعبدون حريتكم

وأنتم بذلك أشبه بالعبيد الذين يتذللون أمام سيدهم العسوف الجبار يمدحونه وينشدون له وهو يعمل السيف فى رقابهم

نعم، وفى غابة الهيكل وظل القلعة كثيراً ما رأيت أشدكم حرية حمل حريته كنير ثقيل لعنقه وغل متين ليديه ورجليه

رأيت كل ذلك فذاب قلبى فى أعماق صدرى ونزفت دماؤه لأنكم لا تستطيعون أن تصيروا أحراراً حتى تتحول رغبتكم فى السعى وراء الحرية إلى سلاح تتسلحون به وتنقطعوا عن التحدث بالحرية كغايتكم ومهجتكم

إنكم تصيرون أحرار بالحقيقة إذا لم تكن أيامكم بلا عمل تعملونه ولياليكم بلا حاجة تفكرون بها أو كآبة تتألمون ذكراها

بل تكونون أحراراً عندما تنطق هموم الحياة وأعمالها أحقاءكم بمنطقة الجاد والعمل وتثقل كاهلكم بالمصاعب والمصائب ولكنكم تنهضون من تحت أثقالها غزاة طليقين

لأنكم كيف تستطيعون أن ترتفعوا إلى ما فوق أيامكم ولياليكم إذا لم تحطموا السلاسل التى أنتم أنفسكم فى فجر إدراككم قيدتم بها ساعة ظهيرتكم الحرة؟

الا إن ما تسمونه حرية إنما هو بالحقيقة أشد هذه السلاسل قوة وإن كانت حلقاته تلمع فى نور الشمس وتخطف أبصاركم

وماذا يجدر بكم طرحه عنكم لكى تصيروا أحراراً سوى كسر صغيرة رثة فى اذنكم البالية؟

فإذا كانت هذه الكسر شريعة جائرة وجب نسخها لأنها شريعة سطرتها يمينكم وحفرتها على جبينكم

بيد أنكم لا تستطيعون أن تمحوها عن جباهكم بإحراق كتب الشريعة التى فى دواوينكم كلا ولا يتم لكم ذلك بغسل جباه قضاتكم ولو سكبتم عليها كل ما فى البحار من مياه

وإن كانت طاغية تودون خلعه عن عرشه فانظروا أولاً إن كان عرشه القائم فى اعماقكم قد تهدم لأنه كيف يستطيع طاغية أن يحكم الاحرار المفتخرين مالم يكن الطغيان أساسا لحريتهم والعار قاعدة لكبريائهم؟

و إن كانت هماً ترغبون فى التخلص منه فإن ذلك الهم إنما أنتم اخترتموه ولم يضعه أحد عليكم وإن كانت خوفاً تريدون طرده عنكم فإن جرثومة هذا الخوف مغروسة فى صميم قلوبكم وليست فى يدى من تخافون

الحق أقول لكم إن جميع الأشياء تتحرك فى كيانكم متعانقة على الدوام عناقاً نصفياً: كل ما تشتهون وما تخافون وما تتعشقون وما تستكرهون وما تسعون وراءه وما تهربون منه

جميع هذه الرغبات تتحرك فيكم كالأنوار والظلال، فإذا اضمحل الظل ولم يبق له من أثر أمسى النور المتلألئ ظلاً لنور آخر سواه

وهكذا الحال فى حريتكم إذا حلت قيودها أمست هى نفسها قيداً لحرية أعظم منها.

■ ■ ■

العقل والعاطفة



ثم طلبت إليه العرافة ثانية قائلة: هات حدثنا عن العقل والهوى

فأجاب قائلاً: كثيرا ما تكون نفوسكم ميداناً تسير فيه عقولكم ومداركم حربا عواناً على اهوائكم وشهواتكم وإننى أود أم أكون صانع سلام فى نفوسكم

فأحول ما فيكم من تنافر وخصام إلى وحدة وسلام ولكن أنى يكون لى ذلك إذا لم تصيروا أنتم صانعى سلام لنفوسكم ومحبين جميع عناصركم على السواء إن العقل والهوى هما سكان ـ دفة السفينة ـ النفس وشراعها وهى سائرة فى بحر العالم فإذا انكسر السكان أو تمزق الشراع فإن سفينة النفس لا تستطيع أن تتابع سيرها بل ترغم على ملاطمة الأمواج يمنة ويسرة حتى تقذف بكم إلى مكان أمين تحتفطون به فى وسط البحر

لأن العقل اذا استقل بالسلطان على الجسد قيد أهواءه ولكن الاهواء إذا لم يرافقها العقل كانت لهيباً يتأجج ليفنى نفسه

فاجعل نفسك تسمو بعقلك إلى مستوى أهوائك وحينئذ ترى منها ما يطربك ويشرح لك صدرك

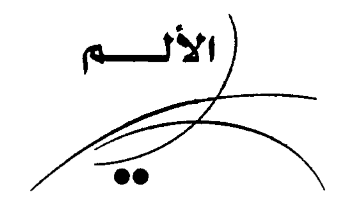
وليكن لك من عقلك دليل وقائد لأهوائك لكى تعيش أهواؤك فى كل يوم بعد موتها وتنهض كالعنقاء متسامية فوق رمادها

وأرغب إليكم أن تعنوا بالعقل والهوى عنايتكم بطيفين عزيزين عليكم فإنكم ولا شك لا تكرمون الواحد أكثر من الثانى لأن الذى يعتنى بالواحد ويهمل الآخر يخسر محبة الاثنين وثقتهما

وإذا جلستم فى ظلال الحور الوارفة بين التلال الجميلة تشاطرون الحقول والمروج البعيدة سلامها وسكينتها وصفائها فقولوا حينئذ فى أعماق قلوبكم متهيبين خاشعين: إن الله يتحرك فى الاهواء

وما دمتم نسمة من روح الله وورقة فى حرجه فأنتم أيضا يجب أن تستريحوا فى العقل وتتحركوا فى الأهواء

■ ■ ■



الألـــم

ثم نهضت من بين الجمع امرأة وقالت له: هات حدثنا عن الألم

فأجاب وقال: إن ما تشعرون به من الألم هو انكسار القشرة التى تغلف إدراككم

وكما أن القشرة الصلدة التى تحجب الثمرة يجب أن تتحطم حتى يبرز قلبها من ظلمة الأرض إلى نور الشمس

هكذا أنتم أيضا يجب أن تحطم الآلام قشوركم قبل أن تعرفوا معنى الحياة لأنكم لو استطعتم أن تعيروا عجائب حياتكم اليومية حقها من التأمل والدهشة لما كنتم ترون آلامكم أقل غرابة من أفراحكم

بل كنتم تقبلون فصول قلوبكم كما قد قبلتم فى غابر حياتكم الفصول التى مرت فى حقولكم

وكنتم ترقبون وتتأملون بهدوء وسكون شتاء أحزانكم وآلامكم

أنتم مخيرون فى الكثير من آلامكم

وهذا الكثير من آلامكم هو الجرعة الشديدة المرارة التى بواسطتها يشفى الطبيب الحكيم الساهر فى أعماقكم أسقام نفوسكم المريضة

لذلك آمنوا بطبيب نفوسكم، وثقوا بما يصفه لكم من الدواء الشافى وتناولوا جرعته بسكينة وطمأنينة

لأن يمينه وإن بدت لكم ثقيلة قاسية فهى مقودة بيمين غير المنظور اللطيفة والكأس التى يقدمها إليكم وإن أحرقت شفاهكم فهى مصنوعة من الطين الذى جلبته يدا الفخارى الأزلى بدموعه المقدسة.

■ ■ ■



معرفة النفس

ثم قال له رجل: هات حدثنا عن معرفة النفس

فأجاب قائلاً: إن قلوبكم تعرف فى السكينة أسرار الأيام والليالى، ولكن آذانكم تتشوق لسماع صوت هذه المعرفة الهابطة على قلوبكم غير أنكم تودون لو تعرفون بالألفاظ والعبارات ما تعرفونه بالأفكار والتأملات

وتتوقون إلى أ، تلمسوا بأصابعكم جسد أحلامكم العارى

وحسن أنكم تتوقون إلى جميع ذلك فإن الينبوع الكامن فى أعماق نفوسكم سينفجر يوما ما ويجرى منحدراً إلى البحر والكنز المطمور فى أعماقكم غير المتناهية سينقب فى ساعة لا تعلمونها وتفتح أبوابه أمام عيونكم

ولكن حذار أن تأخذوا معكم موازينكم لكى تزنوا بها كنزكم غير المعروف

كلا، ولا تسبروا غور معرفتكم بقياس محدود أو حبل مشدود لأن الذات بحر ولا وزن ولا قياس له

أجل ولا تقل فى ذاتك: " قد وجدت الحق " بل قل بالأحرى: " قد وجدت حقاً "

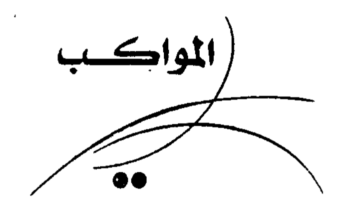
ولا تقل: " قد وجدت طريق النفس " بل قل بالأولى: " قد رأيت النفس تمشى على طريقى "

لأن النفس تمشى على جميع المسالك والطرق

النفس لا تمشى على حبل أو خيط كلاّ ولا هى تنمو كالقصبة، النفس تطوى ذاتها كالبشنين (نبات يقوم على ساق لا ورق له) ذى البتلات التى لا تحصى عديدها.

■ ■ ■

المواكب



الخَيرُ في الناسِ مَصنوعٌ إذا جُبِرُوا ... وَالشرُّ في الناسِ لا يَفنى وَإِن قُبِرُوا
وَأَكثَرُ الناسِ آلاتٌ تُحرِّكُها ... أَصابِعُ الدَّهرِ يَوماً ثُمَّ تَنكَسِرُ
فَلا تَقولَنَّ هَذا عالِمٌ عَلَمٌ ... وَلا تَقولَنَّ ذاكَ السَّيدُ الوَقُرُ
فَأَفضَلُ الناسِ قطعانٌ يَسيرُ بِها ... صَوتُ الرُّعاةِ وَمَن لَم يَمشِ يَندَثِرُ

●●●

لَيسَ في الغاباتِ راعٍ ... لا وَلا فيها القَطيع
فَالشِّتا يَمشي وَلَكِن ... لا يُجاريهِ الرَّبيع
خُلِقَ النَّاسُ عَبيداً ... لِلَّذي يَأبى الخُضوع
فَإذا ما هَبَّ يَوماً ... سائِراً سارَ الجَميع

أَعطِني النّايَ وَغَنِّ ... فَالغِنا يَرعى العُقول
وَأَنينُ النّايِ أَبقى ... مِن مَجيدٍ وَذَليل

●●●

وَما الحَياةُ سِوى نَومٍ تُراوِدُهُ ... أَحلامُ مَن بِمُرادِ النَّفسِ يَأتَمِرُ
وَالسرُّ في النَّفسِ حزنُ النَّفسِ يَستُرُهُ ... فَإِن تَوَلّى فَبِالأَفراحِ يَستَتِرُ
وَالسرُّ في العَيشِ رَغدُ العَيشِ يَحجِبُهُ ... فَإِن أُزيلَ تَوَلّى حَجبَهُ الكَدَرُ
فَإِن تَرَفَّعتَ عَن رَغدٍ وَعَن كَدَرٍ ... جاوَرتَ ظِلَّ الَّذي حارَت بِهِ الفِكَرُ

●●●

لَيسَ في الغـابات حـزنٌ ... لا وَلا فـيـهـا الهُـمـوم

فَـإذا هَبَّ نَسـيـمٌ ... لَم تَجئ مَعـهُ السُّمـوم

لَيسَ حـزنُ النَّفسِ إلاّ ... ظـلَّ وَهـمٍ لا يَـدوم

وَغُـيـومُ النَّفسِ تَبـدو ... مِن ثَنـاياها النُّجـوم

أَعـطِني النّـايَ وَغَـنِّ ... فَـالغِنا يَمـحـو المِحَن

وَأَنينُ النّـاي يَبـقـى ... بَعـدَ أَن يَفنى الزَّمَن

●●●

وَقلَّ في الأَرضِ مَن يَرضى الحَياةَ كَما ... تَأتيهِ عَفواً وَلَم يَحكم بِهِ الضَّجَرُ

لِذاكَ قَد حَوَّلوا نَهرَ الحَياةِ إِلى ... أَكواب وَهم إِذا طافوا بِها خَدِروا

فَالنّاسُ إِن شَرِبوا سُرّوا كَأَنَّهُمُ ... رَهنُ الهَوى وَعَلى التَّخديرِ قَد فُطِروا

فَذا يُعَربِدُ إِن صَلّى وَذاكَ إِذا ... أَثرى وَذلكَ بِالأَحلامِ يَختَمِرُ

فَالأَرضُ خَمّارَةٌ وَالدَّهرُ صاحِبُها ... وَلَيسَ يَرضى بِها غَيرُ الأُلى سَكِروا

فَإِن رَأَيتَ أَخا صَحوٍ فَقُل عَجَباً ... هَل اِستَظَلَّ بِغَيمٍ مُمطِرٍ قَمَرُ

●●●

لَيسَ في الغـابات سكرٌ ... مِن مُـدامٍ أَو خَـيـال

فَـالسَّواقي لَيسَ فـيـهـا ... غَـيـرُ إِكسيرِ الغَمـام

إِنَّمـا التَّخـديرُ ثَديٌ ... وَحَـلـيـبٌ لِـلأَنـام

فَـإِذا شـاخـوا وَمـاتوا ... بَلَغـوا سِنَّ الفِطـام

أَعـطِني النّـايَ وَغَـنِّ ... فَـالغِنا خَـيـرُ الشَّراب

وَأَنينُ النّـاي يَبـقـى ... بَعـدَ أَن تَفنى الهِضـاب

●●●

وَالدّينُ في النّاسِ حَقلٌ لَيسَ يَزرَعُه ... غَـيـرُ الأُلى لَهُم في زَرعِـهِ وَطَرُ

مِن آمِلٍ بِنَعيمِ الخُلدِ مُبتَشِرٍ ... وَمِن جَهولٍ يَخافُ النّارَ تَستَعِرُ

فَالقَومُ لَولا عِقابُ البَعثِ ما عَبَدوا ... رَبّاً وَلَولا الثَّوابُ المُرتَجى كَفَروا

كَأَنَّما الدّينُ ضَربٌ مِن مَتاجِرِهِم ... إِن واظَبوا رَبِحوا أَو أَهمَلوا خَسِروا

●●●

لَيسَ في الغـابـاتِ دِينٌ ... لا وَلا الكُفـرُ القَبـيح

فَـإذا البُلبُل غَنّى ... لَم يَقل هَذا الصَّحـيح

إنّ دِيـنَ الـنّاسِ يَأتي ... مِـثلَ ظِلٍّ وَيَروح

لَم يَقُم في الأَرضِ دِينٌ ... بَعـدَ طَهَ وَالمَسـيح

أَعطِني النّايَ وَغَنِّ ... فَالغِنا خَيرُ الصَّلاة

وَأَنينُ النّاي يَبقى ... بَعدَ أَن تَفنى الحَياة

●●●

وَالعَدل في الأَرض يُبكي الجنّ لَو سَمِعوا ... بِه وَيستَضحكُ الأَمواتَ لَو نَظَروا

فَالسّجنُ وَالمَوتُ لِلجانينَ إن صَغُروا ... وَالمَجدُ وَالفَخر وَالإثراء إن كَبرُوا

فَسارق الزَّهرِ مَذمومٌ وَمُحتَقَرٌ ... وَسارقُ الحَقل يُدعى الباسلُ الخطرُ

وَقاتلُ الجسمِ مَقتولٌ بِفعلَتِهِ ... وَقاتلُ الرُّوحِ لا تَدري بِهِ البَشَرُ

●●●

لَيسَ في الغاباتِ عَدلٌ ... لا وَلا فيها العِقاب

فَإذا الصَّفصافُ أَلقى ... ظِلّهُ فَوقَ التُّراب

لا يَقولُ السّرو هَذي ... بِدعَةٌ ضِدّ الكِتاب

إنّ عَدلَ النّاسِ ثَلجٌ ... إن رَآتهُ الشَّمسُ ذاب

أَعطِني النّايَ وَغَنِّ ... فَالغِنا عَدل القُلوب

وَأَنينُ النّاي يَبقى ... بَعد أَن تَفنى الذُّنوب

●●●

وَالحَقّ لِلعَزم وَالأَرواحُ إن قَويت ... سادت وَإن ضَعفت حلّت بِها الغِيَرُ

فَفي العَرينَةِ ريحٌ لَيسَ يَقرَبُهُ ... بَنو الثَّعالِب غابَ الأُسدُ أَم حَضرُوا

وَفي الزَّرازيرِ جُبنٌ وَهيَ طائِرَةٌ ... وَفي البزاةِ شُموخٌ وَهيَ تحتَضرُ

وَالعَزمُ في الرُّوحِ حَقٌّ لَيسَ يُنكرُهُ ... عَزمُ السَّواعدِ شاءَ النّاسُ أَم نكرُوا

فَإن رَأَيتَ ضَعيفاً سائِداً فَعَلى ... قَومٍ إذا ما رَأَوا أَشباهَهم نَفَروا

●●●

لَيسَ في الغـــاباتِ عَـــزمٌ لا وَلا فـيـهـا الضـعـيـف
فَـإذا مــا الأُسـدُ صـاحَت لَـم تَـقُل هَـذا المخـــيف
إنّ عَـــزمَ الـنّـاسِ ظِلٌ في فَـضــا الفِكرِ يَطوف
وَحُــقــوق الـنّـاس تَبلى مــثل أوراق الخَـــريف

أَعــطِـنـي الـنّـايَ وَغَـنّ فَـــالغِنا عَــزمُ النُّفــوس
وَأَنـيـنُ الـنّـاي يَـبـــقـى بَعــدَ أن تَفنى الشُّـمــوس

●●●

وَالعلمُ في النّاسِ سُـبلٌ بانَ أَوّلها أَمّــا أواخــرها فَــالدّهرُ وَالقَــدَرُ
وأَفــضَلُ العلمِ حلمٌ إن ظفـرتَ بِهِ وَسِـرتَ مـا بَينَ أبناءِ الكَرى سَخِروا
فَــإن رَأَيتَ أخـا الأحـلامِ مُنفَـرِداً عَن قَـومِـهِ وَهوَ مَنبوذٌ وَمُحتَقَـرُ
فَـهـوَ النّبيّ وَبُردُ الغـدِ يـحـجـبُـهُ عَـن أُمّـــةٍ بـرِداءِ الأمسِ تَـأتَـزِرُ
وَهوَ الغَـريبُ عَنِ الدُّنيـا وَسـاكنهـا وَهوَ المُجـاهِرُ لامَ النّاسُ أَو عَــذَرُوا
وَهوَ الشَّــديدُ وإن أبدى مــلاينَةً وَهوَ البَعيدُ تَدانى النّاسُ أم هجرُوا

●●●

لَيسَ في الغـــاباتِ عِلمٌ لا، وَلا فـيـهـا الجَـهـول
فَـإذا الأغـصــانُ مـالَت لَـم تَـقـل هَـذا الجَـلـيـل
إنّ عِـلـمَ الـنّـاسِ طُـراً كَـضـبـابٍ في الحُـقُـول
فَــإذا الشَّــمسُ أَطَلَّت مِـن وَرا الأُفــقِ يَـــزُول

أَعــطِـنـي الـنّـايَ وَغَـنّ فَـــالغِنا خَـيــرُ العُلُوم
وَأَنـيـنُ الـنّـاي يَـبـــقـى بَعــدَ أن تطفـا النُّجُــوم

●●●

وَالحرُّ في الأرضِ يَبني مِن منازعِهِ سِجناً لَهُ وَهوَ لا يَدري فَيؤتَسَرُ
فَـإن تَحـرّرَ من أبناءِ بجِـدَتِهِ يَظَلّ عَبـداً لِمَن يَهـوى وَيَفـتَكِرُ
فَـهـوَ الأريبُ وَلَكن في تَصَلُّبِـهِ حَتّى وَلِلحَقّ بُطلٌ بَل هُوَ البَطَرُ
وَهوَ الطَّليقُ وَلَكن في تَسَرُّعِـهِ حَتّى إلى أوجِ مَجدٍ خالِدٍ صِغَرُ

●●●

لَيسَ في الغـابـاتِ حُـرٌّ ... لا وَلا العَـبـدُ الذَّمـيم
إنّمـا الأَمـجـادُ سُـخفٌ ... وَفَـقـاقـيعٌ تَعُـوم
فَـإذا مـا اللَّوزُ ألقى ... زَهرَهُ فَـوقَ الهَـشـيم
لَم يَقل هَذا حَـقـيـرٌ ... وَأنـا المَـولـى الـكَـريم

أَعـطِنـي الـنّـايَ وَغَـنِّ ... فَـالغِنا مَـجـدٌ أثيل
وَأنِـينُ الـنّـايِ أبـقـى ... مِـن زَنـيـمٍ وَجَـلـيـل

●●●

وَاللُّطفُ في النّاسِ أَصدافٌ وَإن نعمت ... أَضلاعـهـا لَم تَكُن في جَوفِهـا الدُّرَرُ
فَـمن خَـبـيثٍ لَهُ نَفـسـان واحِـدَةٌ ... مِنَ العَـجينِ وَأُخـرى دُونَهـا الحـجَـرُ
وَمِن خَـفـيفٍ وَمِن مُـسـتَـأنثٍ خَنثٍ ... تَـكـادُ تُـدمـي ثَـنـايـا ثَـوبِـهِ الإبَـرُ
وَاللُّطفُ لِلنَّذلِ درعٌ يَسـتَـجـيـرُ بِهِ ... إن راعَـــهُ وَجَـلٌ أَو هـالَـهُ الخَـطَـرُ
فَـإن لَقـيتَ قَـوِيّاً لَيِّناً فَـبِـهِ ... لأَعـيُنٍ فَـقَـدَت أَبصـارَها البـصَـرُ

●●●

لَيسَ في الغـابِ لَطيفٌ ... لينهُ لينُ الجَـبـان
فَـغُـصونُ البـانِ تَعلُو ... فـي جـوارِ السِّـنديان
وَإذا الـطّـاووسُ أُعـطـي ... حلَـةً كَـالأُرجُـوان
فَـهـوَ لا يَدري أَحـسَـنٌ ... فـيـهِ أم فـيـهِ افـتِـتـان

أَعـطِنـي الـنّـايَ وَغَـنِّ ... فَـالغِنا لُطفُ الوَديع
وَأنِـينُ الـنّـايِ أبـقـى ... مِن ضَـعـيـفٍ وَضَليع

●●●

وَالظرفُ في النّاسِ تَمويهٌ وَأَبغضُهُ ... ظَرفُ الأُلى في فُنونِ الاقتِدا مهرُوا
من مُـعـجَـبٍ بِأُمـورٍ وَهوَ يَجـهَلُهـا ... وَلَيسَ فـيـهـا لَهُ نَفعٌ وَلا ضَـرَرُ
وَمِن عَـتـيٍّ يَرى في نَفـسِـهِ ملكاً ... في صَـوتِهـا نَغَمٌ في لَفظِهـا سُـوَرُ
وَمن شَـمـوخٍ غَـدَت مِـرآتُهُ فَلَكاً ... وَظِلّـهُ قَـمَـراً يَزهو وَيَزدَهِـرُ

●●●

لَيسَ في الغــابِ ظَريفُ　　ظَرفُــهُ ضَـعفُ الضَّــئيل
فَــالضَّــبــا وَهيَ عَليلُ　　مَــا بِهــا سَــقمُ العَليل
إنّ بِالأنهــــارِ طَعـــمــاً　　مِــثلَ طَعمِ السَّلسَــبِــيل
وَبِهـــــا هَــولٌ وَعَــــزمٌ　　يجــرفُ الصَّلدَ الثَّــقــيل

أعــطِــنــي الــنّــايَ وَغَــنّ　　فَــالغِنا ظَرفُ الظَّريف
وَأنــينُ الــنّـــاي أبــقـــى　　مِن رَقــيقٍ وَكَـــثــيف

●●●

وَالحُبُّ في الناسِ أشكالٌ وَأكثَرُها　　كَالعُشبِ في الحَقلِ لا زَهرٌ وَلا ثَمَرُ
وَأكــثَـرُ الحُبِّ مِــثلُ الراحِ أيسَـرُهُ　　يُرضي وَأكــثَـرُهُ لِلمُــدمِن الخَطِرُ
وَالحُبُّ إن قــادَتِ الأجسامُ مَوكِبَهُ　　إلى فِـراشٍ مِنَ الأغـراضِ يَنتَحِـرُ
كَـأنَهُ ملكٌ في الأسـرِ مُـعـتَـقَلٌ　　يَأبى الحَـيـاةَ وَأعـوانٌ لَهُ غَـدَروا

●●●

لَيسَ في الغـــابِ خَليعٌ　　يَدّعي نبلَ الغَــــرام
فَــإذا الثّــيرانُ خــارَت　　لم تقل هَذا الهــيَـــام
إنّ حُـــبَّ الــنّـــاسِ داءٌ　　بَــينَ لحَــمٍ وَعِــظَـــام
فَـــإذا وَلّـى شَــبــابٌ　　يَخــتَــفي ذاكَ السّــقَــام

أعــطِــنــي الــنّــايَ وَغَــنّ　　فَــالغِنا حُبٌّ صَــحــيح
وَأنــينُ الــنّـــاي أبــقـــى　　مِن جَــمـــيلٍ وَمَليح

●●●

فَـإن لَقـيتَ مُـحـبّـاً هـائِمـاً كَلِفـاً　　في جـوعِـه شـبعٌ في وِردِهِ الصّـدَرُ
وَالنّاسُ قالوا هُوَ المَجنونُ ماذا عَسى　　يَبغي مِنَ الحُبِّ أو يَرجو فَيصطبِرُ
أفي هَوى تِلكَ يَستَدمي مَحاجِرَهُ　　وَلَيسَ في تِلكَ مـا يَحلو وَيُعـتَـبَـرُ
فَقُل هُم البُهمُ ماتوا قَبلَما وُلِدوا　　أنى دَروا كنه من يحيي وَما اختَبَروا

●●●

لَيسَ في الغـابـاتِ عـدلٌ لا، ولا فـيـهـا الجـهـول

فـإذا الغـزلانُ جُنّت لَم تَـقـل هَذا الجَلـيـل

لا يَقـولُ النّسـرُ واهًا إنّ ذاشيء عَـجـيـبْ

إنّمـا العـاقـلُ يدعى عندنا الأمـرَ الغـريبْ

أعـطِني النّايَ وَغـنِّ فـالغِنا خَـيـرُ الجنونْ

وأنـينُ النّـاي أبـقـى من حَـصـيـفٍ ورَصينْ

●●●

وَقُل نَسينا فَخارَ الفاتِحينَ وَما نَنسى المَجانينَ حَتّى يغمرَ الغمرُ

قَد كانَ في قَلبِ ذي القرنينِ مَجزَرَةٌ وَفي حُشاشَةِ قَيسٍ هَيكَلٌ وقـرُ

فَفي انتِصاراتِ هَذا غلبَةٌ خَفِيَت وَفي انكِسارات هَذا الفَوزُ وَالظفرُ

وَالحُبَّ في الرُّوحِ لا في الجسم نَعرِفُهُ كَالخَمرِ لِلوَحي لا لِلسكرِ يَنعَصِرُ

●●●

لَيسَ في الغـابـاتِ ذكـرٌ غـيـر ذكـرُ العـاشـقـينْ

فـالأُلى سـادو ومـادو وطغـوا بالعـالمينْ

أصـبـحـوا مـثـل حروفٍ في أسـامي المجـرمـينْ

فـالهوَى الفـضّاحُ يُدعى عنـدَنا الفـتـح المبينْ

أعـطِني النّـايَ وَغـنِّ وانسَ ظلمَ الأقـويـاء

إنّمـا الزّنبَقُ كـأسٌ للنّدَى لا للـدّمـاء

●●●

وَما السّعادَةُ في الدُّنيا سِوى شَبَحٍ يُرجى فَإن صارَ جسماً مَلّهُ البَشَرُ

كَالنّهرِ يَركُضُ نَحوَ السّهل مُكتَدِحاً حَتّى إذا جاءَهُ يبطي وَيَعتَكِرُ

لَم يَسعَدِ النّاسُ إلاّ في تَشوُّقِهم إلى المَنيعِ فَإن صارُوا بِهِ فَتَرُوا

فَإن لَقيتَ سَعيداً وَهوَ مُنصَرِفٌ عَنِ المَنيعِ فَقُل في خُلقِه العِبَرُ

●●●

لَيسَ في الغـابِ رَجـاءٌ ... لا وَلا فـيـهِ المَلَل
كَيفَ يَرجو الغـابُ جُزءاً ... وَعَلى الكُلِّ حَصَل
وَبِما السَّعيُ بِغـابٍ ... أَمَـلاً وَهوَ الأَمَل
إِنَّما العَيشُ رجـاءٌ ... إِحدى هاتيكَ العِلَل

أَعطِني النّايَ وَغَنِّ ... فَالغِنا نارٌ وَنُور
وَأَنينُ النّايِ شَوقٌ ... لا يُدانيهِ الفُتُور

●●●

وَغـايَةُ الرّوحِ طَيُّ الرّوحِ قَد خَفِيت ... فَـلا المَظاهِرُ تُبديها وَلا الصُّوَرُ
فَذا يَقولُ هِيَ الأَرواحُ إِن بَلَغَت ... حَدَّ الكَمالِ تَلاشَت وَاِنقَضى الخَبَرُ
كَأَنَّما هيَ أَثمارٌ إِذا نَضِجَت ... وَمَرَّتِ الرّيحُ يَوماً عافَها الشَّجَرُ
وَإِذ يَقولُ هِيَ الأَجسامُ إِن هَجَعَت ... لَم يَبقَ في الرّوحِ تَهويمٌ وَلا سَمَرُ
كَأَنَّما هِيَ ظِلٌّ في الغَديرِ إِذا ... تَعَكَّرَ الماءُ وَلَّت وَاِمَّحى الأَثَرُ
ظَلَّ الجَميعُ فَلا الذَرّاتُ في جَسَدٍ ... تُثوى وَلا هِيَ في الأَرواحِ تَحتَضَرُ
فَما طَوَت شَمالٌ أَذيالَ عاقِلَةٍ ... إِلّا وَمَرَّ بِها الشَّرقي فَتَنتَشِرُ

●●●

لَم أَجِد في الغابِ فَرقاً ... بَينَ نَفسٍ وَجَسَد
فَالهَوا ماءٌ تَهادى ... وَالنَّدى ماءٌ رَكَد
وَالشَّذا زَهرٌ تَمادى ... وَالثَّرى زَهرٌ جَمَد
وَظِلالُ الحورِ حورٌ ... ظَنَّ لَيلاً فَرَقَد

أَعطِني النّايَ وَغَنِّ ... فَالغِنا جِسمٌ وَرُوح
وَأَنينُ النّايِ أَبقى ... مِن غَبوقٍ وَصَبوح

●●●

وَالجِسمُ لِلرّوحِ رَحمٌ تَستَكِنُّ بِهِ ... حَتّى البُلوغِ فَتَستَعلي وَيَنغَمِرُ
فَهيَ الجَنينُ وَما يَومُ الحِمامِ سِوى ... عَهدِ المَخاضِ فَلا سَقطٌ وَلا عَسرُ
لَكِنَّ في النّاسِ أَشباحاً يُلازِمُها ... عُقمُ القِسِيِّ الَّتي ما شَدَّها وَتَرُ
فَهيَ الدَخيلَةُ وَالأَرواحُ ما وُلِدَت ... مِنَ القُفَيلِ وَلَم يَحبَل بِها المَدَرُ
وَكَم عَلى الأَرضِ مِن نَبتٍ بِلا أَرَجٍ ... وَكَم عَلا الأُفقَ غَيمٌ ما بِهِ مَطَرُ

●●●

لَيسَ في الغـابِ عَـقـيمٌ لا وَلا فـيـهـا الدَّخـيل
إنّ فـي الـتَّـمـر نَـواةً حَـفظت سِـرَّ النَّخـيل
وَبِـقُـرصِ الشَّـهـدِ رَمـزٌ عَن قَـفـيـرٍ وَحُـقـول
إنَّـمـا الـعـاقِـرُ لَفظٌ صيغَ مِن مَعنى الخُـمـول

أَعـطِـنـي الـنّـايَ وَغَـنِّ فَـالغِنا جِـسمٌ يَسـيـل
وَأَنـيـنُ الـنّـايِ أَبـقـى مِن مَـسـوخٍ وَنغـول

●●●

وَالمَوتُ في الأَرضِ لابنِ الأَرضِ خاتِمَةٌ وَلِلأَثيـريِّ فَـهـوَ البَـدءُ وَالظَفَـرُ
فَـمَن يُعـانِقُ في أَحلامِـهِ سَـحَـراً يَبـقـى وَمَن نامَ كُلَّ اللَّيل يَندَثِرُ
وَمَن يلازمُ تُرباً حـالَ يَقظَتِـهِ يُعانِقُ التُّربَ حَتّى تخمد الزُّهرُ
فَـالمَوتُ كَـالبَحـرِ مَن خَـفَّت عَناصِرُهُ يَجـتـازُهُ وَأَخـو الأَثقـالِ يَنحَـدِرُ

●●●

لَيسَ في الغـابـاتِ مَـوتٌ لا وَلا فـيـهـا القُـبـور
فَـإِذا نيـسـانُ وَلّى لَم يمُت مَـعـهُ السُّرور
إنّ هَـولَ المَـوتِ وَهـمٌ يَنثَني طَيَّ الصُّدور
فَـالَّذي عـاشَ رَبيـعـاً كَـالَّذي عـاشَ الدُّهور

أَعـطِـنـي الـنّـايَ وَغَـنِّ فَـالغِنا سِـرُّ الخُلود
وَأَنـيـنُ الـنّـايِ يَـبـقـى بَعـدَ أَن يَفنى الوُجُـود

●●●

أَعـطِـنـي الـنّـايَ وَغَـنِّ وَانسَ مـا قُلتُ وَقُلتـا
إنَّـمـا الـنُّـطقُ هَـبـاءٌ فَـأَفِدني مـا فَـعَلتـا

●●●

هَل تَخـذتَ الغـابَ مِـثلي مَنزِلاً دُونَ القُـصُـور
فَـتَـتَـبَّـعتَ السَّـواقي وَتَسَلَّقتَ الصُّـخُـور

●●●

هَل تَحَـمَّـمتَ بِعِطرٍ وَتَنشَّـفتَ بِنُور
وَشَـرِبتَ الفَـجـرَ خَـمـراً في كُـؤوسٍ مِن أَثيـر

●●●

هَل جَلَستَ العَصرَ مِثلي | بَينَ جَفنَاتِ العِنَب
وَالعَنَاقيدُ تَدَلَّت | كَثُرَيَّاتِ الذَّهَب

●●●

فَهيَ لِلصَّادي عُيُونٌ | وَلِمَن جاعَ الطَّعام
وَهيَ شَهدٌ وَهيَ عِطرٌ | وَلِمَن شَاءَ المُدام
هَل فَرَشتَ العُشبَ لَيلاً | وَتَلَحَّفتَ الفَضا
زاهِداً في ما سَيَأتي | ناسِياً ما قَد مَضى

●●●

وَسُكوتُ اللَّيلِ بَحرٌ | مَوجُهُ في مَسمَعِك
وَبِصَدرِ اللَّيلِ قَلبٌ | خافِقٌ في مَضجَعِك

●●●

أَعطِني النَّايَ وَغَنِّ | وَانسَ داءً وَدَواء
إِنَّما النَّاسُ سُطُورٌ | كُتِبَت لَكِن بِماء

●●●

لَيتَ شِعري أَيَّ نَفعٍ | في اجتِماعٍ وَزِحام
وَجِدالٍ وَضَجيجٍ | وَاحتِجاجٍ وَخِصام

●●●

كُلُّها أَنفاقُ خُلدٍ | وَخُيوطُ العَنكَبوت
فَالَّذي يَحيا بِعَجزٍ | فَهوَ في بُطءٍ يَموت

●●●

العَيشُ في الغابِ وَالأَيامُ لَو نُظِمَت | في قَبضَتي لَغَدَت في الغابِ تَنتَثِرُ
لَكِن هُوَ الدَهرُ في نَفسي لَهُ أَرَبٌ | فَكُلَّما رُمتُ غاباً قامَ يَعتَذِرُ
وَلِلتَّقاديرِ سُبلٌ لا تُغَيِّرُها | وَالنَّاس في عَجزِهِم عَن قَصدِهِم قَصُرُوا

■ ■ ■

الضاحك اللاعب بالأمس..!

بات صريعا فاقد الأنس — الضاحك اللاعب بالأمس

ما شاق من رمز ومن نبس — أوحشنا تمثيله جامعا

من فمه فى الجهر والهمس — ذلك الإلقاء مستطرفا

بين صفاء العقل والمس — وذلك التعقيب فى فنه

عوفى من صادعة الرأس — عفا من الدنيا على أنه

كان هو الأتعس فى العرس — كم راقص فى عرسها ربما

لا مصبح بعد ولا ممس — أمسى وما قولى كذا فى أمرئ

ما كان من سعد ومن نحس — فى موطن حر نفى عدله

مثواه للجن وللأنس — ماذا تراه ناقلا فى دجى

بين ندامى همد خرس — أم أخرسته سنة ذاقها

فى إثره يعثر باليأس — لهفى عليه وعلى ذاهب

حى سوى فضل من الحس — حى وما فى الفضل من جسمه

آخر ما يلقى من الدرس — يلقى عليكم من بقايا القوى

رجع بعيد من صدى نفس — فى الخافت الراجف من صوته

على شفا هار من البؤس — إحسانكم يمسك حوباءه

فى الروم والأعراب والفرس — نبت به الخيبة عن ملكه

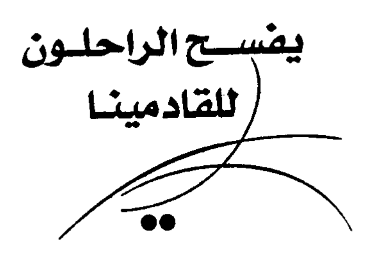
كالحاكم الهاوى عن الكرسى — وإنما العاثر عن وهمه

ذرية فى منتهى التعس — يا سادة واسوا بآلائهم

فليس فى البأساء من بأس — فى أى قطر عاش أمثالكم

■ ■ ■

يفسح الراحلون للقادمينا



يفسح الراحلون للقادمينا ... احسن الله حظم يا بنينا

احفظوا غيبنتا واغضوا عن التقصير ... منا فى شوطنا اسبقونا

نحن لم نخترع جديد المعانى ... وغلونا فى لفظها تحسينا

فتح الفن كل باب حديث ... وعلى عهده العتيق بقينا

فخذو انتم من العلم ما اعطى ... قوولا الطريف قولا مبينا

لغة الضاد لا تضن عليكم ... إن جددتم بكل ما تبتغونا

كل يم يصيب فى منجم منها ... الأجيب الريب كنزا دفينا

أخذ الغرب من مغوصنا الدر ... وفى صوغه أجاد الفنونا

وهو يأبى الجمود يوما فما ... للشرق لا يسأم الجمود قرونا

فكروا فكروا مليا مليا ... واستقلوا بوحيكم راشدينا

واستمدوا هدى سجيتكم ... واتخذوها لكم نصيحا أمينا

فإذا ما انشأتم فاخلقوا خلقا ... تكونوا حقيقة منشيئنا

ذاك ذاك التجديد لا فعل من ... يمكن فى مقعل القديم

سجينالا ولا خلط من إلى الفضل ... يعزو خلطه بالفصاحة التهجينا

أيها الشاعر الفتى عش وزدنا ... مبدعات على توالى السنينا

وليكن فوزك العتيد لما يتلو ... من الفوز طالع ميمونا

أحمس الأول ابتداء جميل ... أطرب السامعين والناظرينا

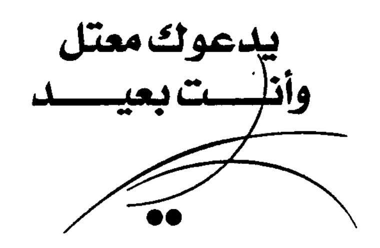
سقت فيه طرد الرعاة مساقا ... زاد جيد البيان عقدا ثمينا

وبعثت الأشخاص بعثا عجيبا ... وسبكت الأغراض سبكا رصينا

وأمطت الحجاب عن اى سر ... كان فى مهجة الفخار مصونا

بين نثر لا عيب يه وشعر مثل ما تشتهى المنى أن يكونا
كلم من تخطف البرق يسبقن إلى موقع الجمال الظنونا
أساليب فى الرواية يحدثن سرورا وقد أسلن الشؤونا
وحوار يبلغ العظة المثلى من الأولين للآخرينا
وختام تضوع المسك منه بعبير أضاعه الدهر حينا
قد شممنا لحب طيبة فيه نفح طيب أذكى الحمية فينا
إن تكن هذه روايتك الأولى فما الظن باللواتى لينا

■ ■ ■



يدعوك معتل وأنـــت بعيـــد

يدعـوك مـعـتـل وأنـــت بـعـيـد ... بـالأمـس كـنـت تـعـوده وتـعـيـد

عـز الـعـزاء على الـسـقـيم يلج فـى ... نـسـماتـه الـتـصـويب والـتـصـعيد

أأبـا المـروءة إن خـطـبـك خـطـبـــهـا ... أو لــم تفـارقــهــا وأنـــت شـهـيـد

تشـفـى الجـسوم وبعد نأيك أنفس ... لا الـنـوح يشـفـيهـا ولا الـتـنـهـيـد

رزآتـك طائـفـة يـحـار مــحـبـهـا ... أنـــى يـعــزيـهــا وأنـــت فـقـيـد

كـانـت بعـهـدك أسـرة قـــومـتـهـا ... فـنـمـت ومـــا بـفـــروعـهــا تـأويـد

ويكى بك الأردن أحـصـف عـامـل ... لـرقـيـه مـــا يـسـتـزاد يـزيـد

راع تـخـيـر خـطـة فـغـدا بـهـا ... ومـثـالـه بـيـن الـرعـاة فـريـد

عــلامـــة بـحـاثـة مـتـضـلـع ... من دابـه الـتـصـويب والـتـسـديد

فـى كــتـبـه لـلـعـرب تـاريـخ بـه ... يجلى الـعـتـيد ولا يغـيب عـهـيد

ترثـى صـروح الخـيـر بانيـهـا الذى ... لـم يـدخـر فـيـهـا لـه مـجـهـود

والــى رعـــايـتـهـا وفـــى أيـامـه ... لـم يـبـطـل الـتأسيس والـتـشـيـيد

فـــالـيوم إن لـم يبـكـه عـقـب لـه ... فـمـن الأولـى ربـى بـكـاه عـديـد

كم نشأ النشء الـضـعـيف ورصـانه ... فـأعـد جـيـل لـلـبـلاد جـديـد

ترثـى الحـصافة والـثـقـافة والتقى ... مـــن عـــاش لا ذم ولا تـفـنـيـد

هـيـهـات أن تنـسـى مناقبـه التى ... فـى كـل نـاد فـاح مـنـهـا عـود

أيـن الـصداقـة لا مـداجاة بـهـا ... والجـود أنفـع مـا يـكـون الجـود

آداب حـبـــر مـلـكـتـه بـلـيـنـهـا ... مـا لـيـس يمـلـك والمـراس شـديـد

أخــلاق حـر لا يـخـالـف عـهـده ... وعن السبـيـل الـقـصد ليس يحيد

تـلـك الـفـضـائـل بلـغـتـه مـكـانـة ... عـــزت وكـــان بـهـا لـه تمـهـيـد

أدنـاه عـبـد الـلـه مـنـه فـبـات فـى ... نـعـمـى و لـالـعـه لـديـه سـعـيـد

هل مثل عبد الله فى أهل النهى ... ملك بصير بالأمور رشيد

بحسامه وبرأيه بلغ الذرى ... فخرا فما يسمو إليه نديد

وبباسه فى الحرب اثبت أنه ... بطل الجهاد الباسل الصنديد

كائن له ولآله دين على ... أوطانهم والعالمون شهود

لو لم ينل اسمى الفخار بنفسه ... لكفاه آباء سموا وجدود

يا أيها المحبون ذكرى بولس ... هذا التحدث بالحميد حميد

هل ضم حفل من أكابر أمة ... ما ضم منهم حلفه المشهود

وبه الائمة والولاة وكل من ... فى قومه هو سيد وعميد

وافوا ليقضوه الوداع فما ترى ... إلا وفود تلوهن وفود

فى المسلمين وفى النصارى ماله ... إلا ولى صادق وودود

يا من نودعه انجزع للنوى ... والأمر أمر الله حين يريد

من خص مثلك بالمروءة عمره ... فلذكره الإكرام والتخليد

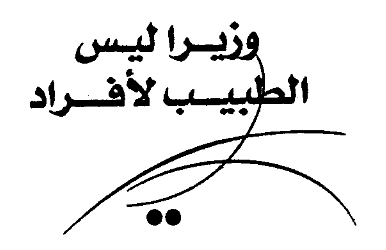
جزعت لعبد الله ينعى ببكرة ... ولا عوض عنه وليس له ند

تفرد فى مصر اديبا وعالما ... فوا حريا أن يهوى العلم الفرد

فجعنا به لا يحمد العيش بعده ... فرحماك يا ربى له ولك الحمد

■■■

وزيرا ليس الطبيب لأفراد



يا وزيرا ليس الطبيب لأفراد ... ولكنه طبيب البلاد

يكثر الصالح المراد ولكن ... صحة الشعب فوق كل مراد

ليس بدعا وقد دعوت إذا ... لبت نفوس الأعزة الأمجاد

كيف مصر وقد تعافت وأضحت ... ببنيها مصدوقة التعداد

لك شكر حقوقه لا توفى ... وفخار يبقى على الآباد

■ ■ ■

يا ناعيا فاجـأ الربوعـأ



يـا ناعـيـا فـاجـأ الـربـوعـا … أجـزعـت مـن لـم يـكـن جـزوعـا

كـفـى فـؤادى مـا فـى فـؤادى … لا تـصـف الحـادث الـفـظـيـعـا

كـان مـن الـصـبـر لـى دروع … لـم يـدع الـدهـر لـى دروعـا

يـذهـب مـيـت وراء مـيـت … وأنـثـنـى أذرف الـدمـوعـا

هـذا حـبـيـب قـضـى ويـتـلـو … آخـر فـى إثـره سـريـعـا

وخـيـر أهـلـى وخـيـر صـحـبـى … مـضـوا تـبـاعـا ولا رجـوعـا

ومـا بـقـائـى إلا اغـتـراب … إذا ثـوى رفـقـتـى جـمـيـعـا

عـاد فـأذكـى الأسـى عـلـيـهـم … آخـر نـاء هـوى صـريـعـا

أودى وفـى صـدره صـدوع … ذاك الـذى يـرؤب الـصـدوعـا

وأحـر قـلـبـا عـلـيـه يـدمـى … مـقـلـبـا جـنـبـه الـواجـيـعـا

بـعـد الـنـجـيـع الـمـراق عـنـا … هـل سـال جـرح أنـقـى نـجـيـعـا

بـيـن ضـلـوعـى نـعـش حـبـيـب … أذكـى الأسـى حـولـه الـضـلـوعـا

يـا عـلـم الـبـيـعـة المـعـلـى … وحـصـنـهـا الـراسـخ المـنـيـعـا

وخـيـر راع فـى خـيـر حـقـل … بـورك فـيـه رعـى الـقـطـيـعـا

حـقـل سـقـاه الـفـدى دمـاء … بـهـا سـيـبـقـى خـصـبـا مـريـعـا

كـنـت شـبـيـه المـسـيـح تـجـلـو … لـلـنـاس تـمـثـالـه الـبـديـعـا

مـصـورا بـالـحـلـى حـلاه … وحـامـلا قـلـبـه الـوديـعـا

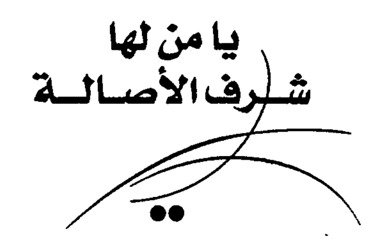
بـآيـة لـلـجـلـل تـلـقـى … فـى الأنـفـس الحـب والخـشـوعـا

حـاكـيـت نـاسـوتـه كـمـالا … وكـنـت تـلـمـيـذه المـطـيـعـا

تـبـذل فـى الـبـاقـيـات بـذلا … الـطـف مـغـزى مـن أن يـذيـعـا

تلوذ بالحق لا تراعى ... فيه وصولا ولا قطوعا
تناصر الحر فى المساعى ... وتكبح الفتنة الشموعا
تطهر البيت لا شراء ... تحل فيه ولا مبيعا
ولم تكن بالفدى ضنينا ... ولم تكن للندى منوعا
وما توليت من صنيع ... لخير اكملته صنيعا
أوتيت ذهنا خصبا وعلما ... إلى مداه الأقصى وسيعا
تكتب فالوحى مستهل ... ينشىء فى طرسك الربيعا
والفصح المنتقاة تملى ... بيانك الناصع الرفيعا
تخطب فالروح تملى ... من أوجه يملك الجموعا
إشارة كالشعاع هديا ... ومنطق يطرب السميعا
شأوت قسا وما عرفنا ... له بميدانه قريعا
لو عاد ممن خلا اناس ... لعاد متبوعهم تبيعا
خلال مجد على زاكى ... أصولها أنبتت فروعا
لم يلف إلاك عبقرى ... رد به شملها جميعا
ضم المزايا إلى المزايا ... وكان إلا بها قنوعا
امعن فى كل ما توخى ... إلى نهايات ما استطيعا
بعزمة لا نهى ونفس ... إلى العلى لا تنى نزوعا
ورقة فى أبى ضيم ... لا يقرب الذل والخنوعا
يقتحم الهول لا يبالى ... والهول قد شيب الرضيعا
العبقرى الكبير امسى ... فى برزخ ضيق ضجيعا
أجاب مولاه إذ دعاه ... لا مستطارا ولا مروعا
تبكى فلسطين بانتحاب ... مقدامها الصادق الشجيعا
والضاد تأسى لفقد ذخر ... برغمها انه اضيعا
يا من شجاهم منهم هجوع ... نفر من شعبه الهجوعا
الم تروا كوكبا جدى ... يبهر لألاؤه سطوعا

■ ■ ■



يا من لها شرف الأصالة

من لى بشكر فى نفاسته ... على قدر النوال

فأصوغ وصف حلاك من ... وحى الحقيقة لا الخيال

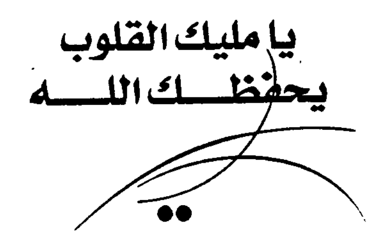
وإليك أهديه وقد ... أبلغته حد الكمال

لكننى إن أستطع تصوير ... ما بك من جمال

هل يجتلى بالنقل ما فى الأصل ... من شرف الخصال

■■■

يا مليك القلوب يحفظك الله



يا مليك القلوب يحفظك الله ... ويرعاك يا مليك القلوب

ليس فى الشرق غير هذا دعاء ... للمليك المعظم المحبوب

عيد فريال فوق ما يبلغ الإبداع ... فى وصف شاعر أو خطيب

أى بدع إذا تلقته مصر ... وينوها بالبشر والترحيب

هو عيد الإحسان فى كل معنى ... وسرور المحروم والمحروب

فتح هذا الجناح للشعب فيه ... اى فتح واى نصر قريب

يوسف الخير شادة باسم سمعان ... أبيه والله خير مثيب

خفقت راية الهلال عليه ... راية الصدق فى كفاح الخطوب

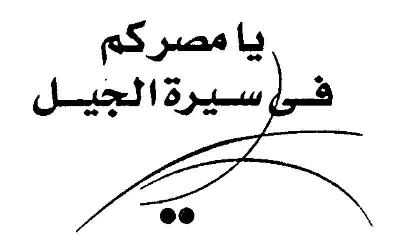
ليس فى ظلها اختلاف وكل ... آخذ من حنانها بنصيب

وحدت فى احمرارها صبغة البر ... فلون الهلال لون الصليب

لتعش مصر وليعش شعب مصر ... إنه خير قدوة للشعوب

■ ■ ■

يا مصركم في سيرة الجيل



يا مصركم فى سيرة الجيل الذى ... يمضى هدى للواحق الأجيال

سيرى وبشى للخطوب فإنما ... تلك الخطوب نجائب الآمال

ماذا أعدد من مناقب أحمد ... فى الخطب ما فيه من الإذهال

تلك المناقب دون كل حقيقة ... منها إذا وصفت أعز خيال

لا تستطيع يراعة تفصيلها ... ولعلها تغيى على الإجمال

وأجلها تكل المفاداة التى ... هى آية الإحسان والإجمال

ما موت أحمد حتف أنف إنه ... للقتل فى عقبى اشد نزال

لبى نداء ضميره لما دعا ... داعى الحفاظ فجال أى مجال

تعتاقه الحمى ولا يلوى بها ... هل عاقت الضرغام دون صيال

يا خيرم نحامى فكان لكل من ... حامى بقدوته أجل مثال

جزت الفدى لما نهاك الطب أو ... تردى فلم تمنحه أدنى بال

وأجبت إنى لم أضن على الحمى ... بدم الشباب فما الدماء بغالى

لا يكرث الرئبال أن يمنى وقد ... منع العرين بصرعة الرئبال

كلا ولا النجم الذى فيه الهدى ... للناس أن يرفض بالإشعال

ما راع قلبك فى الغرانيق العلى ... إلا كرام عرضوا لنكال

وقفوا بمقمرة الحتوف لشبهة ... والعمر رهن إجابة وسؤال

فعمدت تنفى باليقين من النهى ... ما دس من ريب لسان القالى

ورأى العدول الحق أبلج ما به ... فند وتمت حيرة العذال

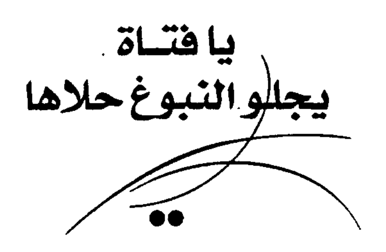
ناديت يا للعدل للبلد الذى ... أمسى أعز بنيه فى الأغلال

فأجاب دعوتك القضاء منزها ... فى الحكم عن خطل وعن إخلال

لم يخش إلا به فى حكمه ... ونبا بقيل للوشاة وقال
رد الأولى سجنوا بلا ذنب إلى ... من ودعوا من أسرة وعيال
قد نيل من أقدامهم بعقالهم ... أما النفوس فلم تنل بعقال
بجميل ما أبليت فى إنقاذهم ... قرت نواظر قومهم والآل
أحييتهم وقضيت ذاك هو الفدى ... وهو النوال وراء كل نوال
فضل ختمت به حياتك مثبتا ... فى إثرها شفقا بديع جمال
إن لم توف الناس شكرك فليكن ... لك خيره من ربك المتعالى

■■■

يا فتاة
يجلو النبوغ حلاها



يا فتاة يجلو النبوغ حلاها ... ولها من كرامة ما تشاء

أتريدين في كتابك شعرا ... هو سؤر بمهجتي أو ذماء

ذاك فضل يتيح لأسمى فخرا ... أحرزته من قبله أسماء

فاقبلي هذه القوافي أزجيها ... وفيها تحية وثناء

ليس بدعا وأنت ما أنت أن ... أطنب فيك الكتاب والشعراء

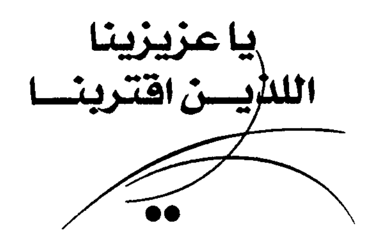
أدب رائع ونظم ونثر ... كل لفظ يشع منه ضياء

ولسان طلق ولحظ يرى الغيب ... وجفن يغض منه الحياء

كيف لا يستبيهم ذلك الوجه ... البديع الحلي وذاك الذكاء

ما معانيهم الحسان لدى ... أدنى معانيك أيها الحسناء

■ ■ ■



يا عزيزينا اللذين اقترنا

يا عزيزينا اللذين اقترنا ... ليكن عيشكما عيش صفاء

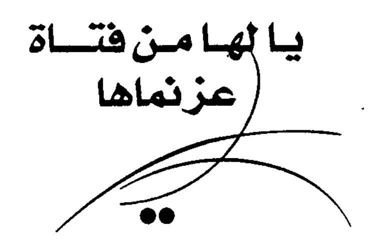
خير ما يدعو المحبون به ... لكما نسل كريم ورفاء

أن أدلين عروس كملت ... بمعان خير ما فيها الوفاء

ودمترى ذو خصال يزدهى ... بحلاها الصادقون الشرفاء

■■■

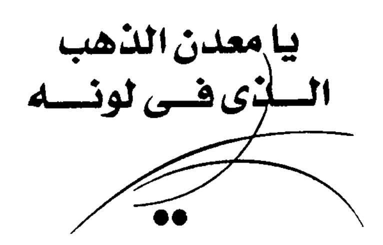
يا لها من فتاة
عزنماها



يا لها من فتاة عز نماها	عنصر يرتقى إلى الجوزاء
فى بناة العلى أبو شنب	شادوا صروحا للعزة القعساء
حسب زاده سنى وسناء	نسب جامع السنى والسناء
زف عذراءهم إلى كفؤ ليس	له فى السراة من أكفاء

■ ■ ■

يا معدن الذهب الذى فى لونه



يا معدن الذهب الذى فى لونه   للشمس مسحة بهجة ورواء

يا مدنى الأرب البعيد مناله   ولقد أقول منيل كل رجاء

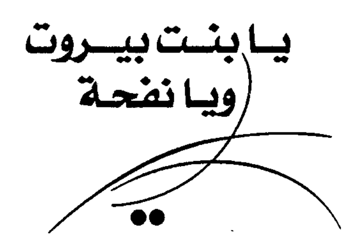
يا مرخصا من كل نفس ما غلا   حاشا نفوس العلية النبلاء

إن ألهتك الناس كن عبدا هنا   واخضع لهذى الشيمة الشماء

وزن التى دفعت ضلالك بالهدى   وسواد مكرك باليد البيضاء

■ ■ ■

يا بنت بيروت ويا نفحة



يا بنت بيروت ويا نفحة … من روح لبنان القديم الوقور

إليك من أنبائه آية … عصرية أزرت بأى العصور

مرت بذاك الشيخ فى ليلة … ذكرى جمال وعبير ونور

ذكرى صبا طابت لها نفسه … وافتر عنها رأسه من حبور

أسر نجواها إلى أرزه … فلم يطقها فى حجاب الضمير

وبثها فى زفرة فانبرت … بخفة البشرى ولطف السرور

دارجة فى السفح مرتادة … كل مكان فيه نبت نضير

فضحك النبت ابتهاجا بها … عن زهر رطب ذكى قرير

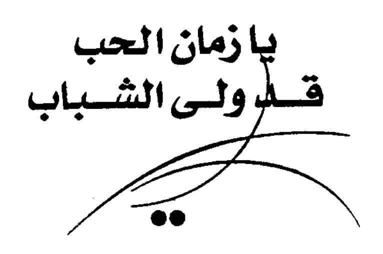
عن زهر حمل ريح الصبا … تبسما مستترا فى عبير

سرى لبيروت ولاقى شذا … من بحرها رأد الصباح المنير

فعقدا فى ثغرها درة … أجمل شىء بين در الثغور

أسماء هل أبصرتها مرة … تزين مرآتك وقت البكور

■ ■ ■



يا زمان الحب قد ولى الشباب

يا زمانَ الحبُّ قد ولّى الشّباب … وتوارى العمرُ كالظلّ الضّئيل

وامّحى الماضى كسطرٍ من كتاب … خطّهُ الوهمُ على الطرس البليل

وغدت أيامنا قيد العذاب … فى وجودٍ بالمسرّات بخيل

فالذى نعشقهُ يأساً قضى … والّذى نطلبُه ملّ وراح

والذى حزناهُ بالأمس مضى … مثلَ حلمٍ بينَ ليلٍ وصباح

يا زمانَ الحبُّ هل يغنى الأمل … بخلودِ النفسِ عن ذكرِ العهود

هل ترى يمحو الكرى رسم القبل … عن شفاهٍ ملّها وردُ الخدود

أو يدانينا وينسينا الملل … سكرةَ الوصلِ وأشواق الصدود

هل يصمّ الموتُ آذاناً وعت … أنّة الظلم وأنغام السكون

هل يغشّى القبرُ أجفاناً رأت … خافيات القبرِ والسرّ المصون

كم شربنا من كؤوس سطعت … فى يدِ الساقى كنورِ القبس

ورشفنا من شفاهٍ جمعت … نغمةَ اللطفِ بثغرٍ ألعس

وتلونا الشعرَ حتى سمعت … زهرُ الأفلاكِ صوتَ الأنفس

تلكَ أيامٌ تولّت كالزهور … بهبوطِ الثلج من صدرِ الشتاء

فالذى جادت به أيدى الدهور … سلبته خلسةً كفُّ الشقاء

لو عرفنا ما تركنا ليلةً … تنقضى بينَ نعاسٍ ورقاد

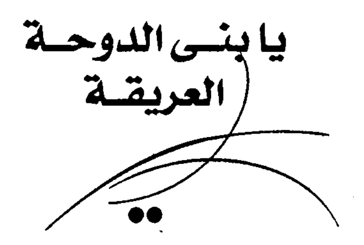
لو عرفنا ما تركنا لحظةً … تنثنى بينَ خلوٍّ وسهاد

لو عرفنا ما تركنا برهةً … من زمان الحبُّ تمضى بالبعاد

قد عرفنا الآنَ لكن بعدما … هتفَ الوجدان قوموا واذهبوا

قد سمعنا وذكرنا عندما … صرخَ القبرُ ونادى اقتربوا

■ ■ ■



يا بنى الدوحة العريقة

يا بنى الدوحة العريقة فى ... المجد أتعدون خطة الأمجاد

لا يكن بينكم سوى ما عرفتـ ... ـم قدما من محبة ووداد

كل بيت دب الشقاق إليه ... نال منه مالا تنال الأعادى

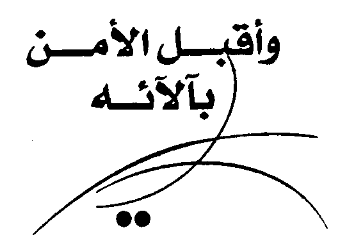
إلزموا طاعة الأكابر منكم ... ذاك وحى الهدى ونهج الرشاد

ما ظللتم يدا وقلبا بلغتم ... فى نواحى الحياة كل مراد

قد بلوتم جنى الصلاح وأنتم ... فى ائتلاف فاخشوا دعاة الفساد

■ ■ ■

وأقبل الأمن بآلائه



وأقبل الأمن بآلائه ... فكل نفس بالرضا تشعر

كأنما الأمن ربيع له ... فى كل ما مد به مظهر

فحيث يخفى عبق فائح ... وحيث يبدو غصن مزهر

والدهر فى أثنائه باسم ... والعيش فى أفيائه أخضر

وللمنى من راحه مورد ... وللغنى عن ساحه مصدر

ما ابهج السلم وتبشيره ... وغبطة الخلق بما بشروا

قد نافس الأيام لكنه ... نافسه اليوم الذى نحضر

فكاد لا يدرى محبوكم ... أى السرورين هو الأوفر

سلوا الأولى تفتن أنواركم ... اما نسوا أن الدجى مقمر

سلوا الأولى تعجب أزهاركم ... ورد الربى أم وردكم أفخر

وأشمل النعمى بأفراحها ... هى التى يحظى بها الأجدر

الحمد الله على أن خلت ... حرب بها قصمت الأظهر

كادت تريب الخلق لو لم يروا ... فى الغب أن الحق مستظهر

كارثة أعظمها دهرها ... ومثلها تعظمه الأدهر

ما اكريت تبدو بآفاقها ... نجوم نحس شرها مسعر

حتى أتاح الله تلقاءها ... نجوم سعد نوءها خير

فى مصر منها كوكب نير ... يا حبذا كوكبها النير

كأنما الأعين كاساته ... كأنما لألاؤه كوثر

أوفى فلم يحجب هدى نوره ... إلا وإصباح الهدى مسفر

بنت الثريا أنا مستخبر ... لعل ذا معرفة يخبر

إذا بدا الفجر وآياته   كأنها راياته تنشر

ولبثت كل نؤوم الضحى   في لجج الأحلام تستبحر

ساهرة الليل على أنها   لمرقص أو مقمر تسهر

تذهل أم الولد عن ولدها   وتستخف الريبة المعصر

من التى تنهض من بكرة   وحرة القوم التى تبكر

فتهجر الترفيه فى بيتها   وهو الذى ما اسطيع لا يهجر

وتغتدى يوفض سيرا بها   منخطف كالبرق أو أسير

فى ملبس شف بظلمائنا   عن غرر من شيم تزهر

تبدو مرضاها بإلمامها   والعهد أن الأحوج الأبدر

تألف لا تأنف مستوصفا   للبؤس فى أكنافه محشر

يمض من مر به ناظرا   لفرط ما يؤلمه المنظر

ما حال من تدأب تنتابه   تخبر من بلواه ما تخبر

معشرها من أنسها موحش   وأتعس الخلق لها معشر

من صبية فيهم سديد الخطى   وفيهم الأصغر فالأصغر

أجدهم بثا وتلعابهم   يبكيك إذ يهذى وإذ يهذر

وفتية يودى بهم جهلهم   فهالك فى إثره منذر

ومرضع من نضبها تشتكى   وهرم من ضعفه يهتر

وطفلة ما عربدت عينها   لكن سقما لونها الأحمر

وذات حسن أحصنت عرضها   وإن تولى هتكها المئزر

إن خفر القلب فذاك التقى   ما الثوب إلا ذمة تخفر

لهفى على تلك النفوس التى   هيضت وود البر لو تجبر

هى الشقاوات لقد صورت   فى صور توحش أو تذعر

لها وجوه باديات القذى   مبصرها يؤذى بما يبصر

تعبس حتى حينما تجتلى   ذاك المحيا طالعا تبشر

يا حسن تلك المفتداة التى   آياتها فى البر لا تحصر

لاحت فلاح النور بعد الدجى   جاءت فجاء الدهر يستغفر

تأسو برفق أو تواسى به   قد يضجر الرفق ولا تضجر

تسام أقصى ألم المشتكى … وفوق صبر المشتكى تصبر

تطارد الفقر بمعروفها … وإنه للخاتل الأنكر

تحارب الجوع بإيمانها … والجوع عين الكفر أو أكفر

تظل بالجود تعفى على … ما يتلف التسهيد والميسر

وباليد البيضاء تبنى الذى … يهدمه الإدمان والمسكر

يلوم قوم طولها بالندى … ولا تلوم القوم إن قصروا

وما تبالى كيف كانت سوى … ما طاهر الوحى به يأمر

عاذرة للناس والناس قد … تتهم الحسنى ولا تعذر

وبعد هذا كم لها جيئة … فى يومها أو روحة تشكر

كم خدمة فى كل جمعية … للخير لا تألو ولا تفتر

كم دار تنكيد إذا أقبلت … عاد إليها صفوها المدبر

كم هالك تنقذه من شفا … وكادت الدنيا به تعثر

كم دون عرض تبتغى صونه … تمهر والأقرب لا يمهر

كم تتصدى لعليل وما … من خطر فى بالها يخطر

لا تكتفى بالمال لكنها … تعطى من الصحة ما يذخر

كبيرة القدر ولكن لدى … كل صغير القدر تستصغر

تاحت لمصر أختها قبلها … بأى أخت بعدها تظفر

يتيمتا العصر هما هل ترى … ثالثة تأتى بها الأعصر

سسيل هل تردين تلك التى … أذكرها أنت التى أذكر

لا تغضبى من مدحتى إنها … قد وجبت والفضل قد يشكر

ما تجزىء الأقوال من همة … فيها تقضى عمرك الأنضر

حيى الصبا حسناء أمثالها … بسنها فى عقلها تنذر

فرع أب ذكراه فى قومه … أخلد ذكرى واسمه الأشهر

صورة أم ذات خلق سما … يظهره الفضل وما تظهر

سليلة الآل الكرام الأولى … فى كل ناد صيتهم يعطر

برقة الجود استرقوا النهى … والجود من يعطى ومن يستر

بيت عتيق لم تزل فى الندى … وفى الهدى آثاره تؤثر

إلى ابن عبد زفها قلبها والناس بالأعياد تستبشر
موريس من بيت رفيع الذرى موضعه فى الجاه لا ينكر
أبوه عالى الجد سامى الحجا وأمه الجوزاء أو أزهر
قد صدقت فيه الصفات التى ببعضها يفخر من يفخر
فاهنأ بمن أوتيت زوجا فما زوجك إلا الملك الأطهر
عيشا بسعد وانموا واكثرا فالنسل خير ما زكا العنصر

■ ■ ■

هو فخر الشباب وهو الفتى

هو فخر الشباب وهو الفتى ... يحفظه الله فاقد النظراء

يا حكيما على الحداثة فى ... السن تقدمت سنة الحكماء

لم نحدث فيما نحدث عن ... مبتكر ما ابتكرته فى العطاء

وحلى العقل فيك شتى ... وأحلا ها لدى الأزمة ابتدار الذكاء

تنظر النظرة البعيد مداها ... فترى ما بكن قلب الخفاء

تتقى الخطب فى مظنته ... وهو جنين فى مهجة الظلماء

هكذا هكذا الرجال أول العزم ... فعش سائدا ودم فى صفاء

وابلغ الغاية التى تبتغيها ... من فخار حق ومن علياء

صانك الله والعروس مديدا ... فى سرور ونعمة ورفاء

■■■

هم فجر الحياة بالإدبار

هم فجر الحياة بالإدبار ... فإذا مر فهى فى الآثار
والصبا كالكرى نعيم ولن ... ينقضى والفتى به غير دارى
يغنم المرء عيشه فى صباه ... فإذا بان عاش بالتذكار
إيه آثار بعلبك سلام ... بعد طول النوى وبعد المزار
ووقيت العفاء من عرصات ... مقويات أواهل بالفخار
ذكرينى طفولتى وأعيدى ... رسم عهد عن أعينى متوارى
مستطاب الحالين صفوا وشجوا ... مستحب فى النفع والإضرار
يوم أمشى على الطلول السواجى ... لا افترار فيهن إلا افترارى
نزقا بينهن غرا لعويا ... لاهيا عن تبصر واعتبار
مستقلا عظيمها مستخفا ... ما بها من مهابة ووقار
يوم أخلو بهند تلهو وتزهو ... والهوى بيننا أليف مجارى
كفراش الرياض إذ يتبارى ... مرحا ما له من استقرار
نلتقى تارة ونشرد أخرى ... كل ترب فى مخبإ متدارى
فإذا البعد طال طرفة عين ... حثنا الشوق مؤذنا بالبدار
وعداد اللحاظ نصفو ونشقى ... بجوار ففرقة فجوار
ليس فى الدهر محض سعد ولكن ... تلد السعد محنة الأكدار
كلما نلتقى اعتنقنا كأنا ... جد سفر عادوا من الأسفار
قبلات على عفاف تحاكى ... قبلات الأنداء والأسحار
واشتباك كضم غصن أخاه ... وكلثم النوار للنوار
قلبنا طاهر وليس خليا ... أطهر الحب فى قلوب الصغار
كان ذاك الهوى سلاما وبردا ... فاغتدى حين شب جذوة نار

حبذا هند ذلك العهد لكن ... كل شيء إلى الردى والبوار
هد عزمي النوى وقوض جسمي ... فدمار يمشي بدار دمار
خرب حارت البرية فيها ... فتنة السامعين والنظار
معجزات من البناء كبار ... لأناس ملء الزمان كبار
ألبستها الشموس تفويف در ... وعقيق على رداء نضار
وتحلت من الليالي بشامات ... كتنقيط عنبر في بهار
وسقاها الندى رشاش دموع ... شربتها ظوامئ الأنوار
زادها الشيب حرمة وجلالا ... توجتها به يد الأعصار
رب شيب أتم حسنا وأولى ... واهن العزم صولة الجبار
معبد للأسرار قام ولكن ... صنعه كان أعظم الأسرار
مثل القوم كل شيء عجيب ... فيه تمثيل حكمة واقتدار
صنعوا من جماده ثمرا يجنى ... ولكن بالعقل والأبصار
وضروبا من كل زهر أنيق ... لم تفتها نضارة الأزهار
وشموسا مضيئة وشعاعا ... باهرات لكنها من حجار
وطيورا ذواهبا آيبات ... خالدات الغدو والإبكار
في جنان معلقات زواه ... بصنوف النجوم والأنوار
وأسودا يخشى التحفز منها ... ويروع السكوت كالتزآر
عابسات الوجوه غير غضاب ... باديات الأنياب غير ضواري
في عرانينها دخان مثار ... وبألحاظها سيول شرار
تلك آياتهم وما برحت في ... كل آن روائع الزوار
ضمها كلها بديع نظام ... دق حتى كأنها في انتشار
في مقام للحن يعبد بعد العقل ... فيه والعقل بعد الباري
منتهى ما يجاد رسما وأبهى ... ما تحج القلوب في الأنظار
أهل فينيقا سلام عليكم ... يوم تفني بقية الأدهار
لكم الأرض خالدين عليها ... بعظيم الأعمال والآثار
خضتم البحر يوم كان عصيا ... لم يسخر لقوة من بخار
وركبتم منه جوادا حرونا ... قلقا بالممرس المغوار
إن تمادى عدوا بهم كبحوه ... وأقالوه عن كبا من عثار

وإذا ما طغى بهم أوشكوا أن ... يأخذوا لاعبين بالأقمار

غير صعب تخليد ذكر على الأرض ... لمن خلدوه فوق البحار

شيدوها للشمس دار صلاة ... وأتم الرومان حلى الدار

هم دعاة الفلاح فى ذلك العصر ... وأهل العمران فى الأمصار

نحتوا الراسيات تحت صخور ... وأبانوا دقائق الأفكار

وأجادوا الدمى فجاز عليهم ... انها الآمرات فى الأقدار

سجدوا للذى هم صنعوه ... سجدات الإجلال والإكبار

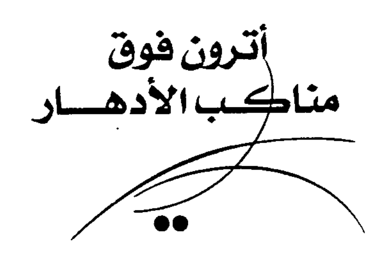
بعد هذا أغاية فترجى ... لتمام أم مطمع فى افتخار

نظرت هند حسنهن فغارت ... انت أبهى يا هند من أن تغارى

كل هذى الدمى التى عبدوها ... لك يا ربة الجمال جوارى

■ ■ ■

أترون فوق مناكب الأدهار



أترون فوق مناكب الأدهار ... شفقا يلوح كمسجد منهار

حقب دجت منها السفوح ولم يزل ... فوق الذرى منها بريق نضار

يا مغرب الماضى أما من آية ... فتعود من سحر من الأسحار

هذا صباح مقبل من غيبه ... فتبينوه يا أولى الأبصار

تجد العيون على نواصى أفقه ... ضوءا تألق من وراء ستار

فجر الرجاء بدا لكم وإزاءه ... شفق البقية من على وفخار

شقان مؤتلفان تسبك منهما ... تاجا لمصر أنامل المقدار

نجباء مصر الثائرين لعزها ... وجلالها من ذلة وصغار

علماء مصر الرافعى أعلامها ... بالفضل فى متقاطر الأقطار

تبغون أن تحيوا وتحيا مصركم ... حق الحياة وما بها من عار

وملاك أمركم التآخى بينكم ... تتعارفون من اسمه بشعار

بلد تفديه قلوب فئاته ... هو فى مضاعفة من الأسوار

خوضوا الغمار لتظفروا بمرادكم ... لا فوز إلا بعد خوض غمار

ما شاء سعد الدار أن تشقوا له ... فاشقوا له ما شاء سعد الدار

إن شق ترحال فهذى هجرة ... لا شقة فى مثلها فبدار

سيروا تتموا فى الحياة فطالما ... كان التقاعس مؤذيا ببوار

ما اللج وادع أو تشاكس حارنا ... إلا ذلول الراكب الكرار

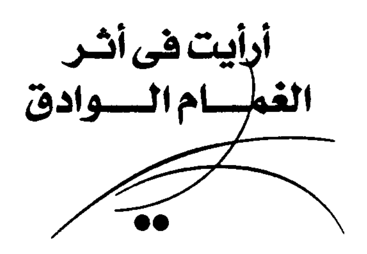
ما البر أنجد أو أغار بجائب ... إلا سليب خطى ونهب قطار

ركب النجاة استطلعوا لبلادكم ... فى الغرب كل مطالع الأنوار

هزوا منابرة بعالى صوتكم ... حتى يرن صداه فى الأقطار

انتم جنود السلم رسل جهاده ... انتم أشعة مصر فى الأمصار
انتم أشعة حزمها شفافة ... عن حزنها والنور بث النار
العدل عن يقصد فأين مكانه ... فى نكر معرفة وغصب جوار
الرأى تكمد شمسه فى موطن ... متناقض الإعلان والإسرار
الخير تفقد سبله فى مجمع ... متعارض الإقبال والإدبار
إنى لمغتبط بعزم كباركم ... وهو الحقيق بغاية الإكبار
واقول للمزرى بسن صغاركم ... ليس العظيم همومهم بصغار
لستم غلاة خال ذلك منكم ... من لم يخلكم من ذوى الأخطار
ليس الذى تبغونه من مطلب ... إلا أحق مطالب الأحرار
أمهاجرى أرض الكنانة إنكم ... وجميع من فيها من الأنصار
امضوا دعاة للهدى واستنصفوا ... بالحق للبلد العزيز الجار
كونوا الشهود له على أعدائه ... برجوع شمس نهاره المتوارى

■■■



أرأيت فى أثر الغمـــام الــــوادق

أرأيت فى أثر الغمام الوادق … جرى العيون بدمعهن الدافق

هى ديمة خرساء ألقت درها … وكأن ما ألقته حمر صواعق

لم ينأ عن مرمى لظاها ناطق … بالضاد بين مغارب ومشارق

ماذا جناه ولم يكن متوقعا … قدر تغير فى قصار دقائق

فجع الكنانة بابنها وبسيفها … وبرأيها فى الموقف المتضايق

هيهات تهجع والخطوب حيالها … يقظى تقوض كل رأس شاهق

وتلج فى حصد الشباب وما بها … رفق بمحتلم ولا بمراهق

فتياناه هم ذخرها وعتادها … وأشعة الصبح الجديد الشارق

أتظل كالأم الثكول مروعة … ببوائق تنقض إثر بوائق

حسنين إن يبعد فليس مفارقا … ما كل غائب صورة بمفارق

أنى افتقدت وجدت فى آثاره … ذكرى تضوع كالأريج العابق

علم وتقوى جناهما … حلوا على قدر المنى للذائق

أدب كما يهواه أرباب الحجى … وفصاحة ليست بذات شقائق

جود بلا من يكدر صفوه … والمن يكره لو أتى من رازق

بأس وما أحلاه فى متكرم … عن لوثة المتصلف المتحامق

وصلابة تهوى لما ازدانت به … من ناعمات فى الخلال رقائق

طلب المعالى فى اقتبال شبابه … وأتى الفرى بمبدعات طرائق

بالرأى أو بالبأس أو بكليهما … يدنى البعيد ولا يعاق بعائق

فى كل شوط للمهارة والحجى … يشأو الرفاق وما له من لاحق

السيف أشرف لهوه وأحبه … والسيف لا يأبى مرانة حاذق

يعتده حيث الزمان مسالم … ليكف من غرب الزمان الحالق

هو إلفه وحليفه لكنه ... للزهو لم ينط النجاد بعاتق
جاب الصحارى الموحشات يروعها ... من ذلك الإنسى أول طارق
يرتادها بذكائه ودهائه ... وكأنه يرتادها بفيالق
فأصاب باستكشافه واحاتها ... فتحا عزيزا خلد اسم السابق
ورمى العنان بذات أجنحة على ... كره تذل لقائد أو سائق
تقع القشاعم دونها وتمر فى ... هوج العواصف كالشهاب المارق
أيحافها وهو المراغم للردى ... حتى يوافيه بحيلة سارق
بين الثقافة والرياضة لم يزل ... فى سيره المتخالف المتوافق
حتى إذا رمقته عين مليكه ... لشمائل اكتملت به وخلائق
أدناه مختصا به فوفى له ... بفؤاد شهم لا لسان مماذق
مستمسكا بولائه متجشما ... عنتا ولم يك ذرعه بالضائق
ويلى المناصب لم يكابد دونها ... حرق المشوق ولا هوان العاشق
يقضى حقوقا للبلاد وأهلها ... منها ولا يقضى لبانة عالق
ويزيد مرهقة الفروض نوافلا ... من سد خلات ونفع خلائق
فى المعضلات يرى بثاقب رايه ... ما غيبته من وجوه حقائق
فيسير لا حذرا ولا مترددا ... ويبث بث المطمئن الواثق
هل يستوى متطلع من مستوى ... لا أفق فيه وناظر من حالق
ما اسطاع يصطنع الجميل ولم يرق ... فى عينه غير الأنيق الرائق
ورعى الأولى قدروا الجمال فبرزوا ... بفنونهم من صامت أو ناطق
فبجاهه وبنصحه وببره ... نصر النفيس على الخسيس النافق
ورعى رياضات تنشىء فتية ... سمحاء أخلاق حماة حقائق
اللهو ظاهرها وفى توجيهها ... كم من منافع للحمى ومرافق
ماذا أرانا فى رفيع مقامه ... من كل معنى فى الرجولة شائق
حتى قضى الأيام لا يلقى بها ... إلا تجلة مكبر أو وامق
تجلو القلادة صورة فى جيده ... لفضائل كجمانها المتناسق
هذا فقيد مليكه وبلاده ... وشهيد إخلاص الوفى الصادق
يا وافدين ليشهدوا تأبينه ... من أولياء وأصفياء أصادق
ومن الشباب الصيد فى الفرق التى ... عنها ضحا ظل اللواء الخافق

أتـعـاد بـالـذكـرى مـآثـره ومـا يحصنى بين جلائل ودقائق

من مسعد الخطباء والشعراء أن يرقوا إليها بالثناء اللائق

فى الشرق آفاق ترددها فما جدران دار أو ستور سرادق

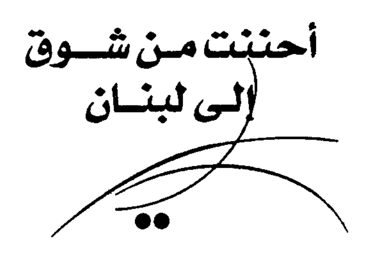
فاروق يا فخرا لأمته إذا عد الملوك من الطراز الفائق

دم سالما وفداك أهدى رائد وأبر مؤتمن وخير مرافق

ما كان أفدح رزءه بنواه عن مولاه لو لم يلق وجه الخالق

■■■

أحننت من شوق إلى لبنان



أحننت من شوق إلى لبنان وارحمتا لك من رميم عان

شوق تكابده ويثوى منك فى مثوى الرؤى من مهجة الوسنان

جسوا مظنة حسه أفنابض فيها فؤاد متيم ولهان

واستطلعوا الرسم المحيل فهل به يوم المآب لقرة عينان

أرفات حى كان فرد زمانه بذكائه بل فرد كل زمان

هل يستطيع إشارة أو نبأة أو رمز طرف أو حراك بنان

لا شىء باق منك إلا اسطرا خلدت بحسن الصوغ والتبيان

وجميل ذكر لم يفد فى دفع ما يتبشع التحويل فى الجثمان

إنى لنظر كيف بت فلا أرى فى المجد ما يغنى من الإنسان

واراك قد أمسى فؤادك خاليد أبدا من الأفراح والأحزان

لكن توهمنا قرارك فى الحمى أشفى لغلة عودك الظمآن

لبنان يا جبلا كان نزيله إن يرتحل عنه طريد جنان

لو أن أطوادا معان جسمت ما كنت غير الشوق والتحنان

تنتقل البهجات فيك زواهيا بأشعة يرفلن فى ألوان

أما ظلالك فهى اشباح لما فى أنفس النائين من اشجان

هذا ابنك العلم لأشم قد انطوى فى برزخ متطامن الأركان

تلك العظائم كلها قد اصبحت شيئا من العظم المهيض الفانى

ماذا تقول ذراك وهى شواهد هذى البقية منتهى وبيان

ماذا يقول السفح أنكر سمعه هذا السكوت على الصدى الرنان

●●●

بـيـروت يـا بـلـدا عـزيـزا طـيـبـا ... سـمـح الـسـريـرة صـادق الشـكـران

بيـروت هـذا مـن بلـغـت مـن العلـى ... بمـكـانـه الـسـامـى أعــز مـكـان

حيـى مـشـويـتـه إلـيـك واكـرمـى ... مـا شـئـت زائـرك الـرفـيـع الـشـان

وتـذكـرى أيـامـه الـغـر الـتـى ... كـانـت عـقـود بـدائـع ومـعـان

جعلت شموسك فى الشموس فرائدا ... بـالآيـتـين الـنـور والـعـرفـان

كـانـت لـنـا بـالـقـرب مـنـه سـلـوة ... فـأزالـهـا هـذا الـفـراق الـثـانـى

اى نعـشـه فـيـك الـعـفـاف مـشـيـعـا ... والـعـلـم مـبـكـيـا بـكـل جـنـان

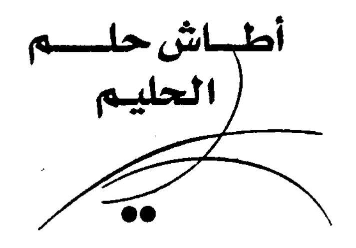
أبـلـغ وديـعـتـنـا إلـى أحـبـابـنـا ... واحـمـل تحـيـتـنـا إلـى الـوطـان

كنا نـود بـك المصـيـر إلـى الحـمـى ... وتـأسـى الإخـوان بـالإخـوان

لـكـن عـدانـا الـبـيـن دون عـنـاقـهـم ... فـتـول ولـيـتـعـانـق الـدمـعـان

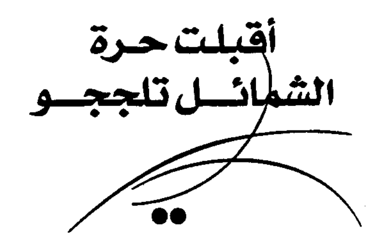
■ ■ ■

أطاش حلم الحليم



أطاش حلم الحليم مصاب عبد الحليم
كأن دهرا رماه رمى العلى فى الصميم
لبنان من ذلك الرزء فى حداد عميم
على فتى كان يرجى فيه لشأ عظيم
يصرف الامر بالحزم والضمير القويم
و بعلبك تعانى آلام خطب جسيم
فى خير من خبرته من حاكم وحكيم
ساس الديار بعزم ماض وقلب رحيم
وكان غيثا وغوثا للمعتفى والهضيم
عرفته المعيافى نثره والنظيم
خصب الجنان بعيدا عن الجمود العقيم
يصوغ صوغ أديب والفكر فكر عليم
ماذا أحدث عن ذوقه الرفيع السليم
وصدق ود وعهد يشف عن طهر خيم
وعزة كالرواسى ورقة كالنسيم
وطاهرات سجايا خلقن للتكريم
يأبى السلو فؤادى بعد الصديق الحميم
ما بال كل قريب له وكل لزيم
الله جارك يمم جار الصفاء المقيم
من أسعد الناس لاقى جزاءه فى النعيم

■■■



أقبلت حرة الشمائل تلجو

أقبلت حرة الشمائل تلجو   طالع اليمن فى سماء البيان

فارقبوا يا أولى النهى بلج   الوحى وعهدا مجداف المعانى

وأفانين غير مسبوقة فى   الشعر والنثر من أديب الزمان

مسكن يجمع المسرات فيه   سكن تنتهى إليه المانى

من ذوات الخصال لا عيب فهيا   وذوات الكمال بين الحسان

ذلكم مبعث الفريض ومجرى   أعذب القولم فيوض الجنان

يا خليل الخليل يهنئك العيش   طرايف الأنوار واللوان

بارك الله فى العروسين   وليستقبلا عهد غبطة وأمان

وليصيبا من كل سعد ومجد   ما غليه قلباهما يصبوان

■■■

أشيرى إلى عاصى الهوى يتطوع

اشيرى إلى عاصى الهوى يتطوع ... ونادى المنى تقبل عليك وتسرع

أفقرا فتاة الروم والحسن مغنم ... وطهرا وهذا العصر عصر تمتع

إلى كم تطوفين الربوع تسولا ... تبيعين صوت العود للمتسمع

لقد كان عهد للفضيلة وانقضى ... وابدع هذا العهد امرا فأبدعى

ولو شئت قال الحب إمرة قادر ... لمجدب هذا العيش أزهر وأمرع

وللقفر كن صرحا مشيدا لأنسها ... وللصخر كن روضا وأورق وأفرع

وللظلمة الخابى بها النجم أطلعى ... لها أنجما إن تغرب الزهر تسطع

فتاة كما تهوى النفوس جميلة ... منزهة عن ريبة وتصنع

تخال محلاة وما ثم من حلى ... سوى أدب وفر وحسن ممنع

هضيمة كشح ما بها من خلاعة ... ويكذب ما فى مشيها من تخلع

بياض يغار العاج منه نقاوة ... ويحجبه لون الحياء كبرقع

وعينان سوداوان ينهل منهما ... ضياء كمسكوب الرحيق المشعشع

تمد يديها للسؤال ذليلة ... فإن سئلت ما ينكر النبل تمنع

فلله لك الكف تبسط للندى ... ولو طلبت ملكا لفازت بأرفع

تود قلوب الناس لو بذلت لها ... كبعض عطاء المحسن المتبرع

رآها فتى خال فملك حسنها ... قياد الهوى فى قلبه المتوزع

وكان ضعيف الرأى فى أمر نفسه ... رقيق حواشى الطبع سهل التطبع

اديبا صبيح الوجه بين ضلوعه ... فؤاد جواد بالمحامد موزع

غنيا على البذل الكثير موطأ ... له كنف العلياء فى كل مفرع

فغازلها يوما فعفت فظنها ... تشوقه بالصد عنه لمطمع

وانى على فقر تعف طهارة ... ولا عفة إلا برى ومشبع

فسام إليها عرضها سوم مشتر ... وأغلى لها مهر الشباب المضيع

على زعم أن المال وهو شفيعه ... يكون لدى الحسناء خير مشفع

ولكن تعالت عن إجابة سؤله ... وردت عليه المال رد ترفع

فما زادها إلا جمالا إباؤها ... وما زاده إلا صبابة مولع

وأدركها فى روضة فخلا بها ... بمرأى رقيب للعفاف ومسمع

فلما استبانت فى هواه نزاهة ... أجابت إلى النجوى ولم تتورع

وقالت له إنى فتاة عليلة ... على موعد من طارئ متوقع

تناوبنى جوع وبرد فأقلقا ... دعائم صدرى الخائر المتصدع

وبى ضعة فى الحال حاذر قصاصها ... ومثلك إن يقرن بمثلى يوضع

وإياك حبا دونه كل شقوة ... تعانى به دائى وتفجع مفجعى

لك الجاه فاختر كل ناضرة الصبا ... ربيبة مجد ذات قدر مرفع

وكلنى إلى همى فإنى غريقة ... ببحر من الآلام والذل مترع

إذا لحظت عينى النعيم فإنه ... لينفر منى نفره المتفزع

سقيت الرزايا طفلة ثم هذه ... ثمالة تلك الكاس فلأتجرع

فقال لها بل يشهد الله بيننا ... وأسقام قلبى الواله المتوجع

وتشهد هذى الشمس عند غروبها ... وما حولنا من نورها المتفرع

ويشهد ذا الروض الأريض ودوحه ... وما فيه من زهر وعطر مضوع

وهذى الظلال الباسطات اكفها ... وهذى الشعاع المؤمئات بأذرع

وهذى المياه الناظرات بأعين ... وهذى الغصون المصغيات بمسمع

بأنى لا ابغى سواك حليلة ... ومهما تسمنى صبونى فيك اخضع

وانى اقلى صحتى وشبيبتى ... إذا لم تكونى فيهما متمتعى

لعينيك أرضى بالحياة بغيضة ... على فإن عوجلت بالبين اتبع

فقالت له مسرورة وهى قد جثت ... لديه بذل العبد المتخشع

افى حلم أم يقظة ما سمعته ... فإن سرورى فرط ما زاد مفزعى

لعمركما قرت عيون بمنظر ... ولا طربت نفس بلحن موقع

ولا رويت ظمأى الرياحين بالندى ... فعادت كأزهى ما تكون وابدع

ولا آنس الملاح بشرى منارة ... له بلقا أهل وصحب ومربع

كما طبت نفسا بالذى انت قائل ... وفارقنى اليأس الذى كان موجعى

وما أنا إلا حرة مشرقة ... لفضلك مهما تأمر القلب يصنع

وأجزيك عن عمر إلى أعدته ... بحبى وإخلاصى على العمر أجمع

وقد ختما هذى العهود بقبلة ... وأكدها صدق الغرام بمدمع

حياتك ما ساءت وسرت كمركب ... على سفر راس قليلا فمقلع

فإذا انقضت فالحادثات جميعها ... تزول زوال العارض المتقشع

أتنظرها حسناء جملها الردى ... ليسطو عليها سطوة المتشفع

على وجهها من مغرب الشمس مسحة ... تذيب فؤاد العاشق المتطلع

يقول وقد القى عياء بنفسه ... على الأرض كالنضو الطليح المضلع

فجعت فؤادى يا زمان بخطبها ... فليتك مرزوء الفؤاد بأفجع

عروس لعام لم يتم صرعتها ... ولو شئت لم تضرب بأمضى واقطع

فباتت على مهد الضنى ما لجفنها ... هجوع ولا جفنى يقر بمهجع

وكان ربيعا لى فاقوت مرابعى ... من الزهر والشدو الرخيم المرجع

اقول لها والداء ينحل جسمها ... عزاءك لا بأس عليك فتجزعى

كذبت على أن الأكاذيب ربما ... اطالت حياة للحبيب المودع

ولكن أراها ينفث الدم صدرها ... فأشعر فى صدرى بمثل التقطع

وأحنو عليها حنية الأم مشفقا ... وهيهات تحميها من البين أضلعى

وأرنو إليها باسما متكلفا ... فتفشى مرارا سر خوفى أدمعى

وما غرها منى افترار وإنما ... يدل على اليأس انكشاف التصنع

إذا افتر ثغرى من خلال كآبتى ... على ما بقلبى من أسى وتفجع

فقد يبسم البرق البعيد وإنه ... لذو ضرم مفن ورعد مروع

فبينا يناجى نفسه وفؤاده ... كشلو بأنياب الغموم مبضع

دعته وقالت يا حبيبى إنه ... دنا أجلى فالزم على القرب مضجعى

متى تبتعد أوجس حذارا من الردى ... ولكننى أسلو الردى إن تكن معى

ايذكرك التوديع أول ملتقى ... كشفنا به ستر الغرام المقنع

وحلفتنا ان لا يصدع شملنا ... فراق على رغم الزمان المصدع

فعش سالما واغنم شبابك مطلقا ... من العهد ولأجعل فداك بمصرعى

وما كان ذاك العهد إلا وديعة ... تلقيتها من ذى وفاء سميذع

وعند النوى توفى الأمانات أهلها ... وينهى إلى أربابه كل مودع

ولكن إذا ملكت قلبك فاحتفظ ... برسمى وحسبى فيه أصغر موضع

فأصغى إلها وهو يشهد نزعها ... وينزع فى آلامه كل منزع

وقال أبى الله الخيانة فى الهوى ... فإن لم أمت بالعهد فلأتطوع

فيا بهجة البيت الذى هو بعدها ... كدارس رسم فاقد الأنس بلقع

ويا زهرة الحب التى بذبولها ... ذبول فؤادى الناشىء المترعرع

لئن تنزلى دار الفناء وحيدة ... فلا كان قلبى فى الهوى قلب أروع

وإن عدت فيمن شيعوك فلا يكن ... بموتى لى من صاحب ومشيع

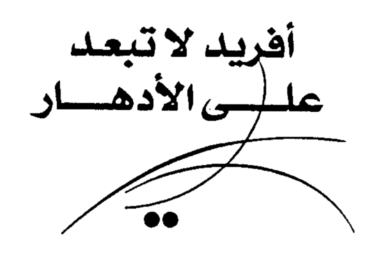
ولما أجابت داعى البين موهنا ... أجاب كما شاء الوفاء وما دعى

أصابت سهام اليأس مقتل قلبه نعى ... فما نعيت حتى على إثرها نعى

على أنها الدنيا اجتماع وفرقة ... وتخلف دار البين دار التجمع

■ ■ ■

أفريد لا تبعد على الأدهار



أفريد لا تبعد على الأدهار ... أنت الشهيد الخالد التذكار

بالأهل بالدم بالرفاهة بالغنى ... فديت مصر وفديت من دار

حررت نفسك دائب المسعى إلى ... تحريرها لتعز بعد صغار

مسترسلا والدهر فى إقباله ... مستبسلا والدهر فى الإدبار

ثبتا إذا ما الراسخون تقلقوا ... متوافق الإعلان والإسرار

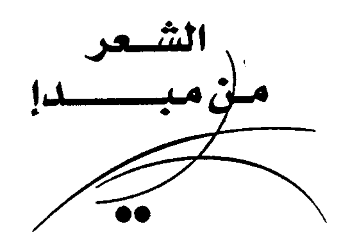
فبررت بالعهد الذى عاهدته ... ووفيت فى الإيسار والإعسار

ما كان ذاك العمر إلا قرية ... موصولة الآصال بالأسحار

ومن المنى ما ليس يوفى حقه ... حتى يكون الجود بالأعمار

■ ■ ■

الشعر من مبدا



الشعر من مبدا ... الخلق كان فنا سنيا
وكان فى كل جيل ... مقامه مرعيا
إلهامه دارج الكون ... منذ شب فتيا
داود وهو الذى كان ... عاهلا ونبيا
غنى بشعر على ... الدهر لم يزل مرويا
كم ذات تاج اجادت ... عروضه والرويا
إلى حلاها الغوالى ... به أضافت حليا
وكم ربيبة خدر ... صاغته صوغا سويا
وأخرجت من بحار ... الخيال درا نقيا
يا من تحل محلا ... من اللدات عليا
وتجتلى من بعيد ... لها ضياء حييا
أفى فؤادك وحى ... نادى نداء خفيا
فأسمعى النس منه ... إنشادك العلويا
واقبسى زينة ... الملك ملمحا ملكيا

■ ■ ■

أهلاً بأهل الفضائل والنبل



أهلا بأهل الفضل والنبل من ... زائرة فيكم ومن زائر

لطف تلقاه بنياتكم ... بكل قلب فرح شاكر

فى هذه الدار التى أحدثت ... على مثال عجب نادر

يعقد نور العلم إكليله ... على جبين الخلق الطاهر

كلية نظم اقسامها راى ... خبير فطن ماهر

فصولها اربعة قدرت ... من أول الدرس إلى الآخر

مثل فصول العام لكنه ... عام ربيع ثابت ناضر

تدرج فيها البنت ادراجها ... نقية الباطن والظاهر

فتبلغ التأديب مستوفيا ... تمامه بالأدب الوافر

آخذة من كل علم بما ... يفى بحاج الزمن الحاضر

معدة للعيش ما يقتضى ... من نافع فى الفن أو فاخر

قد لاح مستقبلها فانظروا ... اشعة المستقبل الباهر

من فتيات زاهيات الحلى ... فى كل ناد بالنهى زاهر

وأمهات تتجلى بها ... مزية الآتى على الغابر

■ ■ ■

أين أقطاب مصر والإعلام؟!

أين اقطاب مصر والاعلام ... ايقظا مصر للحياة وناموا

عوجلوا بالحتوف فيها فبانوا ... لاحقا بالهمام منهم همام

لا تكاد الاعلام ترفع بعد الخطب ... حتى تنكس الاعلام

طعنة إثر طعنة فيحشاها ... آه مما جنى عليها الحمام

أكرم الله مصطفاه وما الدنيا ... مقام لو طاب فيها المقام

فاز فيها بما ترجيه نفس ... من علو فلم يفته سنام

وبلا من ثمارها كل مر ... ذاقه قبله الرجال العظام

فتولى عنها ومن ارضعته ... ذلك الصاب لم يضره الفطام

وبماذا كانت تعالج أسقام ... ثقال تمدها أسقام

قيض الحظ ماهرا للمداواة ... فخف الأذى وكف الملام

وتولى الإصلاح ما اسطاع ان يبرم ... حبل الرجاء وهو رمام

يرقب الله فى الضعاف ولا يثنيه ... خوف ولا يعوق صدام

مبصرا موضع الصواب وإن عشى ... عليه الغموض والإبهام

ممضيا ما مضى به الشرع والخصم ... به شرة وفيه عرام

فأصاب الجزاء عزلا ولكن ... رضى الله عنه والإسلام

ناظر الوقف أمس أصبح فى ... تاليه والحرث شأنه والسوام

جد فى الموقف الجديد فلم ... يمكث على عهده الطراز القدام

وزكا الريع ما زكا وأتت ما ... لم يكن فى حسابها الارقام

رجل لم يهمه الزرع والضرع ... ولا البيع فيهما والسوام

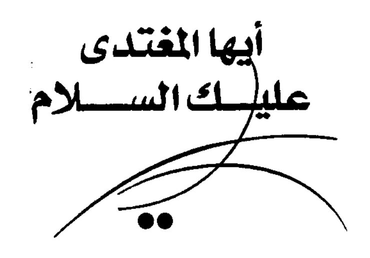
همه نعمة يعيشون فيها ... بصفاء ويؤمن الإجرام

فإذا استمتعوا بها لم يخلها ... كملت او تثقف الأفهام

ضحك النور فى القرى وتغنى بعد نوح على الغصون الحمام
وجرى الماء رائقا وأضيئت شهب للظلام منها انهزام
وإلى جانب المصانع شيدت لعلوم الصروح والآطام
ذاك عهد تسامع القطر فيه قول من قال هكذا الحكام
وعلا فيه رأى من رأيه الاعلى والزامه هو الإلزام
فدعاه للاضطلاع بأمر يتقيه الممرض المقدام
كان أمر الاوقاف نكرا وبالاوقاف داء من الجمود عقام
لا ترى العين فى جوانبها إلا ثقوبا كأنهن كلام
إن جرى ذكرها غلا الناس فى الذم وما كل قائل ذمام
كيف لا تكثر المثالب والحالة فوضى وللحقوق اهتضام
نصر العاملين فيها فتى دل عليه النبوغ وهو غلام
دائب فى ابتغاء ما يبتغيه ساهر الليل واللذات نيام
يدرك الشأو بعد آخر يتلوه وفى أول المجان انزحام
كلما شطت المناصب أدناها وقد راض صعبها الاعتزام
ذلكم مصطفى تنقل فيها وله اليمن حيث حل لزام
أوطأته علياءها فعنت بالطوع للحاكم النزيه الهمام

■■■

أيها المغتدى عليك السلام



أيها المغتدى عليك السلام ... هكذا يبكر الرجال العظام

غاض من روعه لمصرعك النيل ... وغضب من عجبها الاهرام

طالت الفترة العبوس بمصر ... قبل أن جاء عهدك البسام

عجب أن تكون آيتها الكبرى ... والا تصونك الأيام

أطلعى يا سماء ما شئت من نجم ... سيقتص من سناك الظلام

حظ مصر قضى بأن تخلد الارماس ... فيها وتهوى الاعلام

ذهب النابغون لم يعف منهم ... عالم او مجاهد أو إمام

وكأنى بخطب احمد لم يبق ... مدى للأسى. اذاك الختام

ـا لأم البنين سلوى وإن كانوا ... كثيرا إذا تولى الكرام

جل رزء البلاد فى عبقرى ... حل منها مكانة لا ترام

عاش يرمى الى مرام وحيد ... وصلاح البلاد ذاك المرام

كان صمصامها إذا التمس الرأى ... واعيا من دونه الصمصام

كان مقدامها إذا أعضل الأمر ... فلم يضطلع به مقدام

كان ما شاءت الفضائل فى حال ... فحال وما اقتضاه المقام

فهو العامل المسهد فى التحصيل ... والقوم هادئون نيام

وهو الكاتب الذى ينثر الدر ... له روعة وفيه انسجام

وهو العالم الذى يسلس الصعب ... فلا شبهة ولا إبهام

وهو الفيصل الذى تؤخذ الحكمة ... عنه وتؤثر الاحكام

وهو المقرل الذى يطرب السمع ... ويبدو فى لحظه الإلهام

أحدا لفرقدين من آل زغلول ... وحسب الفخار مجد تؤام

اى أوصافه أعدد والشىء ... كثير فيه الكلام

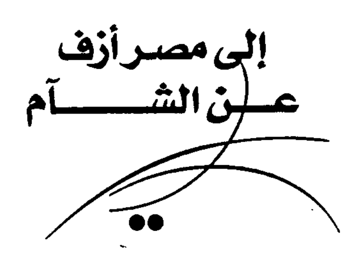
بين إكرامه وآمالنا فيه وبين التأبين لم يخل عام

كل تلك المحامد الغربانت واستقرت تلك المساعى الجسام

واستعضنا من العيون بآثار فلله ما جناه الحمام

■ ■ ■

إلى مصر أزف عن الشآم



إلى مصر ازف عن الشآم ... تحيات الكرام إلى الكرام

تحيات يفض الحمد منها ... فم النسمات عن عبق الخزام

ندبت لها وجرانى اعتدادى ... بأقدار الدعاة على القيام

إذا ما كان معروف وشكر ... مبادلة التصافى والوئام

فحبا أيها الوطنان إنى ... وسيط العقد فى هذا النظام

وسيط العقد لا عن زهو نفس ... اقل الراى يلزمنى مقامى

ولكن عن ولاء بى أكيد ... وعن رعى وثيق للذمام

أعرنى ثغر بيروت ابتساما ... اصغ فرض الجميل من ابتسام

ويا بحرا هناك اعر ثنائى ... نفيس الدر ينظم فى الكلام

ويا غابات لبنان المفدى ... من الدوح المجدد والقدام

أراك على الكنانة عاطفات ... وقد ذكرت أملك من غرام

امدينى بأرواح زواك ... لقرئها الزكى من السلام

بلادى لا يزال هواك منى ... كما كان الهوى قبل الفطام

اقبل منك حيث رمى الاعادى ... رغاما طاهرا دون الرغام

وافدى كل جلمود فتيت ... وهى بقنابل القوم اللئام

فكيف الشبل مختبطا صريعا ... على الغبراء مهشوم العظام

وكيف الطفل لم يقتل لذنب ... وذات الخدر لم تهتك لذام

لعمر المنصفين أبعد هذا ... يلام المستشيط على الملام

لحى الله المطامع حيث حلت ... فتلك اشد آفات السلام

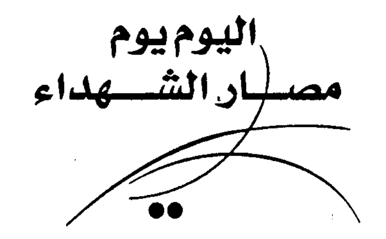
تشوب الماء وهو اغر صاف ... وتمشى فى المشارب بالسقام

أيقتل آمن ويقال رفه — عليك فما حمامك بالحمام
ستسعد بالذى يشفيك حالا — وتنعم بعد خسف بالمقام
فإما أن تعيش وأنت حر — فذاك من التغالى فى المرام
وإما أن تساهم فى المعالى — فطائشة بمرماك المرامى
مضى عهد يجار الجار فيه — ويؤخذ للحلام من الحرام
وهذا العهد ميدان التبارى — بلا حد الى كسب الحطام
مباح ما تشاء فخذه إما — بحق الرأى أو حق الحسام
ولا تكرثك نوحات الثكالى — ولا شكوى ضميرك فى الظلام
أساتذة المطامع ما ذكرتم — هو الناموس يقدم وهو نام
فلا يضعف ضعيف أو نراه — لناب الليث يصلح فى الطعام
فهمنا مأخذ الجانى علينا — وإعذار المسيمين العظام
وإن بديل عصر كان فيه — عجاف القوم ملكا للضخام
زمان ساد شعب فيه شعبا — وأنزله بمنزلة السوام
فقوم من ملوك كيف كانت — مراتبهم وقوم من طغام
وبين العنصرين خلاف نوع — على كون الجميع من النام
اقول وقد افاق الشرق ذعرا — من الحال الشبيهة بالمنام
على صخب الرواعد فيحماه — ورقص الموت بين طلى وهام
اقول بصوته لحماة دار — رماها من بغاة الغرب رام
اباة الضيم من عرب وترك — نسور الشم آساد الموامى
قروم العصر فرسانا ورجلا — نجوم الكر من خلف اللثام
بنا مرض النعيم فنسمونا — وغى يشفى من الصفو العقام
بنا برد المكون فادفئونا بحمى — الوثب حيث الخطب حام
بنا عطل السماع فشنفونا — بقعقعة الحديد لدى الصدام
لقد جئتم ببرهان عظيم — على أنا نعود الى التمام
وأنا إن جهلنا أو غلطنا — انفنا أن نعاتب باحتكام
وأنا حيث فاتحنا كذوب — بميعاد فطنا للختام
فإن زينت لنا الأقوال عفنا — تعاطيها كما كرة المدام
على هذا الرجاء ونحن فيه — نسير موفقين الى الامام

متولى رافعا إجلال قومى | إلى عباس الملك الهمام
إلى ملك التضامن والتآخى | عميد الشرق بعد الامام
وجهرى جهد ما تسع المعانى | بمدح شقيقه السنم المقام
متتم إمارة الأصل المعلى | بفضل باذخ كالأصل سام
وأدعو أن يعز الله مصرا | ويوليها السعود على الدوام

■ ■ ■

اليوم يوم مصارع الشهداء



اليوم يوم مصارع الشهداء ... هل فى جوانبه رشاش دماء
لله غياب حضور فى النهى ... ماتوا فباتوا أخلد الأحياء
أبطال تفدية لقوا جهد الأذى ... فى الله وامتنعوا من الإيذاء
بعداء صيت ما توخوا شهرة ... لكن قضوا فى ذلة وعناء
لبثوا على إيمانهم ويد الردى ... تهوى بتلك الأرؤس الشماء
سلمت مشيئتهم وما فيهم سوى ... متقطعى الأوصال والأعضاء
صبروا على جبروت عات قاهر ... ساء النهى والدين كل مساء
ما كان دقلتيان إلا طاغيا ... ملك الرقاب بغلظة وجفاء
لانت له الصم الصلاد ولم تلن ... شيئا قلوب الصفوة الفضلاء
حاشا الحقيقة كم مثال لا ترى ... إلا البقايا منه عين الرائى
ظلت حناياه وإن حطمت على ... ما كان فيها من تقى ورجاء
إن العقيدة نعمة علوية تصفو ... على النقمات والأرزاء
تجنى فخارا من إهانات العدى ... وتصيب إعزازا من الإزراء
بكر بأوج الحسن غال مهرها ... لا تشترى بأياسر الأشياء
تزرى النفائس دونها ولربما ... بذل النفوس حماتها بسخاء
اليوم بدء العام عام النيل فى ... إقباله المتجدد اللألاء
ما انفك فى أقسامه وفصوله ... شرعا وفى الأوضاع والاسماء
قد أحكمت فى كله اجزاؤه ... فبدا تمام الكل بالأجزاء
عجب لقوم لاتنى آثارهم ... هى أعظم الآثار فى الغبراء
قصت حواشيهم وقلص ظلهم ... إلا كفاح بقية لبقاء
وعفت معاهد بطشهم او اوشكت ... وهوت صروح العزة القعساء

إلا نظاما صلوه لعامهم — فلقد اقام كأصله المتنائى

كم دولة دالت بمصر وحكمه — متوارث عن أقدم الآباء

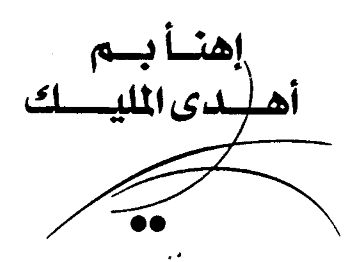
وإذا بنى الأقوام فكرا صالحا — فالفكر يثبت بعد كل بناء

أمهيئى هذا المقام ومبدعى — هذا النظام لحكمة غراء

إن أرج فالإقبال ما أرجو لكم — وإذا دعوت فبالرقى

■ ■ ■

إهنأ بما أهدى المليك



إهنأ بما أهدى المليك … إليك من سامى اللقب

شرف خصصت به وقد … شمل السرور به العرب

ويعده أدباؤهم … اسنى ثواب للأدب

ويعده علماؤهم … بالعلم متصل السبب

من فيهم ند الجميل إن … ترسل أو خطب

او من له تلك الثقافة … والحصافة إن كتب

حسب الصحافة أنها … بلغت به أقصى أرب

خضت السياسة لم تجر … فيها ولم تثر الريب

تنفى العزائم فى مناصبها … وما تشكو النصب

وتظل فيها ملتقى … الأمال إن خطب حزب

فى أى معنى لم تكن … اهلا لعالية الرتب

قلب كبير يلهم العقل … الكبير ولا عجب

وتمام فضل الله فى … حسب يزكيه النسب

لله للأوطان للفاروق … قمت بما وجب

فالرأى إجماع على … شكر المليك لما وهب

هى نعمة لم يؤتها … رجل أحق ولا أحب

■■■

بنات الروض تسعى رفقة



بنات الروض تسعى رفقة ... من بنات الجاه والقدر الرفيع

زهرات بائعات زهرا ... يا لقومى هل دريتم ما تبيع

هذه الخضرة فيها امل ... يبرىء النفس من الجرح الوجيع

وبه السلوى إذا الحظ التوى ... وبه الأمن إذا الأمن ريع

انظر الورد وسل حمرته ... هل محيا كمحياه البديع

صورة الحب هى الورد فمن ... يشتريه وله حسن الصنيع

حبذا الأبيض شفاف السنا ... عن عفاف وصفاء وخشوع

تلبس العذراء فى أوج العلى ... منه أبهى حلل القلب الوديع

هى طاقات من الزهر لها ... فى اليد البيضاء آيات تروع

من شراها فبما يبذله ... بعض تخفيف لويلات الربوع

ستر أعراض وبر بذوى ... رحم ذلوا وارقاء دموع

وأسا جرحى وإبقاء على ... أسد ألصقها بالأرض جوع

وكساء ليتيم وندى ... يستدر الثدى قوتا للرضيع

إنما إحسانكم يمن لكم ... وبه الصحة والشمل الجميع

وبه دفع الرزايا عنكم ... إن فعل البؤس فى الخلق فظيع

يستطيع الجود فى درء الأذى ... عنكم ما غيره لا يستطيع

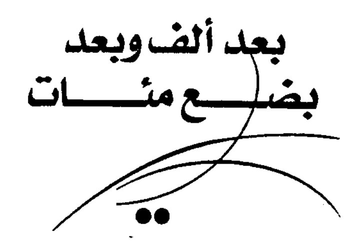
لا تضنوا يا احبائى فما ... من يضيع المال فى الخير مضيع

هذه الطاقات فيها للفتى ... من غوايات الصبا واق منيع

ولن لاقى شتاء العمر فى ... زهرات البر بشرى بالربيع

■■■

بعد ألف وبعد بضع مئات



بعد الف وبعد بضع مئات … انصفت عبقرية الضليل

نضى الستر عن جلال امرئ … القيس بسفر من البيان جليل

رد صبرى الواحه فتجلت … من خفاء آيات فن جميل

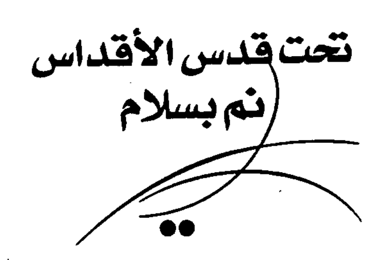
وإذا الحسن ند عنه حديث … طلب الحسن فى العتيق الأصيل

آفة الفن جهله كيف … والأعلام تطوى ما بين جيل فجيل

إنما الرأى ما ابنت وهل … ابلغ مما اقمته من دليل

■■■

تحت قدس الأقداس نم بسلام



تحت قدس الأقداس نم بسلام　　خالدا بالذكرى على الأيام

كامل الخطوتين دينا ودنيا　　بالغا منهما أجل مرام

كنت أولى الأنام حيا وميتا　　أن تكون الحظيظ بين الأنام

ذلك الشأن وهو أرفع شأن　　أثر الجد والمساعى الجسام

شرفا يا أمير لم يك عفوا　　ما تبوأت من رفيع المقام

أكرمتك الملوك واختصك اليوم　　مليك الملوك بالإكرام

كلما جدد الفدى جددت فيه　　حياة لباليات العظام

بين عهد مضى وعهد تلاه　　صلة أوثقت لغير انفصام

ولقاء بين الشهادة والغيب　　قريب على المدى المترامى

●●●

تأنس النفس فيه بالنفس فى　　منزلة من منازل الإلهام

وكأن الزمان يثبت فيه　　من كرور الشهور والأعوام

أترى اليوم يا حبيب أولى　　الخطار من كل ملة فى زحام

أقبلوا والأسى عليك جديد　　لجديد من واجب الإعظام

وبنوك الكرام واسطة فى　　ذلك العقد من وفود كرام

قد أنافوا كما أنفت قديما　　حين تندوا على أعالى الهام

كلهم مشبه أباه وكل　　هو لولا تعدد الأجسام

كان بالأمس صورة فتراءت　　فى ثلاث روح الأمير الهمام

وجلا النبل بعد وجه وجوها　　للندى والإباء والإقدام

ما طوى اللحد عزة تتجلى　　من بنيه فى أرفع الأعلام

لا ولم تفقد الحمية والأشبال　　فى الغيل صولة الضرغام

شيم حين صورت من نضار الحزم والعزم صورت لدوام

يا ضريحا أوى إليه حبيب تحت ضوء الذبيحة البسام

أى شمس لعينه تتجلى فى حواشيك من وراء الظلام

بات فى منبع الخلود وإن كان سبيل الخلود ورد الحمام

يتملى النعمى تشاركه فيها التى شاركته فى الآلام

زوجه البرة التى اوفت العهد بصدق الهوى ورعى الذمام

وقضت عمرها إلى أن أجابت دعوة الله وهى من غير ذام

خير أم لولدها ورؤوم بعدهم للضعاف والأيتام

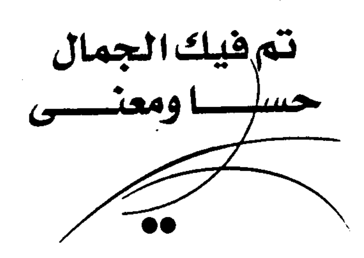
لم يعز التمام عنها سوى أن التى انجبت مثال التمام

ليس فى أنبل النساء لهيلانة شبه فى كل معنى سام

أيها الناحيان من عنت الدهر ومن شره العميم الطامى

هيكل الله منه حرز حريز فاستقرا فى غبطة وجمام

■ ■ ■



تم فيك الجمال حسا ومعنى ... هكذا هكذا تمام الجمال

خلق طاهر وخلق بديع ... وخصال يا طيبها من خصال

صورة أخلصت حلاها فجاءت ... فى مثال يفوق أسنى مثال

شرف راسخ الأصول قديم ... فرعته أواخر عن أوالى

ثروة لا تقل فى العم والآداب ... عنها فى الجاه أو فى المال

كرم فى الأحب شىء إلى الله ... من الصدق والتقى والكمال

نجدة للضعيف والعاثر الجد ... بأندى يد وأجدى نوال

ذاك ما قد سمعت عنها فهل بدع ... وفيها رأى الإمارة عالى

■■■

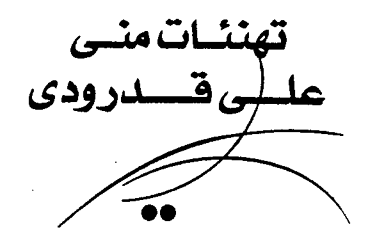
جاء الكتاب وأصدق

جاء الكتاب وأصدق   به رسولا أمينا
أدى البلاغ وأبدى   من الحديث شجونا
لكن شجانى خطب   وصفته لى مبينا
وصفا تناهيت فيه   براعة وفنونا
فيا له من مصاب   أجرى الفؤاد شؤونا
وكان لعقل تاج   يزين منها الجبينا
وللحياء شعاع   يغض عنها الجفونا
وكان كل ابتسام   منها عطاء ثمينا
وكل لفظ كدر   يصيده السامعونا
ماتت قتيل هواها   لم تبلغ العشرينا
ولم تزف عروسا   مرجوة للبنينا
ولم تخضب ولم يشد   حولها الشادونا
ولم تنل ملك يوم   به تقر عيونا
جل المصاب ملما   بمثلها أن يهونا
فكيف وهو مزيل   نورا ومبق طينا
دب الفساد إليها   خفيف وطء كمينا
وعالج الروح حتى   أباح عرضا مصونا
فكان افدح رزءا   وكان شرا منونا
وهون العمر خسرا   وعظم العرض دينا
يا ليتها فى سبيل العفاف   ماتت طعينا
إذن لزفت عزيزا   على الورى أن تبينا

في مشهد يستدر الصفا عليه عيونا
تبكى الصاحب فيه ويندب المنشدونا
ويرفع الصوت كل بذكرها تأبينا
لكنها اليوم ليست بميتة تبكينا
ولا مرجاة بعل وعيلة صالحينا
امست ضريحا وأمسى فيها العفاف دفينا
باعت جمالا بمال وكان بيعا غبينا
والمال ما زال ربا ى ستعبد العالمينا
أضلها وقديم إضلاله الراشدينا
فانظر لما هو ناج من حسنها مستبينا
فإنما هو ما لا نوده أن يكونا
ورد تحول جرا بملمس الفاسقينا
طيب يحلب سما في انفس الناشقينا
نور يمد جرابا في أعين المبصرينا
مرآة خلق عفيف تمثل المجرمينا
كأس تريب فنظمى بخمرها الشاربينا
ذكرى أسى لجمال حوى الفضائل حينا
ثم اغتدى وهو خال منها لدى الناظرينا
كجنة كان فيها أحبة آهلونا
ففارقوها وظلت تستوقف الآسفينا

■■■

تهنئات منى على قدرودى



تهنئات منى على قدرودى ... لك يا بضعة العزيز الغالى

بنت ارى السراة إن قيس جاه ... بوفير الندى وغر الخصال

وابر النساء زوجا وأما ... فى ذوات الحجى وطهر الخلال

كان عدلا وأنت أنقى فتاة ... ان تزفى إلى أبر الرجال

فاقبلى أصدق التحيات ... اهديها وغيرى يهدى نفيس اللآلى

فبنات ابحار يبلين يوما ... وبنات الأفكار غير يوالى

يا عروس اهنئى بقرب عروس ... جاء وفق الأحلام والآمال

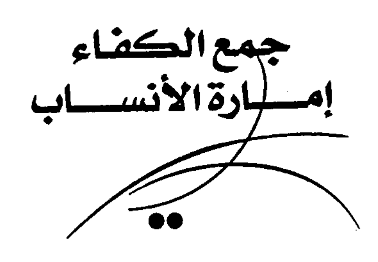
فيك معنى من الكمال وفيه ... ما تحيين من معانى الكمال

والتراضى بين القرينين أسمى ... ما أراد المهيمن الميعالى

دمت سمعان هائنا وليكن ... كل قران له بدارك نال

وليدم نسلك الكريم كما تهوى ... العلى فى تعاقب الأجيال

■ ■ ■



جمع الكفاء إمارة الأنساب

جمع الكفاء إمارة الأنساب … فى خطبة وإمارة الأحساب

أرأيت كيف تواشج الأعراق فى … روض العلى وتواثق الأسباب

هذا مقام التهنئآت فقف لدى … اسمى أمير فى أجل جناب

وابرز إليه من الزحام وحيه … بتحية الإكبار والإعجاب

عمر ويدرى الشرق من عمر وما … هو فى أعزته وفى الأقطاب

تاهت على الأمصار مصر بجاهه … والحقب تاه به على الأحقاب

قيل له التبريز فى أهل الندى … وله التقدم فى أولى الألباب

وله مواهبه العداد فجل من … أعطاه ما أعطى بغير حساب

زيدت به شرفا مكانة آله … ومكانة العلماء والكتاب

فى نجله لاحت مخايل نبله … موسومة بوسامه الخلاب

أخذ الفضائل عن أبيه فجئن فى … صور مجددة وحسن رابى

يا ابن الذى تنمى علاه أسرة … هى محتد الأمجاد والصياب

أقررت عين العصر حين أريته … حلم الكهول وأنت غض إهاب

لله فى الخفرات من آثرتها … فظفرت بالأسنى من الآراب

وجلا الهوى والرأى فى إيثارها … عن صبوة لم تعد حد صواب

برزت ولم يك نائيا عن بابها … فى مدرج العلياء أرفع باب

ومن العناية فارقت خدرا إلى … خدر الرعاية فى أعز رحاب

سبط لشيرين الكبير ولم يزل … متمثلا بحلاه فى الأعقاب

ربوا كما ربى وصانوا ولدهم … أدبا كما هو صانهم من عاب

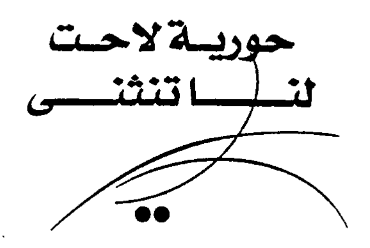
فى الإخوة الغر الثلاثة هل ترى … إلا جمال خلائق أتراب

سر السعادة فى تعدد منجب … بصفاته فى ولده الأنجاب

فلتهنىء البيتين آصرة زكت … بطرائف الأخلاق والآداب

عقدت بها صلة المفاخر والعلى … للأسرتين وخلدت

■ ■ ■



حورية لاحت لنا تنثنى

حورية لاحت لنا تنثنى	كالغصن حياه الصبا حين هب
مرت فما فى الحى إلا فتى	فؤاده فى إثرها قد ذهب
شعاع عينيها إذا ما رنت	يوقع فى الأنفس منها الرهب
والوجه كالجنة حسنا فإن	ظننت عدنا قد تراءت فهب
والشعر منضود على رأسها	كالعسجد الحر زها والتهب
يشبه فوارة نور لها	اشعة مواجة بالصهب
ورب راء راعه فيضه	فأكبر الواهب فيما وهب
وصاح مذهولا ألا فانظروا	فى هذه الأزمة هذا الذهب
اعجب به كنزا على ذروة	إذا سما الطرف إليه انتهب

■ ■ ■

خمسون لا تنسى من الأحوال

خمسون لا تنسى من الأحوال ... مرت وأنت بها لسان الحال

دالت بها دول ولاقيت الذى ... لاقيت من غير ومن أهوال

ثبتا وعزمك مستزيد قوة ... من طارئ الإدبار للإقبال

السحب تطبق والنجوم عواثر ... وهو المنارة ضوءها متلالى

كم فى صحائفك التى أخرجتها ... من جهد أيام وسهد ليالى

كم ذدت عن حق وكم سددت من ... رأى وكم بددت شمل ضلال

فأنار أهل الحزم كل حقيقة ... وأثار أهل العزم كل خيال

ما أنس لا أنس المؤازرة التى ... أوليتنيها فى الزمان الخالى

أيام يبتعث الشباب عزيمتى ... وأجول فى شوط البيان مجالى

وأرى الحياة تبش لى فيها المنى ... عن ألف ثغر فى حروق مقالى

فرعيتنى طفلا وأى مهيىء ... لتقدم كرعاية الأطفال

وإلى الحمى أهديت كتابا بهم ... يعتز دع من كان من أشكالى

عهد الخليل سقتك أصفى درها ... ديم الضحى وغمائم الأصال

كنت الطليعة فى الزما المرتجى ... لتحول الأفكار والأحوال

وأبو الصحافة فيك يداب دابه ... نسجا بلا سأم على منوال

كان الخليل بجده وثباته ... للمقتدين به أجل مثال

فلال غرب الكارثات بحمله ... للحادثات وهن جد ثقال

يجنى المنى كالورد من أشواكه ... ويهون الآلام بالآمال

ويظل ما شاء الوفاء لقومه ... حرب العدو وسلم كل موال

فى صورة الحمل الوديع وربما ... ألفيته فى صولة الرئبال

إنى لأذكر وجهه الحر الذى ... زان المشيب بهاءه بجلال

جمع الصباحة والسماحة والرضى / مترائيات فى مزاج جمال

وأرى وجوه ثقاته من حوله / وكأن ستر الغيب يجلوها لى

من كل معوان سواد مداده / نور ومرمى ناظريه عالى

ملأوا صحيفته بما تملى النهى / من رائع الآراء والأقوال

وسليم اللبق الأديب بغيض من / بحر ابتكار باهرات لآلى

يأتى بكل طريفة بكر لها / من جدة ما لم يمر ببال

ويرى كورى الزند خاطره بما / يجرى على قلم له سيال

عهد مضى وغدا أعزته الأولى / احيوا بلادا فى الرميم البالى

لكن من حرم العيون خليلها / سر القلوب بأكرم الأنجال

يا رامز الخير الذى آدابه / فى عارفيه مضارب الأمثال

وخلاله فى بالغى أعلى الذرى / بمكارم الأخلاق خير خلال

بك يستديم المجد ذخر أمانة / هى فى يديك أمانة الأجيال

فاهنأ بيوبيل اللسان ونل به / ما شئت من حب ومن إجلال

واسلم له دهرا مديدا وليدم / عنوان فضل فى الحمى وكمال

■ ■ ■

دا دعاه إلى الجهاد فأزمعا

داع دعاه إلى الجهاد فأزمعا — سفرا وجاد بنفسه متطوعا
غلبت حميته هواه لعرسه — فنأى وودع قلبه إذ ودعا
وقضت أمينة بعده أيامها — فى الحزن غير أمينة أن تفجعا
غرست بصحن الدار زهرة نرجس — لتكون سلوتها إلى أن يرجعا
كانت تبالغ فى رعايتها كما — ترعى عيون الأم طفلا مرضعا
حتى إذا ما جاءها عن بعلها — نبأ أصم المسمعين وروعا
شقت مرارتها عليه وأوشكت — من هول ذاك الخطب أن تتصدعا
وكأن ذاك الرزء قبل وقوعه — مما شجاها لم يكن متوقعا
فتفقدت صبحا اليفتها التى — كانت سلتها حسرة وتوجعا
فإذا نضارتها ذوت وكأنها — عين أسال الحزن منها مدمعا

■■■

رمى الجاهل الباغى فأودى بجاره

رمى الجاهل الباغى فأودى بجاره ... توهم أن الله بالشر يخدم

فما قولكم فى مصلح صنع ربه ... وحكمته قوس ومغزاه أسهم

اينقص حربا لم يرا الله نقصه ... وينمى عديد الله والله مرغم

الا ايها الجانى على نظرائه ... واخوته ساء الذى تتوهم

اخاك فأحببه بأنك ناصر ... لعيسى وسالمه بأنك مسلم

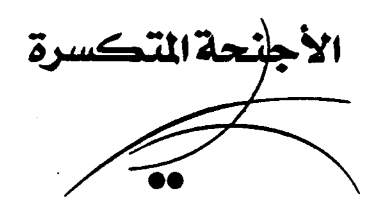
وإلا فايا كان يدنك لم تكن ... مجاهد حرب إنما أنت مجرم

ايقبل يوم تنتفى من نفوسنا ... ضغائن تخبو حقبة ثم تضرم

وقفنا بها مستأخرين لضعفنا ... وادنى البرايا دوننا تتقدم

■■■

الأجنحة المتكسرة



كنت فى الثامنة عشرة من عمرى عندما فتح الحب عينىَّ بأشعته السحرية، ولمس نفسى لأول مرة بأصابعه النارية. وكانت سلمى كرامة المرأة الأولى التى أيقظت روحى لمحاسنها، ومشت أمامى إلى جنة العواطف العلوية حيث تمر الأيام كالأحلام وتنقضى الليالى كالأعراس.

سلمى كرامة هى التى علمتنى عبادة الجمال بجمالها، وأرتنى خفايا الحب بانعطافها، وهى التى أنشدت على مسمعى أول بيت من قصيدة الحياة المعنوية.

أى فتى لا يذكر الصبية الأولى التى أبدلت غفلة شبيبته بيقظة هائلة بلطفها، جارحة بعذوبتها، فتاكة بحلاوتها؟ من منا لا يذوب حنيناً إلى تلك الساعة الغريبة التى إذا انتبه فيها فجأة رأى كليته قد انقلبت وتحولت، وأعماقه قد اتسعت وانبسطت وتبطنت بانفعالات لذيذة بطل ما فيها من مرارة الكتمان، مستحبة بكل ما يكتنفها من الدموع والشوق والسهاد.

لكل فتى سلمى تظهر على حين غفلة فى ربيع حياته. وتجعل لانفراده معنى شعرياً وتبدل وحشة أيامه بالأنس، وسكينة لياليه بالأنغام.

كنت حائراً بين تأثيرات الطبيعة وموحيات الكتب والأسفار عندما سمعت الحب يهمس بشفتى سلمى فى آذان نفسى، وكانت حياتى خالية مقفرة باردة شبيهة بسبات آدم فى الفردوس عندما رأيت سلمى منتصبة أمامى كعمود النور، فسلمى كرامة هى حواء هذا القلب المملوء بالأسرار والعجائب، هى التى أفهمته كنه هذا الوجود وأوقفته كالمرآة أمام هذه الأشباح. حواء الأولى أخرجت آدم من الفردوس بإرادتها وانقياده، أما سلمى فأدخلتنى إلى جنة الحب والطهر بحلاوتها واستعدادى، ولكن ما أصاب الإنسان الأول قد أصابنى،

والسيف النارى الذى طرده من الفردوس هو كالسيف الذى أخافنى بلمعان حده، وأبعدنى كرهاً عن جنة المحبة قبل أن أخالف وصية، وقبل أن أذوق طعم ثمار الخير والشر.

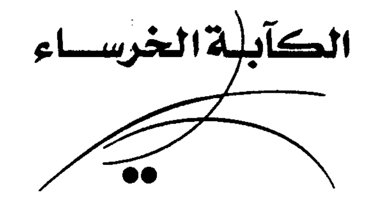
واليوم، وقد مرت الأعوام المظلمة طامسة بأقدامها رسوم تلك الأيام، لم يبقى لى من ذلك الحلم الجميل سوى ذكريات موجعة ترفرف كالأجنحة غير المنظرة حول رأسى، مثيرة تنهدات الأسى فى أعماق صدرى، مستقطرة دموع اليأس والأسف من أجفانى.. وسلمى - سلمى الجميلة العذبة قد ذهبت إلى ما وراء الشفق الأزرق ولم يبق من آثارها فى هذا العالم سوى غصات أليمة فى قلبى، وقبر رخام منتصب فى ظلال أشجار السرو. فذلك القبر وهذا القلب هما كل ما بقى ليحدث الوجود عن سلمى كرامة. غير أن السكينة التى تخفر القبور لا تفشى لك السر المصون الذى أخفته الآلهة فى ظلمات التابوت، والأغصان التى امتصت عناصر الجسد لا تبيح بحفيفها مكنونات الحفرة، أما غصات وأوجاع هذا القلب فهى التى تتكلم وهى التى تسكب الآن مع قطرات الحبر السوداء معلنة للنور أشباح تلك المأساة التى مثلها الحب والجمال والموت.

فيا أصدقاء شبيبتى المنتشرين فى بيروت، إذا مررتم بتلك المقبرة القريبة من غابة الصنوبر ادخلوها صامتين، وسيروا ببطء كيلا تزعج أقدامكم رفات الراقدين تحت أطباق الثرى، وقفوا متهيبين بجانب قبر سلمى وحيوا التراب الذى ضم جثمانها. ثم اذكرونى بتنهدة قائلين فى نفوسكم: ههنا دفنت آمال ذلك الفتى الذى نفته صروف الدهر إلى ما وراء البحار، وههنا توارت أمانيه وانزوت أفراحه وغادرت دموعه واضمحلت ابتساماته، وبين هذه المدافن الخرساء تنمو كآبته مع أشجار السرو والصفصاف. وفوق هذا القبر ترفرف روحه كل ليلة مستأنسة بالذكرى، مرددة مع أشباح الوحشة ندابات الحزن والأسى، نائحة مع الغصون على صبية كانت بالأمس نغمة شجية بين شفتى الحياة فأصبحت اليوم سراً صامتاً فى صدر الأرض.

أستحلفكم يا رفاق الصبا بالنساء اللواتى أحبتهن قلوبكم أن تضعوا أكاليل الأزهار على قبر المرأة التى أحبها قلبى. فرب زهرة تلقونها على ضريح منسى تكون كقطرة الندى التى تسكبها أجفان الصباح بين أوراق الورود الذابلة.

■ ■ ■

الكآبة الخرساء



أنتم أيها الناس تذكرون فجر الشبيبة فرحين باسترجاع رسومه، متأسفين على انقضائه، أما أنا فأذكره مثلما يذكر الحر المعتوق جدران سجنه وثقل قيوده. أنتم تدعون تلك السنين التى تجىء بين الطفولة والشباب عهداً ذهبياً يهزأ بمتاعب الدهر وهواجسه ويطير مرفرفاً فوق رؤوس المشاعل والهموم مثلما تجتاز النحلة فوق المستنقعات الخبيثة، سائرة نحو البساتين المزهرة، أما أنا فلا أستطيع أن أدعو سني الصبا سوى عهد آلام خفية خرساء كانت تقطن قلبى وتثور كالعواصف فى جوانبه، وتتكاثر نامية بنموه ولم تجد منفذاً تتصرف منه إلى عالم المعرفة حتى دخل إليه الحب وفتح أبوابه وأنار زواياه، فالحب قد عتق لسانى فتكلمت ومزق أجفانى فبكيت وفتح حنجرتى فتنهدت وشكوت.

أنتم أيها الناس تذكرون الحقول والبساتين والساحات وجوانب الشوارع التى رأت ألعابكم وسمعت همس طهركم، وأنا أيضاً أذكر تلك البقية الجميلة من شمال لبنان، فما أغمضت عينىّ عن هذا المحيط إلا ورأيت تلك الأودية المملوءة سحراً وهيبة، وتلك الجبال المتعالية بالمجد والعظمة نحو العلاء، ولا صممت أذنى عن ضجة هذا الاجتماع إلا وسمعت خرير تلك السواقى وحفيف تلك الغصون، ولكن هذه المحاسن التى أذكرها الآن وأشوق إليها شوق الرضيع إلى ذراعى أمه هى التى كانت تعذب روحى المسجونة فى ظلمة الحداثة مثلما يتعذب البازى بين قضبان قفصه عندما يرى أسراب البزاة تسبح حرة فى الخلاء الوسيع ـ وهى التى كانت تملأ صدرى بأوجاع التأمل ومرارة التفكير، وتنسج بأصابع الحيرة والالتباس نقاباً من اليأس والقنوط حول قلبى ـ فلم أذهب إلى البرية إلا وعدت منها كئيباً جاهلاً أسباب الكآبة. ولا نظرت مساء إلى الغيوم المتلونة

بأشعة الشمس إلا وشعرت بانقباض متلف ينمو لجهلى معانى الانقباض، ولا سمعت تغريدة الشحرور أو أغنية الغدير إلا وقفت حزيناً لجهلى موجبات الحزن.

يقولون إن الغباوة مهد الخلود والخلود مرقد الراحة ـ وقد يكون ذلك صحيحاً عند الذين يولدون أمواتاً ويعيشون كالأجساد الهامدة الباردة فوق التراب، ولكن إذا كانت الغباوة العمياء قاطنة فى جوار العواطف المستيقظة تكون الغباوة أقصى من الهاوية وأمر من الموت. والصبى الحساس الذى يشعر كثيراً ويعرف قليلاً هو أتعس المخلوقات أمام وجه الشمس لأن نفسه تظل واقفة بين قوتين هائلتين متباينتين: قوة خفية تحلق به السحاب وتريه محاسن الكائنات من وراء ضباب الأحلام، وقوة ظاهرة تقيده بالأرض وتغمر بصيرته بالغبار وتتركه ضائعاً خائفاً فى ظلمة حالكة.

للكآبة آياد حريرية الملامس، قوية الأعصاب تقبض على القلوب وتؤلمها بالوحدة. فالوحدة حليفة الكآبة كما أنها أليفة كل حركة روحية. ونفس الصبى المنتصبة أمام عوامل الوحدة وتأثيرات الكآبة شبيهة بالزنبقة البيضاء عند خروجها من الكمام ترتعش أمام النسيم، وتفتح قلبها لأشعة الفجر وتضم أوراقها بمرور خيالات المساء، فأن لم يكن للصبى من الملاهى ما يشغل فكرته، ومن الرفاق من يشاركه فى الأميال، كانت الحياة أمامه كحبس ضيق لا يرى فى جوانبه غير أنوال العناكب ولا يسمع من زواياه سوى دبيب الحشرات.

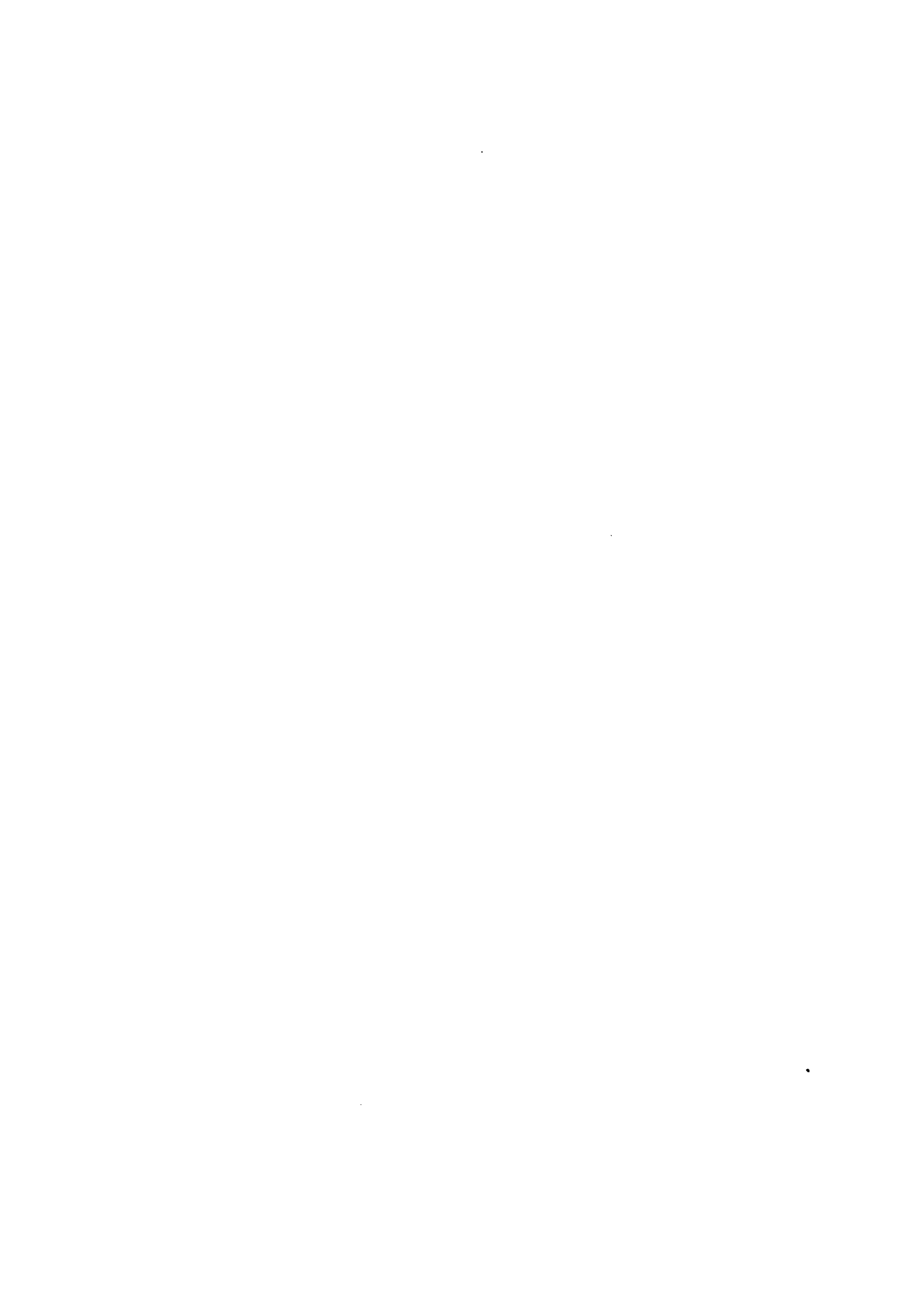
أما تلك الكآبة التى اتبعت أيام حداثتى فلم تكن ناتجة عن حاجتى إلى الملاهى لأنها كانت متوفرة لدى، ولا عن افتقارى إلى الرفاق لأننى كنت أجدهم أينما ذهبت، بل هى من أعراض علة طبيعية فى النفس كانت تحبب إلىّ الوحدة والانفراد وتميت فى روحى الأميال إلى الملاهى والألعاب، وتخلع عن كتفىّ أجنحة الصبا وتجعلنى أمام الوجود كحوض مياه بين الجبال يعكس بهدوئه المحزن رسوم الأشباح وألوان الغيوم وخطوط الأغصان ولكنه لا يجد ممراً يسير فيه جدولاً مترنماً إلى البحر.

هكذا كانت حياتى قبل أن أبلغ الثامنة عشرة، فتلك السنة هى من ماضىّ بمقام القمة من الجبل، لأنها أوقفتنى متأملاً تجاه هذا العالم، وأرتنى سبل البشر، ومروج أميالهم، وعقبات متاعبهم وكهوف شرائعهم وتقاليدهم.

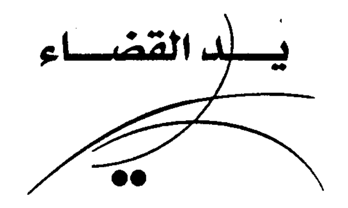
فى تلك السنة ولدت ثانية والمرء إن لم تحبل به الكآبة ويتمحض به اليأس، وتضعه المحبة فى مهد الأحلام، تظل حياته كصفحة خالية بيضاء فى كتاب الكيان.

فى تلك السنة شاهدت ملائكة السماء تنظر إلىّ من وراء أجفان امرأة جميلة، وفيها رأيت أبالسة الجحيم يضجون ويتراكضون فى صدر رجل مجرم، ومن لا يشاهد الملائكة والشياطين فى محاسن الحياة ومكروهاتها يظل قلبه بعيداً عن المعرفة ونفسه فارغة من العواطف.

■■■



يـد القضـاء



كنت فى بيروت فى ربيع تلك السنة المملوءة بالغرائب وكان نيسان قد أنبت الأزهار والأعشاب فظهرت فى بساتين المدينة كأنها أسرار تعلنها الأرض للسماء. وكانت أشجار اللوز والتفاح قد اكتست بحلل بيضاء معطرة فبانت بين المنازل كأنها حوريات بملابس ناصعة قد بعثت بهن الطبيعة عرائس وزوجات لأبناء الشعر والخيال.

الربيع جميل فى كل مكان ولكنه أكثر من جميل فى سوريا. الربيع روح إله غير معروف تتطوف فى الأرض مسرعة. وعندما تبلغ سوريا تسير ببطء متلفتة إلى الوراء مستأنسة بأرواح الملوك والأنبياء الحائمة فى الفضاء. مترنمة مع جداول اليهودية بأناشيد سليمان الخالدة. مرددة مع أرز لبنان تذكارات المجد القديم.

وبيروت فى الربيع أجمل منها فى ما بقى من الفصول. لأنها تخلو فيه من أحوال الشتاء وغبار الصيف وتصبح بين أمطار الأول وحرارة الثانى كصبية حسناء قد اغتسلت بمياه الغدير ثم جلست على ضفته تجفف جسدها بأشعة الشمس.

ففى يوم من تلك الأيام المفعمة بأنفاس نيسان المسكرة وابتساماته المحيية، ذهبت لزيارة صديق يسكن بيتاً بعيداً عن ضجة الاجتماع. وبينما نحن نتحدث راسمين بالكلام خطوط آمالنا وأمانينا دخل علينا شيخ جليل فى الخامسة والستين من عمره تدل ملابسه البسيطة وملامحه المتجعدة على الهيبة والوقار، فوقفت احتراماً وقبيل أن أصافحه مسلماً تقدم صديقى وقال "حضرته فارس أفندى كرامة" ثم لفظ اسمى مشفوعاً بكلمة ثناء، فأحدق بى الشيخ هنيهة لامساً بأطراف أصابعه جبهته العالية

المكللة بشعر أبيض كالثلج كأنه يريد أن يسترجع إلى ذاكرته صورة شىء قديم مفقود، ثم ابتسم ابتسامة سرور وانعطاف واقترب منى قائلاً "أنت ابن صديق حبيب قديم صرفت ربيع العمر برفقته فما أعظم فرحى بمرآك وكم أنا مشتاق إلى لقاء أبيك بشخصك".

فتأثرت لكلامه وشعرت بجاذب خفى يدنينى إليه بطمأنينة، مثلما تقود الغريزة العصفور إلى وكره قبيل مجىء العاصفة. ولما جلسنا أخذ يقص علينا أحاديث صداقته لوالدى متذكراً أيام الشباب التى صرفها بقربه تالياً على مسامعنا أخبار أعوام قضت فكفنها الدهر بقلبه وقبرها فى صدره.. إن الشيوخ يرجعون بالفكر إلى أيام شبابهم رجوع الغريب المشتاق إلى مسقط رأسه ويميل إلى سرد حكايات الصبا ميل الشاعر إلى تنغيم أبلغ قصائده فهم يعيشون بالروح فى زوايا الماضى الغابر لأن الحاضر لا يمر بهم ولا يلتفت والمستقبل يبدو لأعينهم متشحاً بضباب الزوال وظلمة القبر.

وبعد ساعة مرت بين الأحاديث والتذكارات مرور ظل الأغصان على الأعشاب، وقف فارس كرامة للانصراف ولما دنوت منه مودعاً أخذ يدى بيمينه ووضع شماله على كتفى قائلاً: "أنا لم أر والدك منذ عشرين سنة ولكننى أرجو أن أستعيض عن بعاده الطويل بزياراتك الكثيرة".

فانحنيت شاكراً واعداً بتتميم ما يجب على الابن نحو صديق أبيه.

ولما خرج فارس كرامة استزدت صاحبى من أخباره فقال بلهجة يساورها التحذر: "لا أعرف رجلاً سواه فى بيروت قد جعلته الثروة فاضلاً والفضيلة مثرياً. وهو واحد من القليلين الذين يجيئون هذا العالم ويغادرونه قبل أن يلامسوا بالأذى نفس مخلوق - ولكن هؤلاء الرجال يكونون غالباً تعساء مظلومين لأنهم يجهلون سبل الاحتيال التى تنقذهم من مكر الناس وخبثهم. ولفارس كرامة ابنة وحيدة تسكن معه منزلاً فخماً فى ضاحية المدينة وهى تشابهه بالأخلاق وليس بين النساء من يماثلها جمالاً وهى أيضاً ستكون تاعسة لأن ثروة والدها الطائلة توقفها الآن على شفير هاوية مظلمة مخيفة".

لفظ صديقى الكلمات الأخيرة وظهرت على محياه لوائح الغم والأسف ثم زاد قائلاً: "فارس كرامة شيخ شريف القلب كريم الصفات ولكنه ضعيف الإرادة يقوده رياء الناس

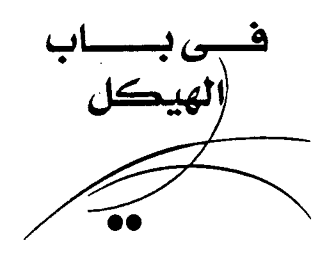
كالأعمى وتوقفه مطامعهم كالأخرس. أما ابنته فتخضع ممتثلة لإرادته الواهنة على رغم كل ما فى روحها الكبيرة من القوى والمواهب وهذا هو السر الكريه الكامن وراء حياة الوالد وابنته. وقد فهم هذا السر رجل يأتلف فى شخصه الطمع بالرياء والخبث بالدهاء. وهذا الرجل هو مطران تسير قبائحه بظل الإنجيل فتظهر للناس كالفضائل. وهو رئيس دين فى بلاد الأديان والمذاهب. تخافه الأرواح والأجساد وتخر لديه ساجدة مثلما تنحنى رقاب الأنعام أمام الجزار. ولهذا المطران ابن أخ تتصارع فى نفسه عناصر المفاسد والمكاره مثلما تتقلب العقارب والأفاعى على جوانب الكهوف والمستنقعات. وليس بعيداً اليوم الذى ينتصب فيه المطران بملابسه الحبرية جاعلاً ابن أخيه عن يمينه وابنة فارس كرامة عن شماله، رافعاً بيده الأثيمة إكليل الزواج فوق رأسيهما مقيداً بسلاسل التكهين والتعزيم جسداً طاهراً بجيفة منتنة، جامعاً فى قبضة الشريعة الفاسدة روحاً سماوية بذات ترابية، واضعاً فى صدر الليل.. هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك الآن عن فارس كرامة وابنته فلا تسلنى أكثر من ذلك لأن ذكر المصيبة يدنيها مثلما يقرب الموت الخوف من الموت".

وحول صديقى وجهه ونظر من النافذة إلى الفضاء كأنه يبحث عن أسرار الأيام والليالى بين دقائق الأثير.

فقمت إذا ذاك من مكانى ولما أخذت يده مودعاً قلت له: "غداً أزور فارس كرامة قياماً بوعدى له واحتراماً للذكريات التى أبقتها صداقته لوالدى".

فبهت بى الشاب دقيقة وقد تغيرت ملامحه كأن كلماتى القليلة البسيطة قد أوحت إليه فكراً جديداً هائلاً، ثم نظر فى عينى نظرة طويلة غريبة - نظرة محبة وشفقة وخوف - نظرة نبى يرى فى أعماق الأرواح ما لا تعرفه الأرواح، ثم ارتعشت شفتاه قليلاً ولكنه لم يقل شيئاً فتركته وسرت نحو الباب بأفكار متضعضعة، وقبيل أن ألتفت إلى الوراء رأيت عينيه ما زالتا تتبعاننى بتلك النظرة الغريبة - تلك النظرة التى لم أفهم معانيها حتى عتقت نفسى من عالم المقاييس والكمية وطارت إلى مسارح الملأ الأعلى حيث تتفاهم القلوب بالنظرات وتنمو الأرواح بالتفاهم.

■ ■ ■



وبعد أيام وقد مللت الوحدة، وتعبت أجفانى من النظر إلى أوجه الكتب العابسة علوت مركبة طالباً منزل فارس كرامة، حتى إذا ما بلغت بى غابة الصنوبر حيث يذهب القوم للتنزه، حول السائق وجهة فرسيه عن الطريق العمومية فسار خبباً على ممر تظلله أشجار الصفصاف وتتمايل على جانبيه الأعشاب والدوالى المتعرشة وأزاهر نيسان المبتسمة بثغور حمراء كالياقوت وزرقاء كالزمرد وصفراء كالذهب.

وبعد دقيقة وقفت المركبة أمام منزل منفرد تحيط به حديقة مترامية الأطراف تتعانق فى جوانبها الأغصان وتعطر فضاءها رائحة الورد والفل والياسمين.

ما سرت بضع خطوات فى تلك الحديقة حتى ظهر فارس كرامة فى باب المنزل خارجاً للقائى كأن هدير المركبة فى تلك البقعة المنفردة قد أعلن له قدومى ـ فهشّ متأهلاً وقادنى مترحباً إلى داخل الدار ونظير والد مشتاق أجلسنى بقربه يحدثنى مستفسراً عن ماضىّ مستطلعاً مقاصدى فى مستقبلى.. فكنت أجيبه بتلك اللهجة المفعمة بنغمة الأحلام والأمانى التى يترنم بها الفتيان قبل أن تقذفهم أمواج الخيال إلى شاطئ العمل حيث الجهاد والنزاع.. للشبيبة أجنحة ذات ريش من الشعر وأعصاب من الأوهام ترتفع بالفتيان إلى ما وراء الغيوم فيرون الكيان مغموراً بأشعة متلونة بألوان قوس القزح ويسمعون الحياة مرتلة أغانى المجد والعظمة، ولكن تلك الأجنحة الشعرية لا تلبث أن تمزقها عواصف الاختبار فيهبطون إلى عالم الحقيقة ـ وعالم الحقيقة مرآة غريبة يرى فيها المرء نفسه مصغرة مشوهة.

فى تلك الدقيقة ظهرت من ستائر الباب المخملية صبية ترتدى ثوباً من الحرير الأبيض الناعم ومشت نحوى ببطء، فوقفت ووقف الشيخ قائلاً: "هذه ابنتى سلمى" وبعد أن لفظ اسمى شفعه بقوله: "إن ذاك الصديق القديم الذى حجبته عنى الأيام قد عادت وأبانته لى بشخص ابنه فأنا أراه الآن ولا أراه" فتقدمت الصبية إلىّ وأحدقت بعينى هنيهة كأنها تريد أن تستنطقهما عن حقيقة أمرى، وتعلم منهما أسباب مجيئى إلى ذلك المكان، ثم أخذت يدى بيد تضارع زنبقة الحقل بياضاً ونعومة، فأحسست عند ملامسة الأكف بعاطفة غريبة جديدة أشبه شىء بالفكر الشعرى عند ابتداء تكوينه فى مخيلة الكاتب.

جلسنا جميعاً ساكتين كأن سلمى قد أدخلت معها إلى تلك الغرفة روحاً علوية توعز الصمت والتهيب، وكأنها شعرت بذلك فالتفتت نحوى وقالت مبتسمة: "كثيراً ما حدثنى والدى عن أبيك معيداً على مسمعى حكايات شبابهما، فإن كان والدك قد أسمعك بتلك الوقائع لا يكون هذا اللقاء هو الأول بيننا".

فسر الشيخ بكلمات ابنته وانبسطت ملامحه ثم قال: "إن سلمى روحية الأميال والمذاهب فهى ترى جميع الأشياء سابحة فى عالم النفس".

وهكذا عاد فارس كرامة إلى محادثتى باهتمام كلى، ورقة متناهية كأنه وجد فىّ سراً سحرياً يرجعه على أجنحة الذكرى إلى ربيع أيامه العابرة.

كان ذلك الشيخ يحدق بى مسترجعاً أشباح شبابه وأنا أتأمله حالماً بمستقبلى. كان ينظر إلى مثلما تخيم أغصان الشجرة العالية المملوءة بمآتى الفصول فوق غرسة صغيرة مفعمة بعزم هاجع وحياة عمياء. شجرة مسنة راسخة الأعراق قد اختبرت صيف العمر وشتاءه ووقفت أمام عواصف الدهر وأنوائه. وغرسة ضعيفة لينة لم تر غير الربيع ولم ترتعش إلا بمرور نسيم الفجر.

أما سلمى فكانت ساكتة تنظر إلى تارة وطوراً إلى أبيها كأنها تقرأ فى وجهينا أول فصل من رواية الحياة وآخر فصل منها.

قضى ذلك النهار متنهداً أنفاسه بين تلك الحدائق والبساتين، وغابت الشمس تاركة خيال قبلة صفراء على قمم لبنان المتعالية قبالة ذلك المنزل، وفارس كرامة يتلو عليّ أخباره فيذهلنى وأنا أترنم أمامه بأغانى شبيبتى فأطربه، وسلمى جالسة بقرب تلك النافذة تنظر إليها بعينيها الحزينتين ولا تتحرك، وتسمع أحاديثنا ولا تتكلم كأنها عرفت أن للجمال لغة سماوية تترفع عن الأصوات والمقاطيع التى تحدثها الشفاه والألسنة. لغة خالدة تضم إليها جميع أنغام البشر، وتجعلها شعوراً صامتاً مثلما تجتذب البحيرة الهادئة أغانى السواقى إلى أعماقها وتجعلها سكوتاً أبدياً. إن الجمال سر تفهمه أرواحنا وتفرح به وتنمو بتأثيراته، أما أفكارنا فتقف أمامه محتارة محاولة تحديده وتجسيده بالألفاظ ولكنها لا تستطيع - هو سيال خاف عن العين يتموج بين عواطف الناظر وحقيقة المنظور. الجمال الحقيقى هو أشعة تنبعث من قدس أقداس النفوس وتنير خارج الجسد مثلما تنبثق الحياة من أعماق النواة وتكسب الزهرة لوناً وعطراً - هو تفاهم كلى بين الرجل والمرأة يتم بلحظة وبلحظة يولد ذلك الميل المترفع عن جميع الأميال. ذلك الانعطاف الروحى ندعوه حباً. فهل فهمت روحى روح سلمى فى عشية النهار فجعلنى التفاهم أن أراها أجمل امرأة أمام الشمس، أم هى سكرة الشبيبة التى تجعلنا نتخيل رسوماً وأشباحاً لا حقيقة لها؟ هل أعمتنى الفتوة فتوهمت الأشعة فى عينى سلمى والحلاوة فى ثغرها والرقة فى قدها، أم هى تلك الأشعة وتلك الحلاوة وتلك الرقة التى فتحت عينى لترينى أفراح الحب وأحزانه؟ لا أدرى ولكنى أعلم بأننى شعرت بعاطفة لم أشعر بها قبل تلك الساعة. عاطفة جديدة تمايلت حول قلبى بهدوء يشابه رفرفة الروح على وجه الغمر قبل أن تبتدئ الدهور. ومن تلك العاطفة قد تولدت سعادتى وتعاستى مثلما ظهرت وتناسخت الكائنات بإرادة ذلك الروح.

هكذا انقضت تلك الساعة التى جمعتنى بسلمى للمرة الأولى وهكذا شاءت السماء وعتقتنى على حين غفلة من عبودية الحيرة والحداثة لأسير حراً فى موكب المحبة، فالمحبة هى الحرية الوحيدة فى هذا العالم لأنها ترفع النفس إلى مقام سام لا تبلغه شرائع البشر وتقاليدهم، ولا تسود عليه نواميس الطبيعة وأحكامها.

ولما وقفت للانصراف اقترب منى فارس كرامة وقال بصوت تعانقه رنة الإخلاص: "الآن وقد عرفت الطريق إلى هذا المنزل يجب أن تأتى إليه شاعراً بالثقة التى تقودك إلى بيت أبيك وأن تحتسبنى وسلمى كوالد وأخت لك ـ أليس كذلك يا سلمى؟"

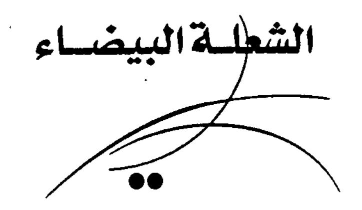
فأحنت سلمى رأسها إيجاباً ثم نظرت إلىّ نظرة غريب ضائع وجد رفيقاً يعرفه.

إن تلك الكلمات التى قالها لى فارس كرامة هى النغمة الأولى التى أوقفتنى بجانب ابنته أمام عرش المحبة. هى استهلال الأغنية السماوية التى انتهت بالندب والرثاء ـ هى القوة التى شجعت روحينا فاقترينا من النور والنار. هى الإناء الذى شربنا فيه الكوثر والعلقم.

وخرجت فشيعنى الشيخ إلى أطراف الحديقة فودعتهما وقلبى يخفق فى داخلى مثلما ترتعش شفتا العطشان بملامسة حافة الكأس

■ ■ ■

الشعلة البيضاء



وانقضى نيسان وأنا أزور منزل فارس كرامة وألتقى بسلمى وأجلس قبالها فى تلك الحديقة متأملاً محاسنها، معجباً بمواهبها، مصغياً لسكينة كآبتها، شاعراً بوجود آياد خفية تجتذبنى إليها. فكل زيارة كانت تبين لى معنى جديداً من معانى جمالها وسراً علوياً من أسرار روحها حتى أصبحت أمام عينىّ كتاباً أقرأ سطوره وأستظهر آياته وأترنم بنغمته ولا أستطيع الوصول إلى نهايته.

إن المرأة التى تمنحها الآلهة جمال النفس مشفوعاً بجمال الجسد هى حقيقة ظاهرة غامضة نفهمها بالمحبة ونلمسها بالطهر، وعندما نحاول وصفها بالكلام تختفى عن بصائرنا وراء ضباب الحيرة والالتباس. وسلمى كرامة كانت جميلة النفس والجسد فكيف أصفها لمن لا يعرفها؟ هل يستطيع الجالس فى ظل أجنحة الموت أن يستحضر تغريدة البلبل وهمس الوردة وتنهدة الغدير؟ أيقدر الأثير المثقل بالقيود أن يلاحق هبوط نسمات الفجر؟ ولكن أليس السكوت أصعب من الكلام؟ وهل يمنعنى التهيب عن إظهار خيال من خيالات سلمى بالألفاظ الواهية إذا كنت لا أستطيع أن أرسم حقيقتها بخطوط من الذهب؟ إن الجائع السائر فى الصحراء لا يأبى أكل الخبز اليابس إذا كانت السماء لا تمطره المن والسلوى.

كانت سلمى نحيلة الجسم تظهر بملابسها البيضاء الحريرية كأشعة قمر دخلت من النافذة. وكانت حركاتها بطيئة متوازنة أشبه شىء بمقاطيع الألحان الأصفهانية، وصوتها منخفضاً حلواً تقطعه التنهدات فينسكب من بين شفتيها القرمزيتين مثلما تتساقط قطرات الندى عن تيجان الزهور بمرور تموجات الهواء. ووجهها ـ ومن يا ترى يستطيع أن يصف وجه سلمى كرامة؟ بأية ألفاظ نقدر أن نصور وجهاً حزيناً هادئاً محجوباً وليس محجوباً

بنقاب من الاصفرار الشفاف؟ بأية لغة نقدر أن نتكلم عن ملامح تعلن فى كل دقيقة سراً من أسرار النفس الكبيرة المتألمة فى داخل الجسد، وتذكر الناظرين إليها بعالم روحى بعيد عن هذا العالم؟ إن الجمال فى وجه سلمى لم يكن منطبقاً على المقاييس التى وضعها البشر للجمال، بل كان غريباً كالحلم أو كالرؤيا أو كفكر علوى لا يقاس ولا يحد ولا يتسخ بريشة المصور، ولا يتجسم برخام الحفار. جمال سلمى لم يكن فى شعرها الذهبى بل فى هالة الطهر المحيطة به. ولم يكن فى عينيها الكبيرتين بل فى النور المنبعث منهما. ولا فى شفتيها الورديتين بل فى الحلاوة السائلة عليهما. ولا فى عنقها العاجى بل فى كيفية انحنائه قليلاً إلى الأمام. جمال سلمى لم يكن فى كمال جسدها بل فى نبالة روحها الشبيهة بشعلة بيضاء متقدة سابحة بين الأرض واللانهاية. جمال سلمى كان نوعاً من النبوغ الشعرى الذى نشاهد أشباحه فى القصائد السامية والرسوم والأنغام الخالدة، وأصحاب النبوغ تعساء مهما تسامت أرواحهم تظل مكتنفة بغلاف من الدموع.. وكانت سلمى كثيرة التفكير قليلة الكلام، ولكن سكوتها كان موسيقياً ينتقل بجليسها إلى مسارح الأحلام البعيدة، ويجعله أن يصغى لنبضات قلبه ويرى خيالات أفكاره وعواطفه منتصبة أمام عينيه.

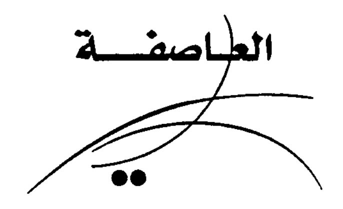
أما الصفة التى كانت تعانق مزايا سلمى وتساور أخلاقها فهى الكآبة العميقة الجارحة، فالكآبة كانت وشاحاً معنوياً ترتديه فتزيد محاسن جسدها هيبة وغرابة، وتظهر أشعة نفسها من خلال خيوطه كخيوط شجرة مزهرة من وراء ضباب الصباح.

وقد أوجدت الكآبة بين روحى وروح سلمى صلة المشابهة فكان كلانا يرى فى وجه الثانى ما يشعر به قلبه ويسمع صوته صدى مخبآت صدره فكأن الآلهة قد جعلت كل واحد منا نصفاً للآخر يلتصق به بالطهر فيصير إنساناً كاملاً، وينفصل عنه فيشعر بنقص موجع فى روحه.

إن النفس الحزينة المتألمة تجد راحة بانضمامها إلى نفس أخرى تماثلها بالشعور وتشاركها بالإحساس مثلما يستأنس الغريب بالغريب فى أرض بعيدة عن وطنيهما - فالقلوب التى تدنيها أوجاع الكآبة بعضها مع بعض لا تفرقها بهجة الأفراح وبهرجتها، فرابطة الحزن أقوى فى النفوس من روابط الغبطة والسرور؛ والحب الذى تغسله العيون بدموعها يظل طاهراً وجميلاً وخالداً.

■■■

العاصفة



وبعد أيام دعانى فارس كرامة إلى تناول العشاء فى منزله، فذهبت ونفسى جائعة إلى ذلك الخبز العلوى الذى وضعته السماء بين يدى سلمى - ذلك الخبز الروحى الذى نلتهمه بأفواه أفئدتنا فتزداد جوعاً - ذلك الخبز السحرى الذى ذاق طعمه قيس العربى ودانتى الطليانى وسافو اليونانية فالتهبت أحشاؤهم وذابت قلوبهم - ذلك الخبز الذى عجنته الآلهة بحلاوة القبل ومرارة الدموع وأعدته مأكلاً للنفوس الحساسة المستيقظة لتفرحها بطعمه وتعذبها بتأثيره.

ولما بلغت المنزل وجدت سلمى جالسة على مقعد خشبى فى زاوية من الحديقة وقد أسندت رأسها إلى عمد شجرة، فبانت بثوبها الأبيض كواحدة من عرائس الخيال تخفر ذلك المكان. فدنوت منها صامتاً وجلست بقربها جلوس مجوسى متهيب أمام النار المقدسة. ولما حاولت الكلام وجدت لسانى منعقداً وشفتى جامدتين فاستأنست بالسكوت لأن الشعور العميق غير المتناهى يفقد شيئاً من خاصته المعنوية عندما يتجسم بالألفاظ المحدودة. ولكننى شعرت بأن سلمى كانت تسمع فى السكينة مناجاة قلبى المتواصلة، وتشاهد فى عينى أشباح نفسى المرتعشة.

وبعد هنيهة خرج فارس كرامة إلى الحديقة ومشى نحونا مرحباً بى كعادته باسطاً يده إلى كأنه يريد أن يبارك بها ذلك السر الخفى الذى يربط روحى بروح ابنته ثم قال مبتسماً (هلما يا ولدىّ إلى العشاء فالطعام ينتظرنا) فقمنا وتبعناه وسلمى تنظر إلى من وراء أجفان مكحولة بالرقة والانعطاف كأن لفظة "يا ولدى" قد أيقظت فى داخلها شعوراً جديداً عذباً يكتنف محبتها لى مثلما تحتضن الأم طفلها.

جلسنا إلى المائدة نأكل ونشرب ونتحدث ـ جلسنا فى تلك الغرفة نتلذذ بألوان الطعام الشهية وأنواع الخمور المعتقة، وأرواحنا تسبح على غير معرفة منا فى عالم بعيد عن هذا العالم، وتحلم بمآتى المستقبل ونتأهب للوقوف أمام مخاوفه وأهواله. ثلاثة أشخاص تختلف أفكارهم باختلاف مقاصدهم من الحياة وتتفق سرائرهم باتفاق قلوبهم بالمودة والمحبة، ثلاثة من الضعفاء الأبرياء يشعرون كثيراً ويعرفون قليلاً وهذه هى المأساة المستتبة على مرسح النفس. شيخ جليل شريف يحب ابنته ولا يحفل بغير سعادتها ـ وصبية فى العشرين من عمرها ترى المستقبل قريباً بعيداً وتحدق به لترى ما يخبئ لها من الغبطة والشقاء ـ وفتى كثير الأحلام والهواجس لم يذق بعد خمر الحياة ولا خلها. يحرك جناحيه ليطير سابحاً فى فضاء المحبة والمعرفة ولكنه لا يستطيع النهوض لضعفه. ثلاثة جالسون حول مائدة أنيقة فى منزل منفرد عن المدينة تخيم عليه سكينة الدجى وتحدق به عيون السماء. ثلاثة يأكلون ويشربون وفى أعماق صحونهم وكؤوسهم قد أخفى القدر المرارة والأشواك.

ولم ننته من العشاء حتى دخلت علينا إحدى الخادمات وخاطبت فارس كرامة قائلة: "فى الباب رجل يطلب مقابلتك يا سيدى".

فسألها بسرعة "من هو هذا الرجل". فأجابت: "أظنه خادم المطران يا سيدى". فسكت دقيقة وأحدق بعينى ابنته نظير نبى ينظر إلى وجه السماء ليرى ما تخبئه من الأسرار. ثم التفت نحو الخادمة وقال "دعيه يدخل".

فعادت الخادمة وبعد هنيهة ظهر رجل بأثواب مزركشة وشارب معكوف الطرفين فسلم منحنياً وخاطب فارس كرامة قائلاً "قد بعثنى سيادة المطران بمركبته الخصوصية لأطلب إليك أن تتكرم بالذهاب إليه فهو يريد أن يباحثك بأمور ذات أهمية".

فانتصب الشيخ وقد تغيرت ملامحه وانحجبت بشاشة وجهه وراء نقاب من التأمل والتفكير ثم اقترب منى وقال بصوت تساوره الرقة والحلاوة "أرجو أن أعود وألقاك هنا، فسلمى ستجد بك مؤنساً يبعد بأحاديثه وحشة الليل، ويزيل بأنغام نفسه تأثير الوحدة والانفراد" ثم التفت نحو ابنته وزاد مبتسماً "أليس كذلك يا سلمى؟".

فأحنت الصبية رأسها وقد توردت وجنتاها قليلاً وبصوت يضارع نغمة الناى رقة قالت "سوف أجهد النفس لكى أجعل ضيفنا مسروراً يا والدى".

وخرج الشيخ مصحوباً بخادم المطران، وظلت سلمى واقفة تنظر من النافذة نحو الطريق حتى اختفت المركبة عن بصرها وراء ستائر الظلام، واضمحل ارتجاج الدواليب بتباعد المسافة وتشرب السكون حرتقة سنابك الخيل ثم جلست قبالتى على مقعد موشى بنسيج من الحرير الأخضر فبانت بأثوابها الناصعة كزنبقة لوت قامتها نسمات الصباح على بساط من الأعشاب.

ومرت دقائق وكلانا صامت حائر مفتكر يترقب الآخر ليبدأ بالكلام. ولكن هل هو الكلام الذى يحدث التفاهم بين الأرواح المتحابة؟ هل هى الأصوات والمقاطيع الخارجة من الشفاه والألسنة التى تقرب بين القلوب والعقول؟ أفلا يوجد شىء أسمى مما تلده الأفواه وأطهر مما تهتز به أوتار الحناجر؟ أليست هى السكينة التى تحمل شعاع النفس إلى النفس وتنقل همس القلب إلى القلب؟

أليست هى السكينة التى تفصلنا عن ذواتنا فنسبح فى فضاء الروح غير المحدود مقتربين من الملأ الأعلى شاعرين بأن أجسادنا لا تفوق السجون الضيقة وهذا العالم لا يمتاز عن المنفى البعيد؟

ونظرت سلمى إلى وقد باحت أجفانها بسرائر نفسها ثم قالت بهدوء سحرى "تعال نخرج إلى الحديقة ونجلس بين الأشجار لنرى القمر طالعاً من وراء الجبل".

فوقفت مطيعاً وقلت ممانعاً "اليس الأفضل أن نبقى ههنا يا سلمى حتى يطلع القمر وينير الحديقة؟ أما الآن فالظلام يحجب الأشجار والأزهار فلا نستطيع أن نرى شيئاً فأجابت "إذا حجب الظلام الأشجار والرياحين عن العين فالظلام لا يحجب الحب عن النفس".

قالت هذه الكلمات بلهجة غريبة ثم حولت عينيها ونظرت نحو النافذة فبقيت أنا صامتاً مفكراً بكلماتها مورداً لكل مقطع معنى راسماً لكل معنى حقيقة. ثم عادت

وأحدقت بى كأنها ندمت على ما قالت فحاولت استرجاع كلماتها من أذنى بسحر أجفانها. ولكن سحر تلك الأجفان لم يسترجع تلك الألفاظ إلا ليعيدها إلى أعماق صدرى أكثر وضوحاً وأشد تأثيراً وليبيقها هناك ملتصقة بقلبى متوجة مع عواطفى إلى آخر الحياة.

كل شىء عظيم وجميل فى هذا العالم يتولد من فكر واحد أو من حاسة واحدة فى داخل الإنسان. كل ما نراه اليوم من أعمال الأجيال الغابرة كان قبل ظهوره فكراً فى عاقلة رجل أو عاطفة لطيفة فى صدر امرأة.. الثورات التى أجرت الدماء كالسواقى وجعلت الحرية تعبد كالآلهة كانت فكراً خيالياً مرتعشاً بين تلافيف دماغ رجل فرد عاش بين ألوف من الرجال. الحروب الموجعة التى ثلت العروش وخربت الممالك كانت خاطراً يتمايل فى رأس رجل واحد. التعاليم السامية التى غيرت مسير الحياة البشرية كانت ميلاً شعرياً فى نفس رجل واحد منفصل بنبوغه عن محيطه. فكر واحد أقام الأهرام وعاطفة واحدة خربت طروادة وخاطر واحد أوجد مجد الإسلام وكلمة واحدة أحرقت مكتبة الإسكندرية.

فكر واحد يجيئك فى سكينة الليل ويسير بك إلى المجد أو إلى الجنون. نظرة واحدة من أطراف أجفان امرأة تجعلك أسعد الناس أو أتعسهم. كلمة واحد تخرج من بين شفتى رجل تصيرك غنياً بعد الفقر أو فقيراً بعد الغنى.. كلمة واحد لفظتها سلمى كرامة فى تلك الليلة الهادئة أوقفتنى بين ماضىّ ومستقبلى وقوف سفينة بين لجة البحار وطبقات الفضاء. كلمة واحدة معنوية قد أيقظتنى من سبات الحداثة والخلو وسارت بأيامى على طريق جديدة إلى مسارح الحب حيث الحياة والموت.

خرجنا إلى الحديقة وسرنا بين الأشجار شاعرين بأصابع النسيم الخفية تلامس وجهينا وقامات الأزهار والأعشاب اللدنة تتمايل بين أقدامنا، حتى إذا ما بلغنا شجرة الياسمين جلسنا صامتين على ذلك المقعد الخشبى نسمع تنفس الطبيعة النائمة ونكشف بحلاوة التنهد خفايا صدرينا أمام عيون السماء الناظرة إلينا من وراء زرقة السماء.

وطلع القمر إذا ذاك من وراء صنين وغمر بنوره تلك الروابى والشواطئ فظهرت القرى على أكتاف الأودية كأنها قد انبثقت من اللاشىء. وبات لبنان جميعه من تحت تلك الأشعة الفضية كأنه فتى متكئ على ساعده تحت نقاب لطيف يخفى أعضاءه ولا يخفيها.

لبنان عند شعراء الغرب مكان خيالى، قد اضمحلت حقيقته بذهاب داود وسليمان والأنبياء مثلما انحجبت جنة عدن بسقوط آدم وحواء. هو لفظة شعرية لا اسم لجبل - لفظة ترمز عن عاطفة فى النفس وتستحضر إلى الفكر رسوم غابات من الأرز يفوح منها العطر والبخور، وأبراج النحاس والرخام تتعالى بالمجد والعظمة، وأسراب من الغزلان تتهادى بين الطلول والأودية، وأنا قد رأيت لبنان فى تلك الليلة مثل فكر شعرى خيالى منتصب كالحلم بين اليقظة واليقظة.

كذا تتغير الأشياء أمام أعيننا بتغيير عواطفنا، وهكذا نتوهم الأشياء متشحة بالسحر والجمال عندما لا يكون السحر والجمال إلا فى نفوسنا.

والتفتت إلىّ سلمى وقد غمر نور القمر وجهها وعنقها ومعصميها فبانت كتمثال من العاج نحتته أصابع متعبد لعشتروت ربة الحسن والمحبة "لماذا لا تتكلم - لماذا لا تحدثنى عن ماضى حياتك؟".

فنظرت إلى عينيها المنيرتين ومثل أخرس فاجأ النطق شفتيه أجبتها قائلاً "ألم تسمعى متكلماً مذ جئت إلى هذا المكان - أو لم تسمعى كل ما قلته مذ خرجنا إلى الحديقة؟ إن نفسك التى تسمع همس الأزهار وأغانى السكينة تستطيع أن تسمع صراخ روحى وضجيج قلبى".

فحجبت وجهها بيديها ثم قالت بصوت متقطع "قد سمعتك. نعم سمعتك.. سمعت صوتاً صارخاً خارجاً من أحشاء الليل وضجة هائلة منبثقة من قلب النهار".

فقلت بسرعة وقد نسيت ماضى حياتى ونسيت كيانى ونسيت كل شىء ولم أعرف سوى سلمى ولا أشعر بغير وجودها "وأنا قد سمعتك يا سلمى - سمعت نغمة عظيمة محيية جارحة تتموج لها دقائق الفضاء وتهتز بارتعاشها أسس الأرض".

فأغمضت سلمى أجفانها وظهر على شفتيها القرمزيتين خيال ابتسامة محزنة ثم همست قائلة "قد عرفت الآن بأنه يوجد شيء أعلى من السماء، وأعمق من البحر، وأقوى من الحياة والموت والزمن. قد عرفت الآن ما لم أكن أعرفه بالأمس ولا أحلم به".

منذ تلك الدقيقة صارت سلمى كرامة أعز من صديق وأقرب من الأخت وأحب من الحبيبة. صارت فكراً سامياً يتبع عاقلتي وعاطفة رقيقة تكتنف قلبي وحلماً جميلاً يجاور نفسي.

ما أجهل الناس الذين يتوهمون أن المحبة تتولد بالمعاشرة الطويلة والمرافقة المستمرة. إن المحبة الحقيقية هي ابنة التفاهم الروحي وإن لم يتم هذا التفاهم بلحظة واحدة لا يتم بعام ولا بجيل كامل.

ورفعت سلمى رأسها ونظرت نحو الأفق البعيد حيث تلتقي خطوط صنين بأذيال الفضاء ثم قالت "لقد كنت لي بالأمس مثل أخ اقترب منه مطمئنة وأجلس بجانبه في ظلال والدي. أما الآن فقد شعرت بوجود أقوى وأعذب من العلاقة الأخوية. قد شعرت بعاطفة غريبة مجردة من كل علاقة. عاطفة قوية عميقة مخيفة لذيذة تملأ قلبي حزناً وفرحاً".

فأجبتها "أليست هذه العاطفة التي نخافها ونرتجف لمرورها في صدورنا جزءاً من الناموس الكلي الذي يسيّر القمر حول الأرض والأرض حول الشمس والشمس وما يحيط بها حول الله؟".

فوضعت يدها على رأسي وغرست أصابعها بشعري وقد تهلل وجهها وترقرقت الدموع في عينيها مثلما تلمع قطرات الندى على أطراف أوراق النرجس ثم قالت "مَن من البشر يصدق حكايتنا - مَن منهم يصدق بأننا في الساعة التي تجيء بين غروب الشمس وطلوع القمر قد قطعنا العقبات واجتزنا المعابر الكائنة بين الشك واليقين. مَن منهم يعتقد بأن نيسان الذي جمعنا لأول مرة هو الشهر الذي أوقفنا في قداس أقداس الحياة؟".

قالت هذه الكلمات ويدها ما برحت على رأسي المنحني ولو تخيرت في تلك الدقيقة لما فضلت تيجان الملوك وأكاليل الغار على تلك اليد الحريرية المتلاعبة بشعري - ثم

أجبتها قائلاً "إن البشر لا يصدقون حكايتنا لأنهم لا يعلمون بأن المحبة هى الزهرة الوحيدة التى تنبت بغير معاونة الفصول. ولكن هل هو نيسان الذى جمعنا لأول مرة وهل هى هذه الساعة التى أوقفتنا فى قدس أقداس الحياة؟ أما جمعت روحينا قبضة الله قبل أن تصيرنا الولادة أسيرى الأيام والليالى؟ إن حياة الإنسان يا سلمى لا تبتدئ فى الرحم كما أنها لا تنتهى أمام القبر، وهذا الفضاء الوسيع المملوء بأشعة القمر والكواكب لا يخلو من الأرواح المتعانقة بالمحبة والنفوس المتضامنة بالتفاهم".

ورفعت سلمى يدها بلطف عن رأسى تاركة بين مغارس الشعر تموجات كهربائية يتلاعب بها نسيم الليل فيزيدها نمواً وحراكاً. فأخذت تلك اليد براحتي نظير متعبد يتبرك بلثم المذبح ووضعتها على شفتى الملتهبتين وقبلتها قبلة طويلة عميقة خرساء تذيب بحرارتها كل ما فى القلب البشرى من الإحساس، وتنبه بعذوبتها كل ما فى النفس الإلهية من الطهر.

ومرت علينا ساعة كل دقيقة منها شغف ومحبة تساورنا سكينة الليل وتغمرنا أشعة القمر وتحيط بنا الأشجار والرياحين حتى إذا ما بلغنا تلك الحالة التى ينسى فيها الإنسان كل شىء سوى حقيقة الحب سمعنا وقع حوافر وهدير مركبة تقترب منا مسرعة فانتبهنا من تلك الغيبوبة اللذيذة وهبطت بنا اليقظة من عالم الأحلام إلى هذا العالم الواقف بمسيره بين الحيرة والشقاء فعرفنا بأن الوالد الشيخ قد عاد من دار المطران فنهضنا وسرنا بين الأشجار ننتظر وصوله.

وبلغت المركبة مدخل الحديقة فترجل فارس كرامة وسار نحونا منحنى الرأس بطىء الحركة ونظير متعب رازح تحت حمل ثقيل تقدم نحو سلمى ووضع كلتا يديه على كتفيها وأحدق بوجهها طويلاً كأنه يخاف أن تغيب صورتها عن عينيه الضئيلتين. ثم انسكبت دموعه على وجنتيه المتجعدتين وارتجفت شفتاه بابتسامة محزنة وقال بصوت مخنوق "عما قريب يا سلمى، عما قريب تخرجين من بين ذراعى والدك إلى ذراع رجل آخر. عما قريب تسير بك سنة الله من هذا المنزل المفرد إلى ساحة العالم الوسيع فتصبح هذه الحديقة مشتاقة إلى وطء قدميك ويصير والدك غريباً عنك، لقد لفظ القدر كلمته يا سلمى فلتباركك السماء وتحرسك".

سمعت سلمى هذه الكلمات فتغيرت ملامحها وجمدت عيناها كأنها رأت شبح الموت منتصباً أمامها. ثم شهقت وتململت متوجعة كعصفور رماه الصياد فهبط على الحضيض مرتجفاً بآلامه - وبصوت تقطعه الغصات العميقة صرخت قائلة "ماذا تقول؟ ماذا تعنى؟ إلى أين تريد أن تبعث بى؟".

ثم شخصت به كأنها تريد أن تزيل بنظراتها الغلاف عن مخبآت صدره. وبعد دقيقة مثقلة بعوامل ذلك السكون الشبيه بصراخ القبور قالت متأوهة "قد فهمت الآن... قد عرفت كل شىء... إن المطران قد فرغ من حبك قضبان القفص الذى أعده لهذا الطائر المكسور الجناحين فهل هذه هى إرادتك يا والدى؟".

فلم يجبها بغير التنهدات العميقة ثم أدخلها الدار وأشعة الحنو تنسكب من ملامحه المضطربة. فبقيت أنا واقفاً بين الأشجار والحيرة تتلاعب بعواطفى مثلما تتلاعب العواصف بأوراق الخريف. ثم اتبعتهما إلى القاعة - وكى لا أظهر بمظهر طفيلى يميل إلى استطلاع الخصوصيات أخذت يد الشيخ مودعاً ونظرت إلى سلمى نظرة غريق تلفت نحو نجم لامع فى قبة الفلك. ثم خرجت دون أن يشعروا بخروجى ولكننى ما بلغت أطراف الحديقة حتى سمعت صوت الشيخ منادياً فالتفت وإذا به يتبعنى فعدت إلى لقائه، ولما دنوت منه أمسك بيدى، وقال بصوت مرتعش "سامحنى يا بنى فقد جعلت ختام ليلتك مكتنفاً بالدموع، ولكنك سوف تجىء إلىّ دائماً - أليس كذلك. الا تزورنى عندما يصير هذا المكان خالياً إلا من الشيخوخة المحزنة؟ إن الشباب الغض لا يستأنس بالشيخوخة الذابلة كما أن الصباح لا يلتقى المساء - أما أنت فسوف تجىء إلىّ لتذكرنى بأيام الصبا التى صرفتها بقرب أبيك، وتعيد على مسمعى أخبار الحياة التى لم تعد تحسبنى من أبنائها.. أليس كذلك؟ الا تزورنى عندما تذهب سلمى، وأصبح وحيداً منفرداً فى هذا المنزل البعيد عن المنازل؟".

لفظ الكلمات الأخيرة بصوت منخفض متقطع، ولما أخذت يده وهززتها صامتاً أحسست بقطرات الدموع السخينة قد تساقطت على يدى من أجفانه، فارتعشت نفسى فى داخلى وشعرت نحوه بعاطفة بنوية عذبة محزنة تتمايل بين ضلوعى وتتصاعد

كاللهاث إلى شفتى ثم تعود كالغصات إلى أعماق قلبى - ولما رفعت رأسى ورأى أن دموعه قد استدرت الدموع من أجفانى انحنى قليلاً ولمس بشفتيه المرتجفتين أعالى جبهتى، ثم قال محولاً وجهه نحو باب المنزل "مساء الخير.. مساء الخير يا بنى".

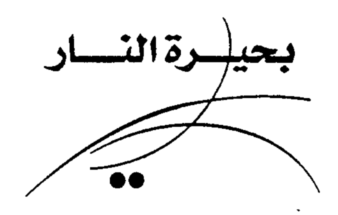
إن دمعة واحدة تتلمع عن وجنة شيخ متجعدة لهى أشد تأثيراً فى النفس من كل ما تهرقه أجفان الفتيان.

إن دموع الشباب الغزيرة هى مما يفيض من جوانب القلوب المترعة. أما دموع الشيوخ فهى من فضلات العمر تنسكب من الأحداق. هى بقية الحياة فى الأجساد الواهنة، الدموع فى أجفان الشبيبة كقطرات الندى على أوراق الوردة. أما الدموع على وجنة الشيخوخة فأشبه بأوراق الخريف المصفرة التى تنثرها الأرياح وتذريها عندما يقترب شتاء الحياة.

واختفى فارس كرامة وراء مصارع الباب وخرجت أنا من تلك الحديقة وصوت سلمى يتموج فى أذنى وجمالها يسير كالخيال أمام عينى ودموع والدها تجف ببطء على يدى. خرجت من ذلك المكان خروج آدم من الفردوس ولكن حواء هذا القلب لم تكن بجانبى لتجعل العالم كله فردوساً.. خرجت شاعراً بأن تلك الليلة التى ولدت فيها ثانية هى الليلة التى لمحت فيها وجه الموت لأول مرة.

■ ■ ■

بحيـــرة النــــار



كل ما يفعله الإنسان سراً فى ظلمة الليل يظهره الإنسان علناً فى نور النهار. الكلمات التى تهمسها شفاهنا فى السكينة تصير على غير معرفة منا حديثاً عمومياً. الأعمال التى نحاول اليوم إخفاءها فى زاويا المنازل تتجسم غداً، وتنتصب فى منعطفات الشوارع. كذا أعلنت أشباح الدجى مقاصد المطران بولس غالب من اجتماعه بفارس كرامة، وهكذا حملت دقائق الأثير أقواله وأحاديثه إلى أحياء المدينة التى بلغت مسمعى.

ما طلب المطران بولس غالب مقابلة فارس كرامة فى تلك الليلة المقمرة ليفاوضه بشؤون الفقراء والمعوزين أو يخابره بأمور الأرامل والأيتام، بل أحضره بمركبته الخصوصية الفخمة ليطلب منه ابنته سلمى عروساً لابن أخيه منصور بك غالب.

كان فارس كرامة رجلاً غنياً ولم يكن له وريث سوى ابنته سلمى، وقد اختارها المطران زوجة لابن أخيه لا لجمال وجهها ونبالة روحها بل لأنها غنية موسرة تكفل بأموالها الطائلة مستقبل منصور بك، وتساعده بأملاكها الوسيعة على إيجاد مقام رفيع بين الخاصة والأشراف.

إن رؤساء الدين فى الشرق لا يكتفون بما يحصلون عليه من المجد والسؤدد بل يفعلون كل ما فى وسعهم ليجعلوا أنسباءهم فى مقدمة الشعب ومن المستبدين به والمستدرين قواه وأمواله، إن مجد الأمير ينتقل بالإرث إلى ابنه البكر بعد موته أما مجد الرئيس الدينى فينتقل بالعدوى إلى الإخوة وأبناء الأخوة فى حياته، وهكذا يصبح الإنسان كأفاعى البحر التى تقبض على الفريسة بمقابض كثيرة وتمتص دماءها بأفواه عديدة.

عندما طلب المطران بولس يد سلمى من والدها لم يجبه ذلك الشيخ بغير السكوت العميق والدموع السخينة، وأى والد لا يشق عليه فراق ابنته حتى ولو كانت ذاهبة إلى بيت جاره أو إلى قصر ملك، أى رجل لا ترتعش أعماق نفسه بالغصات عندما يفصله ناموس الطبيعة عن الابنة التى لاعبها طفلة وهذبها صبية ورافقها امرأة. إن كآبة الوالدين لزواج الابنة تضارع فرحهم بزواج الابن لأن هذا يكسب العائلة عضواً جديداً أما ذاك فيسلبها عضواً قديماً عزيزاً.

أجاب الشيخ طلب المطران مضطراً وانحنى أمام مشيئته قهراً عما فى نفسه من الممانعة وكان قد اجتمع بابن أخيه منصور بك وسمع الناس يتحدثون عنه فعرف خشونته وطمعه وانحطاط أخلاقه، لكن أى مسيحى يقدر أن يقاوم أسقفاً فى سوريا ويبقى محسوباً بين المؤمنين؟ أى رجل يخرج عن طائعة رئيس دينه فى الشرق ويظل كريماً بين الناس؟ أتعاند العين سهماً ولا تفقد أو تناضل اليد سيفاً ولا تقطع؟ وهب أن ذلك الشيخ كان قادراً على مخالفة المطران بولس والوقوف أمام مطامعه فهل تكون سمعة ابنته فى مأمن من الظنون والتأويل، وهل يظل اسمها نقياً من أوساخ الشفاه والألسنة؟ أو ليست جميع العناقيد العالية حامضة فى شرع بنات آوى.

هكذا قبض القدر على سلمى وقادها عبدة ذليلة فى موكب النساء الشرقيات التاعسات. وهكذا سقطت تلك الروح النبيلة بالحبائل بينما كانت تسبح لأول مرة على أجنحة الحب البيضاء فى فضاء تملؤه أشعة القمر وتعطره رائحة الأزاهر.

إن أموال الآباء تكون فى أكثر المواطن مجلبة لشقاء البنين. تلك الخزائن الوسيعة التى يملؤها نشاط الوالد وحرص الأم تتقلب حبوساً ضيقة مظلمة لنفوس الورثة. ذلك الإله العظيم الذى يعبده الناس بشكل الدينار ينقلب شيطاناً يعذب النفوس ويميت القلوب. وسلمى كرامة هى كالكثيرات من بنات جنسها اللواتى يذهبن ضحية ثروة الوالد وأمانى العريس. فلو لم يكن فارس كرامة رجلاً غنياً لكانت سلمى اليوم حية تفرح مثلنا بنور الشمس.

مـر أسبـوع وحب سلمى يجـالسنى فـى المساء منشداً على مـسـمـعى أغـانى السـعـادة وينبهنى عند الفجر ليرينى معانى الحياة وأسرار الكيـان. حب علوى لا يعرف الحسد لأنه غنى ولا يوجع الجسد لأنـه فـى داخل الروح. مـيل قوى يغـمـر النفس بالقناعـة، مـجـاعـة عميقة تملأ القلب بالاكتفاء. عاطفـة تولد الشوق ولكنها لا تثيره، فتون جعلنى أرى الأرض نعيماً والعمر حلماً جميلاً. فكنت أسير صباحاً فى الحقول وأرى فى يقظة الطبيعة رمز الخلود، وأجلس على شاطئ البحـر وأسمع من أمواجه أغانى الأبدية وأمشى فى شوارع المدينة وأجد فى طلعات العابرين وحركات المشتغلين محاسن الحياة وبهجة العمران.

تلك الأيام مـضت كـالأشبـاح واضـمـحلت كـالضـبـاب ولم يبق لى منهـا سـوى الذكـرى الأليمة ـ فالعين التى كنت أرى بها جمال الـربيع ويقظة الحقول لم تعد تحدق بغير غضب العواطف ويأس الشتاء. والأذن التى كنت أسمـع بها أغنية الأمواج لم تعد تصغى لغير أنة الأعماق وعويل الهاوية. والنفس التى كانت تقف متهيبة أمام نشاط البشر ومجد العمران لم تعد تشعر بغير شقاء الفقـراء وتعاسـة السـاقطين. فمـا أحلى أيام الحب ومـا أعـذب أحلامها، ومـا أمرّ ليالى الحزن وما أكثـر مخاوفها. وفى نهاية الأسبوع وقد سكرت نفسى بخمرة عواطفى سرت مسـاء إلى منزل سلمى كرامـة ـ ذلك الهيكل الذى أقـامه الجمـال وقدسه الحب لتسجد فيه النفس مصلية ويركع القلب خاشعاً ـ ولما بلغته ودخلت إلى تلك الحديقـة الهادئة أحسست بـوجـود قـوة تستـهـوينى وتستـميلنى وتبعدنـى عن هذا العـالم وتدنينى ببطء إلى عـالم سحـرى خال من العـراك والجهاد، ومثل متصوف جذبته السماء إلى مسارح الرؤيا وجدتنى سائراً بين تلك الأشجار المحتبكة والزهور المتعانقة، حتى إذا مـا اقـتـربت من باب الدار التـفت وإذا سلمـى جـالسـة على ذلك المقـعـد بظـلال شـجـرة اليـاسـمـين حيث جلسنـا منذ أسبوع فى تلك الليلة التى اختـارتهـا الآلهـة من بين الليـالى وجعلتهـا بدء سعـادتى وشقـائى ـ فدنوت منها صـامتاً فلم تحترك ولم تتكلم كأنهـا علمت بقدومى قبل قـدومى، ولما جلست بجـانبـهـا أحدقت بعينـىّ دقيقـة وتنهدت تـنـهـدة طويلة عـميقـة ثم عادت ونظرت إلى الشـفق البـعيد حيث تعبث أوائل الليل بأواخـر النهار، وبعـد هنيهة مملوءة بتلك السكينة السحريـة التى تضم نفوسنا إلى مواكب الأرواح غير المنظورة،

حولت سلمى وجهها نحوى وأخذت يدى بيد مرتعشة باردة، وبصوت يشابه تأوه جائع لا يقوى على الكلام قالت "أنظر إلى وجهى يا صديقى، أنظر إلى وجهى جيداً وتأمله طويلاً واقرأ فيه كل ما تريد أن تفهمه منى بالكلام... أنظر إلى وجهى يا حبيبى... أنظر جيداً يا أخى...".

فنظرت إلى وجهها - نظرت طويلاً فرأيت تلك الأجفان التى كانت منذ أيام قليلة تبتسم كالشفاه وتحترك كأجنحة الشحرور قد غارت وجمدت واكتحلت بخيالات التوجع والألم. رأيت تلك البشرة التى كانت بالأمس ثنايا الزنبقة البيضاء الفرحة بقبلات الشمس قد اصفرت وذبلت وتبرقعت بنقاط القنوط. رأيت الشفتين اللتين كانتا كزهرة أقاح تسيل عليهما الحلاوة قد يبستا وصارتا كوردتين مرتجفتين أبقاهما الخريف على طرف الغصن، رأيت العنق الذى كان مرفوعاً كعمود العاج قد انحنى إلى الأمام كأنه لم يعد قادراً على حمل ما يجول فى تلافيف الرأس.

رأيت هذه الانقلابات الموجعة فى ملامح سلمى: - رأيتها جميعها، ولكنها لم تكن فى نظرى إلا كسحابة رقيقة توشح القمر فتزيد منظره حسناً وهيبة. إن الملامح التى تبيح أسرار الذات المعنوية تكسب الوجه جمالاً وملاحة مهما كانت تلك الأسرار موجعة وأليمة. أما الوجوه التى لا تتكلم بصمتها عن غوامض النفس وخفاياها فلا تكون جميلة مهما كانت متناسقة الخطوط متناسقة الأعضاء. إن الكؤوس لا تستميل شفاهنا حتى يشف بلورها عن لون الخمر، فسلمى كرامة كانت فى عشية ذلك النهار كأس طافحة من خمرة علوية تمتزج بدقائقها مرارة العيش بحلاوة النفس - كانت تمثل على غير معرفة منها حياة المرأة الشرقية التى لا تغادر منزل والدها المحبوب إلا لتضع عنقها تحت نير زوجها الخشن. ولا تترك ذراعى أمها الرؤوف إلا لتعيش فى عبودية والدة زوجها القاسية.

وبقيت محدقاً بوجه سلمى مصغياً لأنفاسها المتقطعة صامتاً مفكراً، شاعراً متألماً معها ولها، حتى أحسست أن الزمن قد وقف عن مسيره والوجود قد انحجب واضمحل ولم أعد أرى سوى عينين كبيرتين محدقتين بأعماقى، ولا أشعر بغير يد باردة مرتعشة

تضم يدى، ولم أفق من هذه الغيبوبة حتى سمعت سلمى تقول بهدوء "تعال نتحدث الآن يا صديقى. تعال نحاول تصوير المستقبل قبل أم يحمل علينا بمخاوفه وأهواله. لقد ذهب والدى إلى منزل الرجل الذى سيكون رفيقاً لى حتى القبر ـ قد ذهب الرجل الذى اختارته السماء سبباً لوجودى ليلتقى بالرجل الذى انتقته الأرض سيداً على أيامى الآتية، ففى قلب هذه المدينة يجتمع الآن الشيخ الذى رافق شبيبتى بالشاب الذى سيرافق ما بقى لى من السنين، وفى هذه الليلة يتفق الوالد والخطيب على يوم القران الذى سيكون قريباً مهما جعلاه بعيداً فما أغرب هذه الساعة وما أشد تأثيرها... فى مثل هذه الليلة من الأسبوع الغابر، وفى ظلال هذه الياسمينة قد عانق الحب روحى لأول مرة بينما كان القدر يخط أول كلمة من حكاية مستقبلى فى دار المطران بولس غالب. وفى هذه الساعة وقد جلس والدى وخطيبى ليضفرا إكليل زواجى أراك جالساً بجانبى وأشعر بنفسك متموجة حولى كطائر ظامئ يحوم مرفرفاً فوق ينبوع ماء يخفره ثعبان جائع مخيف فما أظلم هذه الليلة وما أعمق أسرارها".

فأجبتها وقد تخيلت القنوط شبحاً مظلماً قابضاً على عنق حبنا ليميته فى طفولته "سيظل هذا الطائر حائما مرفرفاً فوق الينبوع حتى يضنيه العطش فيرديه أو يقبض عليه الثعبان المخيف فيمزقه ويلتهمه".

فقالت متأثرة وصوتها يرتجف كالأوتار الفضية "لا. لا يا صديقى فليبق هذا الطائر حياً. ليبق هذا البلبل مغرداً حتى المساء، حتى ينتهى الربيع، حتى ينتهى العالم، حتى تنتهى الدهور لا تخرصه لأن صوته يحيينى ولا توقف جناحيه لأن حفيفهما يزيل الضباب عن قلبى".

فهمست متنهداً "الظمأ يقتله يا سلمى والخوف يميته".

فأجابت والكلام يتدفق بسرعة من بين شفتيها المرتعشتين "إن ظمأ الروح أعذب من ارتواء المادة وخوف النفس أحب من طمأنينة الجسد. ولكن اسمع يا حبيبى ـ اسمعنى جيداً ـ أنا واقفة الآن فى باب حياة جديدة لا أعرف عنها شيئاً. أنا مثل عمياء تتلمس

بيدها الجدران مخافة السقوط. أنا جارية أنزلنى مال والدى إلى ساحة النخاسين فابتاعنى رجل من بين الرجال. أنا لا أحب هذا الرجل لأننى أجهله وأنت تعلم أن المحبة والجهالة لا تلتقيان ولكننى سوف أتعلم محبته، سوف أطيعه وأخدمه وأجعله سعيداً سوف أهبه كل ما تقدر المرأة الضعيفة أن تهب الرجل القوى، أما أنت فلم تزل فى ربيع العمر. أمامك الحياة طريقاً وسيعة مفروشة بالأزهار والرياحين، سوف تخرج إلى ساحة العالم حاملاً قلبك مشعلاً متقداً، سوف تفتكر بحرية، وبحرية تتكلم وتفعل سوف تكتب على وجه الحياة لأنك رجل، سوف تعيش سيداً لأن فاقة والدك لا تجعلك عبداً، وأمواله لا تنزل بك إلى سوق النخاسين حيث تباع البنات وتشترى، سوف تقترن بالصبية التى تختارها لنفسك من بين الصبايا فتسكنها صدرك قبل أن تسكنها منزلك وتشاركها بأفكارك قبل أن تساهمها الأيام والليالى.

وسكتت دقيقة كيما تسترجع أنفاسها ثم زادت بصوت تتابعه الغصات " ولكن أههنا تفرقنا سبل الحياة لتذهب بك إلى أمجاد الرجل وتسير بى إلى واجبات المرأة؟ أهكذا ينقضى الحلم الجميل وتتدثر الحقيقة العذبة؟ أهكذا تبتلع اللجة نغمة الشحرور وتنثر الرياح أوراق الوردة وتسحق الأقدام كأس الخمر؟ أباطلاً أوقفتنا تلك الليلة أمام وجه القمر وباطلاً ضمنا الروح فى ظلال هذه الياسمينة؟ هل تسرعنا بالصعود نحو الكواكب فكلت أجنحتنا وهبطت بنا إلى الهاوية؟ هل فاجأنا الحب نائماً فاستيقظ غاضباً ليعاقبنا أم هيجت أنفسنا نسمات الليل فانقلبت ريحاً شديدة لتمزقنا وتجرفنا كالغبار إلى أعماق الوادى؟ لم نخالف وصية ولم نذق ثمراً فكيف نخرج من هذه الجنة - لم نتآمر ولم نتمرد فلماذا نهبط إلى الجحيم.. لا لا وألف لا ولا. إن الدقائق التى جمعتنا هى أعظم من الأجيال، والشعاع الذى أنار نفسينا هو أقوى من الظلام، فإن فرقتنا العاصفة على وجه هذا البحر الغضوب فالأمواج تجمعنا على ذلك الشاطئ الهادئ وإن قتلتنا هذه الحياة فذاك الموت يحيينا .... إن قلب المرأة لا يتغير من الزمن ولا يتحول مع الفصول، قلب المرأة ينازع طويلاً ولكنه لا يموت، قلب المرأة يشابه البرية التى يتخذها الإنسان ساحة لحروبه ومذابحه، فهو يقتلع أشجارها ويحرق أعشابها ويلطخ صخورها بالدماء ويغرس

تربتها بالعظام والجماجم ولكنها تبقى هادئة ساكنة مطمئنة، ويظل فيه الربيع ربيعاً والخريف خريفاً إلى نهاية الدهور... والآن قد قضى الأمر فماذا نفعل؟ قل ماذا نفعل وكيف نفترق وأين ومتى نلتقى؟ هل نحسب الحب ضيفاً غريباً أتى المساء وأبعده الصباح، أتحسب هذه العاطفة النفسية حلماً أبانه الكرى ثم أخفته اليقظة؟ أتحسب هذا الأسبوع ساعة سكر ما لبثت أن قضت بالصحو والانتباه؟ ارفع رأسك لأرى عينيك يا حبيبى. افتح شفتيك لأسمع صوتك. تكلم أخبرنى، حدثنى هل تذكرنى بعد أن تغرق العاصفة سفينتى أيامنا؟ هل تسمع حفيف أجنحتى فى سكينة الليل؟ هل تشعر بأنفاسى متموجة على وجهك وعنقك؟ هل تصغى لتنهداتى متصاعدة بالتوجع منخفضة بالمغصات؟ هل ترى خيالى قادماً مع خيالات الظلام مضمحلاً مع ضباب الصباح؟ قل لى يا حبيبى - قل لى ماذا تكون لى بعد أن كنت نوراً لعينى ونغمة لأذنى وجناحاً لروحى، ماذا تكون؟".

فأجبتها وحبات قلبى تذوب فى عينى "سأكون يا سلمى مثلما تريديننى أن أكون".

فقالت "أريدك أن تحبنى، أريد أن تحبنى إلى نهاية أيامى. أريدك أن تحبنى مثلما يحب الشاعر أفكاره المحزنة، أريدك أن تذكرنى مثلما يذكر المسافر حوض ماء هادئ رأى فيه خيال وجهه قبل أن يشرب من مائه، وأريدك أن تذكرنى مثلما تذكر الأم جنيناً مات فى أحشائها قبل أن يرى النور. وأريدك أن تفتكر بى مثلما يفكر الحاكم الرؤوف بسجين مات قبل أن يبلغه عفوه، أريدك أن تكون لى أخاً وصديقاً ورفيقاً وأريدك أن تزور والدى فى وحدته وتعزيه فى انفراده لأننى عما قريب سأتركه وأصير غريبة عنه".

فأجبتها "سأفعل كل ذلك يا سلمى، سوف أجعل روحى غلافاً لروحك وقلبى بيتاً لجمالك وصدرى قبراً لأحزانك. سوف أحبك يا سلمى محبة الحقول للربيع وسوف أحيى بك حياة الأزاهر بحرارة الشمس، سوف أترنم باسمك مثلما يترنم الوادى بصدى رنين الأجراس المتمايلة فوق كنائس القرى؛ سأذكرك يا سلمى مثلما يذكر الغريب المستوحش وطنه المحبوب، والفقير الجائع مائدة الطعام الشهية، والملك المخلوع أيام عزه ومجده والأسير الكئيب ساعات الحرية والطمأنينة، سوف أفتكر بك مثلما يفكر الزارع بأغمار السنابل وغلة البيادر، والراعى الصالح بالمروج الخضراء والمناهل العذبة".

كنت أتكلم وسلمى تنظر إلى أعماق الليل وتتأوه بين الآونة والأخرى ونبضات قلبها تتسارع وتتهامل كأنها أمواج بحربين صعود وهبوط، ثم قالت "غداً تصير الحقيقة خيالاً واليقظة حلماً فهل يكتفى المشتاق بعناق الخيال ويرتوى الظمآن من جداول الأحلام".

فأجبتها قائلاً "غداً يسير بك القدر إلى أحضان العائلة المملوءة بالراحة والهدوء. ويسير بى إلى ساحة العالم حيث الجهاد والقتال. أنت إلى منزل يسعد بجمالك وطهر نفسك. وأنا إلى مكامن أيام تعذبنى بأحزانها وتخيفنى بأشباحها. أنت إلى الحياة وأنا إلى النزاع. أنت إلى الأنس والألفة وأنا إلى الوحشة والانفراد. ولكننى سأرفع فى وادى ظل الموت تمثالاً للحب وأعبده. سأتخذ الحب سميراً وأسمعه منشداً وأشربه خمراً وألبسه ثوباً. عند الفجر سينبهنى الحب من رقادى ويسير أمامى إلى البرية البعيدة. وعند الظهيرة سيقودنى إلى ظل الأشجار فأربض مع العصافير المحتمية من حرارة الشمس. وفى المساء سيوقفنى أمام المغرب ويسمعنى نغمة وداع الطبيعة للنور ويرينى أشباح السكينة سابحة فى الفضاء. وفى الليل سيعانقنى فأنام حالماً بالعوالم العلوية حيث تقطن أرواح العشاق والشعراء. وفى الربيع سأمشى والحب جنباً لجنب مترنمين بين التلول والمنحدرات متبعين آثار أقدام الحياة المخططة بالبنفسج والأقحوان، شاربين بقايا الأمطار بكؤوس النرجس والزنبق. وفى الصيف سأتكئ والحب ساندين رأسينا إلى أغمار القش مفترشين الأعشاب ملتحفين السماء ساهرين مع القمر والنجوم. وفى الخريف سأذهب والحب إلى الكروم فنجلس بقرب المعاصر ناظرين إلى الأشجار وهى تخلع أثوابها المذهبة متأملين بأسرار الطيور الراحلة إلى ساحل. وفى الشتاء سأجلس والحب بقرب المواقد نحكى حكايات الأجيال مرددين أخبار الأمم والشعوب وفى أيام الشبيبة سيكون لى الحب مهذباً وفى الكهولة عضداً وفى الشيخوخة مؤنساً، سيظل معى يا سلمى إلى نهاية العمر، إلى أن يجيء الموت، إلى أن تجمعنى بك قبضة الله".

كانت الألفاظ تتصاعد مسرعة من أعماق نفسى كأنها شعلات من نار تنمو وتتطاير ثم تتبدد وتضمحل فى زوايا تلك الحقيقة، وكانت سلمى مصغية والدموع تنهمر من عينيها كأن أجفانها شفاء تجيبنى بالدموع على الكلام.

إن اللذين لم يهبهم الحب أجنحة لا يستطيعون أن يطيروا إلى ما وراء الغيوم ليروا ذلك العالم السحرى الذى طافت فيه روحى وروح سلمى فى تلك الساعة المحزنة بأفراحها المفرحة بأوجاعها. إن اللذين لم يتخذهم الحب أتباعاً لا يسمعون الحب متكلماً. فهذه الحكاية لم تكتب لهم، فهم وإن فهموا معانى هذه الصفحات الضئيلة لا يمكنهم أن يروا ما يسيل بين سطورها من الأشباح والخيالات التى لا تلبس الحبر ثوباً ولا تتخذ الورق مسكناً. ولكن أى بشرى لم يرشف من خمرة الحب فى إحدى كاساته؟ أية نفس لم تقف متهيبة فى ذلك الهيكل المنير المرصوف بحبات القلوب المسقوف بالأسرار والأحلام والعواطف؟ أى زهرة لم يسكب الصباح قطرة من الندى بين أوراقها، وأى ساقية تضل طريقها ولا تذهب إلى البحر؟

ورفعت سلمى إذا ذاك رأسها نحو السماء المزينة بالكواكب ومدت يديها إلى الأمام وكبرت عيناها وارتجفت شفتاها وظهر على وجهها المصفر كل ما فى نفس المرأة المظلومة من الشكوى والقنوط والألم. ثم صرخت قائلة: "ماذا فعلت المرأة يا رب فاستحقت غضبك. ماذا أتت من الذنوب ليتبعها سخطك إلى آخر الدهور. هل اقترفت جرماً لا نهاية لفظاظته ليكون عقابك لها بغير نهاية؟ أنت قوى يا رب وهى ضعيفة فلماذا تبيدها بالأوجاع؟ أنت عظيم وهى تدب حول عرشك فلماذا تسحقها بقدميك؟ أنت عاصفة شديدة وهى كالغبار أمام وجهك فلماذا تذريها على الثلوج؟ أنت جبار وهى بائسة فلماذا تحاربها؟ أنت بصير عليم وهى تائهة عمياء فلماذا تهلكها؟ أنت توجدها بالمحبة فكيف بالمحبة تفنيها؟ بيمينك ترفعها إليك وبشمالك تدفعها إلى الهاوية وهى جاهلة لا تدرى أنّى ترفعها وكيف تدفعها. فى فمها نسمة الحياة وفى قلبها تزرع بذور الموت. على سبل السعادة تسيرها راجلة ثم تبعث الشقاء فارساً ليصطادها. فى حنجرتها تبث نغمة الفرح ثم تغلق شفتيها بالحزن وتربط لسانها بالكآبة. بأصابعك الخفية تمنطق باللذة أوجاعها وبأصابعك الظاهرة ترتسم هالات الأوجاع حول ملذاتها، فى مضجعها تخفى الراحة والسلامة وبجانب مضجعها تقيم المخاوف والمتاعب. بإرادتك تحيى أميالها ومن أميالها تتولد عيوبها وذلاتها، بمشيئتك تريها محاسن مخلوقاتك وبمشيئتك تنقلب محبتها للحسن مجاعة مهلكة، بشريعتك تزوج روحها من جسد جميل وبقضائك تجعل جسدها

بعلا للضعف والهوان.. أنت تسقيها الحياة بكأس الموت والموت بكأس الحياة. أنت تطهرها بدموعها وبدموعها تذيبها. أنت تملأ جوفها من خبز الرجل ثم تملأ حفنة الرجل من حبات صدرها. أنت أنت يا رب قد فتحت عينى بالمحبة وبالمحبة أعميتنى. أنت قبلتنى بشفتيك وبيدك القوية صفعتنى. أنت زرعت فى قلبى وردة بيضاء وحول هذه الوردة أنبت الأشواك والحسك، أنت أوثقت حاضرى بروح فتى أحبه وبجسد رجل لا أعرفه قيدت أيامى، فساعدنى لأكون قوية فى هذا الصراع المميت، وأسعفنى لأبقى أمينة وطاهرة حتى الموت.. لتكن مشيئتك يا رب. ليكن اسمك مباركاً إلى النهاية".

وسكتت سلمى وظلت ملامحها تتكلم، ثم أحنت رأسها وأرخت ذراعيها وانخفض هيكلها كأن القوى الحيوية قد تركتها فبانت لناظرى كغصن قصفته العاصفة وألقته إلى الحضيض ليجف ويندثر تحت أقدام الدهر. فأخذت يدها المثلجة بيدى الملتهبة وقبلت أصابعها بأجفانى وشفتى، ولما حاولت تعزيتها بالكلام وجدتنى أحرى منها بالتعزية والشفقة فبقيت صامتاً حائراً متأملاً شاعراً بتلاعب الدقائق بعواطفى مصغياً لأنة قلبى فى داخلى خائفاً من نفسى على نفسى.

ولم ينبس أحدنا ببنت شفة فى ما بقى من تلك الليلة لأن اللوعة إذا عظمت تصير خرساء فبقينا ساكتين جامدين كعمودى رخام قبرهما الزلزال فى التراب، ولم يعد أحدنا يريد أن يسمع الآخر متكلماً لأن خيوط قلبينا قد وهت حتى صار التنهد دون الكلام يقطعها.

انتصف الليل ونمت رهبة السكوت وطلع القمر ناقصاً من وراء صنين وبان بين النجوم كوجه ميت شاحب غارق فى المساند السوداء بين شموع ضئيلة تحيط بنعشه، وظهر لبنان كشيخ لوت ظهره الأعوام وأناخت هيكله الأحزان وهجر أجفانه الرقاد فبات يساهى الدجى ويترقب الفجر كملك مخلوع جالس على رماد عرشه بين خرائب قصره. إن الجبال والأشجار والأنهار تتبدد هيئاتها ومظاهرها بتقلب الحالات والأزمنة مثلما تتغير ملامح وجه الإنسان بتغيير أفكاره وعواطفه، فشجرة الحور التى تتعالى فى النهار كعروس جميلة يلاعب النسيم أثوابها تظهر فى المساء كعمود دخان يتصاعد نحو اللاشىء، والصخر الكبير الذى يجلس عند الظهيرة كجبار قوى يهزأ بعاديات الزمن

يبدوا فى الليل كفقير بائس يفترش الثرى ويلتحف الفضاء، والساقية التى نراها عند الصباح متلمعة كذوب اللجين ونسمعها مترنمة بأغنية الخلود نخالها فى المساء مجرى دموع يتفجر من بين أضلع الوادى ونسمعها تندب وتنوح كالثكلى، ولبنان الذى ظهر منذ أسبوع بكل مظاهر الجلال والرونق عندما كان القمر بدراً والنفس راضية قد بان فى تلك الليلة كئيباً منهوكاً مستوحشاً أمام قمر ضئيل ناقص هائم فى عرض السماء وقلب خافق معتل داخل صدر.

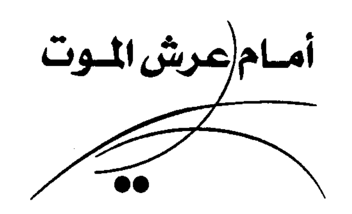
وقفنا للوداع وقد وقف بيننا الحب واليأس شبحين هائلين هذا باسط جناحية فوق رأسينا وذاك قابض بأظافره على عنقينا هذا يبكى مرتاعاً وذاك يضحك ساخراً؛ ولما أخذت يد سلمى ووضعتها على شفتى متبركاً دنت منى ولثمت مفرق شعرى ثم عادت وارتمت على المقعد الخشبى وأطبقت جفنها وهمست ببطء "أشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة المتكسرة".

انفصلت عن سلمى وخرجت من تلك الحديقة شاعراً بنقاب كثيف يوشى مداركى الحسية مثلما يغمر الضباب وجه البحيرة وسرت وخيالات الأشجار القائمة على جانبى الطريق تتحرك أمامى كأنها أشباح قد انبثقت من شقوق الأرض لتخيفنى وأشعة القمر الضعيفة ترتعش بين الغصون كأنها سهام دقيقة تريشها أرواح الجان السابحة فى الفضاء نحو صدرى، السكينة العميقة تخيم على كأنها أكف سوداء ثقيلة ألقتها الظلمة على جسدى. كل ما فى الوجود وكل ما فى الحياة وكل سر فى النفس قد صار قبيحاً رهيباً هائلاً، فالنور المعنوى الذى أرانى جمال العالم وبهجة الكائنات قد انقلب ناراً تحرق كبدى بلهيبها متستر نفسى بدخانها. والنغمة التى كانت تضم إليها أصوات المخلوقات وتجعلها نشيداً علوياً قد استحالت فى تلك الساعة إلى ضجيج أروع من زمجرة الأسد وأعمق من صراخ الهاوية.

بلغت غرفتى وارتميت على فراشى كطائر رماه الصياد فسقط بين السياج والسهم فى قلبه. وظلت عاقلتى تتروح بين يقظة مخيفة ونوم مزعج وروحى فى داخلى تردد فى الحالتين كلمات سلمى "أشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة المتكسرة".

■■■

أمام عرش الموت



إنما الزيجة فى أيامنا هذه تجارة مضحكة مبكية يتولى أمورها الفتيان وآباء الصبايا، الفتيان يربحون فى أكثر المواطن والآباء يخسرون دائماً، أما الصبايا المتنقلات كالسلع من منزل إلى آخر فتزول بهجتهن ونظير الأمتعة العتيقة يصير نصيبهن زاويا حيث الظلمة والفناء البطىء.

إن المدينة الحاضرة قد أنمت مدارك المرأة قليلاً ولكنها أكثرت أوجاعها بتعميم مطامع الرجل، كانت المرأة بالأمس خادمة سعيدة فصارت اليوم سيدة تعيسة، كانت بالأمس عمياء تسير فى نور النهار فأصبحت مبصرة تسير فى ظلمة الليل. كانت جميلة بجهلها فاضلة ببساطتها قوية بضعفها فصارت قبيحة بتفننها سطحية بمداركها بعيدة عن القلب بمعارفها، فهل يجىء يوم يجتمع فى المرأة الجمال بالمعرفة والتفنن بالفضيلة وضعف الجسد بقوة النفس؟ أنا من القائلين إن الارتقاء الروحى سنّة فى البشر والتقرب من الكمال شريعة بطيئة لكنها فعالة، فإذا كانت المرأة قد ارتقت بشىء وتأخرت بشىء آخر فلأن العقبات التى تبلغنا قمة الجبل لا تخلو من مكامن اللصوص وكهوف الذئاب؛ ففى هذا الجبل الشبيه بالغيبوبة التى تتقدم اليقظة ـ فى هذا الجبل القابض بكفيه على تراب الأجيال الغابرة وبذور الأجيال الآتية ـ فى هذا الجبل الغريب بأمياله وأمانيه لا تخلو مدينة من امرأة ترمز بوجودها عن ابنة المستقبل، وسلمى كرامة كانت فى بيروت رمز المرأة الشرقية العتيدة، ولكنها كالكثيرين الذين يعيشون قبل زمانهم قد ذهبت ضحية الزمن الحاضر ونظير زهرة اختطفتها تيار النهر قد سارت قهراً فى مركب الحياة نحو الشقاء.

وتزوج منصور بك من سلمى فسكنا معاً فى منزل فخم قائم على شاطئ البحر فى رأس بيروت حيث يقطن وجهاء القوم والأغنياء، وبقى فارس كرامة وحده فى ذلك البيت المنفرد بين الحدائق والبساتين انفراد الراعى بين أغنامه، ومضت أيام العرس وانقضت ليالى الأفراح ومر الشهر الذى يدعوه الناس عسلاً تاركاً وراءه شهور الخل والعلقم مثلما تترك أمجاد الحروب جماجم القتلى فى البرية البعيدة، إن بهرجة الأعراس الشرقية تصعد بنفوس الفتيان والصبايا صعود النسر إلى ما وراء الغيوم ثم تهبط بهم هبوط حجر الرحى إلى أعماق اليم، بل هى مثل آثار الأقدام على رمال الشاطئ لا تلبث أن تمحوها الأمواج.

وذهب الربيع وتلاه الصيف وجاء الخريف ومحبتى لسلمى تتدرج من شغف فتى فى صباح العمر بامرأة حسناء إلى نوع من تلك العبادة الخرساء التى يشعر بها الصبى اليتيم نحو روح أمه الساكنة فى الأبدية، فالصبابة التى كانت تمتلك كليتى قد تحولت إلى كآبة عمياء لا ترى غير نفسها. والولع الذى كان يستدر الدموع من عينى قد انقلب ولهاً يستقطر الدم من قلبى. وأنه الحنين التى كانت تملأ ضلوعى أصبحت صلاة عميقة تقدمها روحى فى السكينة أمام السماء مستمدة السعادة لسلمى والغبطة لبعلها والطمأنينة لولدها، ولكن باطلاً كنت أشفق وأبتهل وأصلى لأن تعاسة سلمى كانت علة فى داخل النفس لا يشفيها سوى الموت، أما بعلها فكان من أولئك الرجال الذين يحصلون بغير تعب على كل ما يجعل الحياة هنيئة ولا يقنعون بل ويطمحون دائماً إلى ما ليس لهم وهكذا يظلون معذبين بمطامعهم إلى نهاية أيامهم؛ وباطلاً كنت أرجو الطمأنينة لفارس كرامة لأن صهره لم يستلم يد ابنته ويحصل على أموالها حتى نسيه وهجره بل صار يطلب حتفه توصيلاً إلى ما بقى من ثروته.

كان منصور بك شبيهاً بعمه المطران بولس غالب وكانت أخلاقه ونفسه صورة مصغرة لنفسه ولم يكن الفرق بينهما إلا بما يفرق الرياء عن الانحطاط، كان المطران يبلغ أمانيه مستتراً بأثوابه البنفسجية ويشبع مطامعه محتمياً بالصليب الذهبى المعلق على صدره، أما ابن أخيه فكان يفعل كل ذلك جهراً وعنوة. كان المطران يذهب إلى الكنيسة فى

الصباح ويصرف ما بقى من النهار منتزعاً الأموال من الأرامل واليتامى وبسطاء القلب، أما منصور بك فكان يقضى النهار كله متبعاً ملذاته ملاحقاً شهواته فى تلك الأزقة المظلمة حيث يختمر الهواء بأنفاس الفساد، كان المطران يقف يوم الأحد أمام المذبح ويعظ المؤمنين بما لا يتعظ به ويصرف أيام الأسبوع مشتغلاً بسياسة البلاد. أما ابن أخيه فكان يصرف جميع أيامه متاجراً بنفوذ عمه بين طالبى الوظائف ومريدى الوجاهة. كان المطران يسير مختبئاً بستائر الليل، أما منصور بك فكان يمشى بشجاعة فى نور النهار.

كذا تبيد الشعوب بين اللصوص والمحتالين مثلما تفنى القطعان بين أنياب الذئاب وقواطع الجزارين، وهكذا تستسلم الأمم إلى ذوى النفوس المعوجة والأخلاق الفاسدة فتتراجع إلى الوراء ثم تهبط إلى الحضيض فيمر الدهر ويسحقها بأقدامه مثلما تسحق مطارق الحديد آنية الفخار...

وماذا يا ترى يجعلنى الآن أن أشغل هذه الصفحات بالكلام عن أمم بائسة يائسة وأنا قد خصصتها لتدوين حكاية امرأة تاعسة وتصوير خيالات قلب وجيع لم يلمسه الحب بأفراحه حتى صفعه بأحزانه؟ لماذا تراود الدموع أجفانى لذكر شعوب خاملة ومظلومة وأنا قد وقفت دموعى على ذكرى أيام امرأة ضعيفة لم تعانق الحياة حتى احتضنها الموت ولكن أليست المرأة الضعيفة هى رمز الأمة المظلومة؟ أليست المرأة المتوجعة بين أميال نفسها وقيود جسدها هى كالأمة المتعذبة بين حكامها وكهانها. أوليست العواطف الخفية التى تذهب بالصبية الجميلة إلى ظلمة القبر هى كالعواطف الشديدة التى تغمر حياة الشعوب بالتراب؟ إن المرأة من الأمة بمنزلة الشعاع من السراج وهل يكون شعاع السراج ضئيلاً إذا لم يكن زيته شحيحاً.

مضت أيام الخريف وعرت الرياح الأشجار متلاعبة بأوراقها الصفراء مثلما تداعب الأنواء زبد البحر، وجاء الشتاء باكياً وأنا فى بيروت ولا رفيق لى سوى أحلام تتصاعد بنفسى تارة فتبلغها الكواكب وتنخفض بقلبى طوراً فتلحده بجوف الأرض.

إن النفس الكئيبة تجد راحة بالعزلة والانفراد فتهجر الناس مثلما يبتعد الغزال الجريح عن سربه ويتوارى فى كهفه حتى يبرأ أو يموت...

ففى ذات يوم سمعت باعتلال فارس كرامة، تركت وحدتى وذهبت لعيادته ماشياً على ممر منفرد بين أشجار الزيتون المتلمعة أوراقها الرصاصية بقطرات المطر، متنحياً عن الطريق العمومية حيث تزعج ضجة المركبات سكينة الفضاء.

بلغت منزل الشيخ ودخلت عليه فوجدته ملقى على فراشه مضنى الجسد، شاحب الوجه أصفر اللون، وقد غرقت عيناه تحت حاجبيه فباتتا كهوتين عميقتين مظلمتين تجول فيهما أشباح السقم والألم، فالملامح التى كانت بالأمس عنوان البشاشة والانبساط قد تقلصت واكفهرت وأصبحت كصحيفة رمادية متجعدة تكتب عليها العلة سطوراً غريبة ملتبسة. واليدان اللتان كانتا مغلفتين باللطف واللدانة قد نحلتا حتى بدت عظام أصابعهما من تحت الجلد كقضبان عارية ترتعش أمام العاصفة.

ولما دنوت منه سائلاً عن حاله، حوّل وجهه المهزول نحوى وظهر على شفتيه المرتجفتين خيال ابتسامة محزنة، وبصوت ضعيف خافت خلته آتياً من وراء الجدران قال "اذهب - اذهب يا بنى إلى تلك الغرفة وامسح دموع سلمى وسكّن روعها ثم عد بها إلىّ لتجلس بجانب فراشى".

دخلت الغرفة المحاذية فوجدت سلمى منطرحة على مقعد وقد غمرت رأسها بزنديها وأغرقت وجهها بالمساند وأمسكت أنفاسها كيلا يسمع والدها نحيبها، فاقتربت منها ببطء ولفظت اسمها بصوت أقرب إلى التنهد منه إلى الهمس فاحتركت مضطربة ونظرت إلى بعينين شاخصتين جامدتين كأنها رأت شبحاً فى عالم الرؤيا ولا تصدق حقيقة وجودى فى ذلك المكان.

وبعد سكوت عميق أرجعنا بتأثراته السحرية إلى تلك الساعات التى سكرنا فيها من خمرة الآلهة مسحت سلمى دموعاً بأطراف بنانها وقالت متحسرة "أرأيت كيف تبدلت الأيام؟ أرأيت كيف أضلنا الدهر فسرنا مسرعين إلى هذه الكهوف المفزعة؟ فى هذا

المكان جمعنا الربيع فى قبضة الحب وفى هذا المكان يجعلنا الآن الشتاء أمام عرش الموت فما أبهى ذلك النهار وما أشد ظلمة هذا الليل".

قالت هذه الكلمات وقد ابتلعت الغصات أواخرها ثم عادت وسترت وجهها بيديها كأن ذكرى الماضى قد تجسدت ووقفت أمامها فلم تشأ أن تراها، فوضعت يدى على شعرها قائلاً "تعالى يا سلمى - تعالى ننتصب كالأبراج أمام الزوبعة. هلمى نقف كالجنود أمام الأعداء متلقين شفار السيوف بصدورنا لا بظهورنا. فإن صرعنا نموت كالشهداء وإن تغلبنا نعيش كالأبطال... إن عذاب النفس بثبات أمام المصاعب والمتاعب لهو أشرف من تقهقرها إلى حيث الأمن والطمأنينة فالفراشة التى تظل مرفرفة حول السراج حتى تحترق هى أسمى من الخلد الذى يعيش براحة وسلامة فى نفقه المظلم. والنواة التى لا تحتمل برد الشتاء وثورات العناصر لا تقوى على شق الأرض ولن تفرح بجمال نيسان... هلمى نسير يا سلمى بقدم ثابتة على هذه الطريق الوعرة رافعين أعيننا نحو الشمس كيلا نرى الجماجم المطروحة بين الصخور، والأفاعى المنسابة بين الأشواك، فإن أوقفنا الخوف فى منتصف الطريق أسمعتنا أشباح الليل صراخ الاستهزاء والسخرية، وإن بلغنا قمة الجبل بشجاعة فترنم معنا أرواح الفضاء بأنشودة النصر والاستظهار. خففى عنك يا سلمى وجففى دموعك واخفى هذه الكآبة الظاهرة على محياك وقومى نجلس بجانب فراش والدك لأن حياته من حياتك وشفاءه بابتسامتك.

فنظرت إلىّ نظرة ملؤها الحنان والرأفة والانعطاف ثم قالت "أتطلب منى الصبر والتجلد وفى عينيك معنى اليأس والقنوط؟ أيعطى الفقير الجائع خبزه إلى الجائع الفقير أو يصف العليل دواء لعليل آخر وهو أحرى بالدواء؟".

ثم وقفت وسارت أمامى منحنية الرأس إلى غرفة والدها.

جلسنا أمام مضجع الشيخ العليل وسلمى تتكلف الابتسام وهدوء البال وهو يتكلف الراحة والقوة، وكل منهما شاعر بلوعة الآخر عالم بضعفه سامع غصات قلبه. فكانا مثل قوتين متضارعتين تفنيان بعضهم بعضاً فى السكينة، والد دنف يذوب ضنى لتعاسة ابنته

وابنة محبة متوجعة بعد [illegible] نفس راحلة ونفس يائسة تتعانقان أمام الحب والموت وأنا بينهما أتحمل ما بى وأقاسى ما بهما؛ ثلاثة جمعتهم يد القضاء ثم قبضت عليهم بشدة حتى سحقتهم؛ شيخ يمثل بيتاً قديماً هدمه الطوفان وصبية تحاكى زنبقة قطع عنقها حد المنجل، وفتى يشابه غرسة ضعيفة لوت قامتها الثلوج، وجميعنا مثل ألعوبة بين أصابع الدهر.

وتحرك الشيخ إذا ذاك بين اللحف ومد يده النحيلة نحو سلمى وبصوت أودعه كل ما فى قلب الأب من الرقة والرأفة وكل ما فى صدر العليل من السقم والألم قال: "ضعى يدك فى يدى يا سلمى".

فمدت يدها وألقتها بين أصابعه فضمها بلطف ثم زاد قائلاً "لقد شبعت من السنين يا ولدى. قد عشت طويلاً وتلذذت بكل ما تثمره الفصول وتمتعت بكل ما تبرزه الأيام والليالى. قد لاحقت الفراش صبياً وعانقت الحب فتىً وجمعت المال كهلاً وكنت فى هذه الأدوار سعيداً مغبوطاً... فقدت أمك يا سلمى قبل أن تبلغى الثالثة ولكنها أبقتك لى كنزاً ثميناً فكنت تنمين بسرعة نمو الهلال، وتنعكس على وجهك ملامح أمك مثلما تنعكس أشعة النجوم فى حوض ماء هادئ، وتظهر أخلاقها ومزاياها بأعمالك وأقوالك ظهور الحلى الذهبية من وراء النقاب الرقيق، فتعزيت بك يا ولدى لأنك كنت مثلها جميلة وحكيمة... والآن قد صرت شيخاً طاعناً وراحة الشيوخ بين أجنحة الموت الناعمة، فتعزى يا ولدى لأننى بقيت لأراك امرأة كاملة وافرحى لأنى سأبقى بك حياً بعد موتى. إن ذهابى الآن مثل ذهابى غداً أو بعده، لأن أيامنا مثل أوراق الخريف تتساقط وتتبدد أمام وجه الشمس، فإن أسرعت بى إلى الأبدية فلأنها علمت بأن روحى قد اشتاقت إلى لقاء أمك..".

لفظ الكلمات الأخيرة بنغمة مفعمة بحلاوة الحنين والرجاء ولاحت على وجهه المنقبض أشعة شبيهة بذلك النور الذى ينبثق من أجفان الأطفال. ثم مد يده بين المساند المحيطة برأسه وانتشل صورة صغيرة قديمة يمنطقها إطار من الذهب قد نعمت حدوده ملامس الأيدى ومحت نقوشه قبل الشفاه. ثم قال بدون أن يحول عينيه عن الرسم

"اقتربى يا سلمى اقتربى منى يا ولدى لأريك خيال أمك، تعالى وانظرى ظلها على صفحة من الورق".

فدنت سلمى ماسحة الدموع من مقلتيها كيلا تحول بين ناظرها والرسم الضئيل، وبعد أن أحدقت به طويلاً كأنه مرآة تعكس معانيها وشكل وجهها، قربته من شفتيها وقبلته بلهفة مراراً متوالية ثم صرخت قائلة "يا أماه، يا أماه، يا أماه" ولم تزد على هذه الكلمة بل عادت ووضعت الرسم على شفتيها المرتعشتين كأنها تريد أن تثبت فيه الحياة بأنفاسها الحارة.

إن أعذب ما تحدثه الشفاه البشرية هو لفظة (الأم) وأجمل مناداة هى (يا أمى) كلمة صغيرة كبيرة مملوءة بالأمل والحب والانعطاف وكل ما فى القلب البشرى من الرقة والحلاوة والعذوبة. الأم هى كل شىء فى هذه الحياة، هى التعزية فى الحزن، والرجاء فى اليأس، والقوة فى الضعف، هى ينبوع الحنو والرافة والشفقة والغفران، فالذى يفقد أمه يفقد صدراً يسند إليه رأسه ويداً تباركه وعيناً تحرسه.

كل شىء يرمز ويتكلم عن الأمومة فالشمس هى أم هذه الأرض ترضعها حرارتها وتحضنها بنورها ولا تغادرها عند المساء إلا بعد أن تنومها على نغمات أمواج البحر وترنيمة العصافير والسواقى، وهذه الأرض هى أم للأشجار والأزهار تلدها وترضعها ثم تفطمها والأشجار والأزهار تصير بدورها أمهات حنونات للأثمار الشهية والبذور الحية. وأم كل شىء فى الكيان هو الروح الكلية الأزلية الأبدية المملوءة بالجمال والمحبة.

وسلمى كرامة لم تكن تعرف أمها لأنها ماتت وهى طفلة وقد شهقت متأثرة عندما رأت رسمها ونادتها "يا أماه" أسرت إرادتها لأن لفظة الأم تختبئ فى قلوبنا مثلما تختبئ النواة فى قلب الأرض وتنبثق من بين شفاهنا فى ساعات الحزن والفرح كما يتصاعد العطر من قلب الوردة فى الفضاء الصافى الممطر.

كانت سلمى تحدق برسم أمها ثم تقبله بلهفة ثم تلزه صدرها الخفوق ثم تتأوه متنهدة ومع كل تنهدة تفقد جزءاً من قواها حتى إذا ماوهت الحياة فى جسدها النحيل هوت

وسقطت بجانب سرير أبيها. فوضع كلتا يديه على رأسها قائلاً "قد أريتك يا ولدى شبح أمك على صفحة من الورق فاصغى إلى لآسمعك أقوالها".

فرفعت سلمى رأسها مثلما تفعل الفراخ فى العش عندما تسمع حفيف أجنحة العصفورة بين القضبان، ونظرت إليه مصغية صاغرة كأن ذاتها المعنوية قد استحالت إلى أعين محدقة وآذان واعية.

فقال والدها "كنت طفلة رضيعة عندما فقدت أمك والدها الشيخ فحزنت لفقده وبكت بكاء حكيم متجلد ولكنها لم تعد من جانب قبره حتى جلست بجانبى فى هذه الغرفة وأخذت يدى براحتيها وقالت (قد مات والدى يا فارس وأنت باقى لى وهذه هى تعزيتى. إن القلب بعواطفه المتشبعة يماثل الأرزة بأغصانها المتفرقة فإذا ما فقدت شجرة الأرز غصناً قوياً تتألم ولكنها لا تموت بل تحوّل قواها الحيوية إلى الغصن المجاور لينمو ويتعالى ويملأ بفروعه الغضة مكان الغصن المقطوع). هذا ما قالته والدتك يا سلمى عندما مات أبوها وهذا ما يجب عليك أن تقوليه عندما يأخذ الموت جسدى إلى راحة القبر وروحى إلى ظل الله".

فأجابت سلمى متفجعة "فقدت أمى والدها فبقيت أنت لها فمن يبقى لى إذا فقدتك يا والدى؟ مات والدها وهى فى ظلال زوج محب فاضل أمين - مات والدها فبقيت لها طفلة تغمر رأسها الصغير بثدييها وتطوق عنقها بذراعيها فمن يبقى لى إذا فقدتك يا والدى؟ أنت أبى وأمى ورفيق حداثتى ومهذب شبيبتى فبمن أستعيض إذا ما ذهبت عنى؟".

قالت هذا وحولت عينيها الدامعتين نحوى وأمسكت بيمينها طرف ثوبى وقالت "ليس لى غير هذا الصديق يا والدى ولن يبقى لى سواه إذا ما تركتنى. فهل أتعزى به وهو متعذب مثلى؟ هل يتعزى كسير القلب بالقلب الكسير؟ إن الحزينة لا تتصبر بحزن جارتها كما أن الحمامة لا تطير بأجنحة مكسورة.. هو رفيق لنفسى ولكننى قد أثقلت عاتقه بأشجانى حتى لويت ظهره وسملت عينيه بعبراتى فلم يعد يرى غير الظلمة. هو أخ أحبه

ويحبنى مثل جميع الأخوة يشترك بالمصيبة ولا يخففها ويساعد بالبكاء فيزيد الدمع مرارة والقلب احتراقاً".

كنت أسمع سلمى متكلمة وعواطفى تنمو وصدرى يضيق حتى شعرت بأن أضلعى تكاد تتفجر حناجر وفوهات. أما الشيخ فكان ينظر إليها وجسده المهزول يهبط ببطء بين الوسائد والمساند ونفسه المتعبة ترتجف كشعلة السراج أمام الريح. ثم بسط ذراعيه وقال بهدوء "دعينى أذهب بسلام يا ولدى. لقد لمحت عيناى ما وراء الغيوم فلن أحولهما نحو هذه الكهوف.. دعينى أطير فقد كسرت بأجنحتى قضبان هذا القفص. لقد نادتنى أمك يا سلمى فلا توقفينى.. ها قد طاب الريح وتبدد الضباب عن وجه البحر فرفعت السفينة شراعها وتأهبت للمسير فلا توقيفها ولا تنزعى دفتها.. دعى جسدى يرقد مع الذين رقدوا، ودعى روحى تستيقظ لأن الفجر قد لاح والحلم قد انتهى.. قبلينى قبلة رجاء وأمل.. ولا تسكبى قطرة من مرارة الحزن على جسدى لئلا تمنع الأعشاب والأزهار عن امتصاص عناصره.. ولا تذرفى دموع اليأس على يدى لأنها تنبت شوكاً على قبرى. ولا ترسمى بزفرات الأسى سطراً على جبهتى لأن نسيم البحر يمر ويقرؤه فلا يحمل غبار عظامى إلى المروج الخضراء... قد أحببتك بالحياة يا ولدى وسوف أحبك بالموت فتظل روحى قريبة منك لتحميك وترعاك".

والتفت الشيخ إلىّ وقد انطبقت أجفانه قليلاً فلم أعد أرى سوى خطين رماديين مكان عينيه ثم قال وسكينة الفناء تسترق ألفاظه "أما أنت يا بنى فكن أخاً لسلمى مثلما كان والدك لى. كن قريباً منها فى ساعات الشدة وكن صديقاً لها حتى النهاية. ولا تدعها تحزن لأن الحزن على الأموات غلطة من غلطات الأجيال العابرة. بل أتل على مسمعيها أحاديث الفرح وأنشدها أغانى الحياة فتسلوا وتتناسى.. قل لأبيك أن يذكرنى.. سله فيخبرك عن مآتى أيامى عندما كان الشباب يحلق بنا الغيوم.. فقل له إننى أحببته بشخص ابنه فى آخر ساعة من حياتى..".

وسكت دقيقة وظلت أشباح ألفاظه تدب على جدران الغرفة ثم عاد فنظر إلى وإلى سلمى بوقت واحد وقال همساً "لا تدعوا طبيباً ليطيل بمساحيقه ساعات سجنى لأن أيام

العبودية قد مضت فطلبت روحى حرية الفضاء... ولا تدعوا كاهناً إلى جانب فراشى لأن "تعازيمه" لا تكفر عنى ذنوبى إن كنت خاطئاً ولا تسرع بى إلى الجنة إن كنت باراً... إن إرادة البشر لا تغير مشيئة الله كما أن المنجمين لا يحولون مسير النجوم... أما بعد الموت فليفعل الأطباء والكهان ما شاؤوا فاللجة تنادى اللجة أما السفينة فتظل سائرة حتى تبلغ الساحل..".

عندما انتصف الليل المخيف فتح فارس كرامة عينيه الغارقتين فى ظلمة النزاع - فتحها لآخر مرة - وحولهما نحو ابنته الجاثية بجانب مضجعه، ثم حاول الكلام فلم يستطع لأن الموت كان قد تشرب صوته فخرجت هذه الألفاظ لهاثاً عميقاً من بين شفتيه "ها قد ذهب الليل.. وجاء الصباح.. يا سلمى.. يا.. سلمى..".

ثم نكس رأسه وابيضّ وجهه وابتسمت شفتاه واسلم الروح.

ومدت سلمى يدها ولمست يد والدها فوجدتها باردة كالثلج فرفعت رأسها ونظرت إليه فرأت وجهه مبرقعاً بنقاب الموت فجمدت الحياة فى جسدها وجفت الدموع فى محاجرها فلم تتحرك ولم تصرخ ولم تتأوه بل بقيت محدقة به بعينين جامدتين كعينى التمثال، ثم تراخت أعضاؤها مثلما تتراخى طيات الثوب البليل، وهبطت حتى لمست جبهتها الأرض ثم قالت بهدوء "أشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة المتكسرة".

مات فارس كرامة وعانقت الأبدية روحه واسترجع التراب جسده واستولى منصور بك على أمواله وظلت ابنته أسيرة تعاستها ترى الحياة مأساة تمثلها المخاوف أمام عينيها.

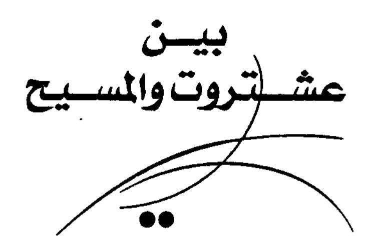
أما أنا فكنت ضائعاً بين أحلامى وهواجسى، تتناوبنى الأيام والليالى مثلما تتناوب النسور والعقبان لحم الفريسة، فكم حاولت أن أفقد ذاتى بين صفحات الكتب لعلنى استأنس بخيالات الذين طواهم الدهر، وكم جربت أن أنسى حاضرى لأعود بقراءة الأسفار إلى مسارح الأجيال الغابرة فلم يجدنى كل ذلك نفعاً بل كنت كمن يحاول إخماد النار بالزيت، لأننى لم أكن أرى من مواكب سوى أشباحها السوداء ولا أسمع من أنغام الأمم غير الندب والنواح، فسفر أيوب كان عندى أجمل من مزامير داود، ومراثى أرميا

كان أحب لدى من نشيد سليمان ونكبة البرامكة أشد وقعاً فى نفسى من عظمة العباسيين وقصيدة ابن زريق تأثيراً من رباعيات الخيام ورواية هملت أقرب إلى قلبى من كل ما كتبه الإفرنج.

كذا يضعف القنوط بصيرتنا فلا نرى غير أشباحنا الرهيبة وهكذا يصم اليأس آذاننا فلا نسمع غير طرقات قلوبنا المضطربة.

■■■

بين عشتروت والمسيح



بين تلك البساتين والتلول التى تصل أطراف بيروت بأذيال لبنان يوجد معبد صغير قديم محفور فى قلب صخرة بيضاء قائمة بين أشجار الزيتون واللوز والصفصاف ومع أن هذا المعبد لا يبعد أكثر من نصف ميل عن طريق المركبات فقد قل من عرفه من محبى الآثار والخرائب القديمة، فكأن الإهمال قد أبقاه محجوباً عن عيون الآثريين ليجعله خلوة لنفوس المتعبين ومزاراً للمحبين والمستوحشين.

والداخل إلى هذا المعبد العجيب يرى على الجدار الشرقى منه صورة فينيقية الشواهد والبيئات محفورة فى الصخر قد محت أصابع الدهر بعض خطوطها ولونت الفصول معالمها. وهى تمثل عشتروت ربة الحب والجمال جالسة على عرش فخم ومن حولها ٧ عذارى عاريات واقفات بهيئات مختلفة، فالواحدة منهن تحمل مشعالاً والثانية قيثارة والثالثة مبخرة والرابعة جرة من الخمر والخامسة غصناً من الورد والسادسة إكليلاً من الغار والسابعة قوساً وسهاماً وجميعهن ناظرات إلى عشتروت وعلى وجوههن سيماء الخضوع والامتثال.

وعلى الجدار الثانى صورة أخرى أحدث عهداً وأكثر ظهوراً تمثل يسوع الناصرى مصلوباً وإلى جانبه أمه الحزينة مريم المجدلية وامرأتان ثانيتان تنتحبان. وهذه الصورة البيزنطية الأسلوب والقرائن تدل على كونها حفرت فى القرن الخامس أو السادس للمسيح.

وفى الجدار الغربى كوتان مستديرتان يدخل منهما شعاع الشمس عند أصيل النهار وينسكب على الصورتين كأنهما طليتا بماء الذهب.

وفى وسط المعبد حجر من الرخام مربع الشكل على جوانبه نقوش ووسامات قديمة الطراز قد انحجب بعضها تحت كتلات متحجرة من الدماء تدل على أن الأقدمين كانوا ينحرون ذبائحهم على هذا الحجر ويصبون فوقه قرابين الخمر والعطر والزيت.

ولم يكن فى هذا المعبد الصغير شىء آخر سوى سكينة عميقة تعانق النفس وهيبة سحرية تبيح بتموجاتها أسرار الآلهة وتتكلم بلا نطق عن مآتى الأجيال الغابرة ومسير الشعوب من حالة إلى حالة ومن دين إلى دين. وتستميل الشاعر إلى عالم بعيد عن هذا العالم وتقنع الفيلسوف بأن الإنسان مخلوق ديّن يشعر بما لا يراه ويتخيل ما لا تقع عليه حواسه فيرسم لشعوره رموزاً تدل بمعانيها على خفايا نفسه ويجسم خياله بالكلام والأنغام والصور والتماثيل التى تظهر بأشكالها أقداس أمياله فى الحياة وأجمل مشتهياته بعد الموت.

فى هذا الهيكل المجهول كنت ألتقى بسلمى كرامة مرة فى الشهر فنصرف الساعات الطوال ناظرين إلى الصورتين الغريبتين مفكرين بفتى الأجيال المصلوب فوق الجلجلة، مستحضرين إلى مخيلتينا أشباح الفتيان والصبايا الفينيقيين الذين عاشوا وعشقوا وعبدوا الجمال بشخص عشتروت فحرقوا البخور أمام تماثيلها وهرقوا الطيوب على مذابحها ثم طوتهم الأرض فلم يبقى منهم سوى اسم تردده الأيام أمام وجه الأبدية.

كم يصعب علىّ الآن أن أدوّن بالكلام ذكرى تلك الساعات التى كانت تجمعنى بسلمى - تلك الساعات العلوية المكتنفة باللذة والألم والفرح والحزن والأمل واليأس وكل ما يجعل الإنسان إنساناً والحياة لغزاً أبدياً. ولكن كم يصعب علىّ أن أذكرها ولأرسم بالكلام الضئيل خيالاً من خيالاتها ليبقى مثلاً لأبناء الحب والكآبة.

كنا نختلى فى ذلك الهيكل القديم فنجلس فى بابه ساندين ظهرينا إلى جداره مرددين صدى ماضينا مستقصيين مآتى حاضرنا خائفين مستقبلنا. ثم نتدرج إلى إظهار ما فى أعماق نفسينا فيشكو كل منا لوعته وحرقة قلبه وما يقاسيه من الجزع والحسرة، ثم يصبّر واحدنا الآخر باسطاً أمامه كل ما فى جيوب الأما من الأوهام المفرحة والأحلام

العذبة فيهدأ روعنا وتجف دموعنا وتنفرج ملامحنا ثم نبتسم متناسيين كل شيء سوى الحب وأفراحه منصرفين عن كل أمر إلا النفس وأميالها. ثم نتعانق فنذوب شغفاً وهياماً. ثم تقبل سلمى مفرق شعرى بطهر وانعطاف فتملأ قلبى شعاعاً وأقبل أطراف أصابعها البيضاء فتغمض عينيها وتلوى عنقها العاجى وتتورد وجنتاها باحمرار لطيف يشابه الأشعة الأولى يلقيها الفجر على جباه الروابى. ثم نسكت وننظر طويلاً نحو الشفق البعيد حيث الغيوم الملونة بأنوار المغرب البرتقالية.

ولم تكن اجتماعاتنا مقتصرة على مبادلة العواطف وبث الشكوى بل كنا ننتقل على غير معرفة بنا إلى العموميات فنتبادل الآراء والأفكار فى شؤون هذا العالم الغريب ونتباحث فى مرامى الكتب التى كنا نقرؤها ذاكرين حسناتها وسيئاتها وما تنطوى عليه من الصور الخيالية والمبادئ الاجتماعية، فتتكلم سلمى عن منزلة المرأة فى الجامعة البشرية وعن تأثير الأجيال الغابرة على أخلاقها وميولها وعن العلاقة الزوجية فى أيامنا هذه وما يحيط بها من الأمراض والمفاسد وإنى أذكر قولها مرة "إن الكتّاب والشعراء يحاولون إدراك حقيقة المرأة ولكنهم للآن لم يفهموا أسرار قلبها ومخبآت صدرها لأنهم ينظرون إليها من وراء نقاب الشهوات فلا يرون غير خطوط جسدها أو يضعونها تحت مكبرات الكره فلا يجدون فيها غير الضعف والاستسلام".

وقولها لى مرة أخرى وقد أشارت بيدها إلى الرسمين المحفورين على جدران الهيكل "فى قلب هذه الصخرة قد نقشت الأجيال رمزين يظهران خلاصة أميال المرأة ويستجليان غوامض نفسها المتراوحة بين الحب والحزن - بين الانعطاف والتضحية - بين عشتروت الجالسة على العرش ومريم الواقفة أمام الصليب. إن الرجل يشترى المجد والعظمة والشهرة ولكن هى المرأة التى تدفع الثمن".

ولم يدر باجتماعاتنا السرية أحد سوى الله وأسراب العصافير المتطايرة بين تلك البساتين، فسلمى كانت تجيء بمركبتها إلى المكان المدعو بحديقة الباشا ثم تسير الهوينى على الممرات المنفردة حتى تبلغ المعبد الصغير فتدخله مستندة على مظلتها وعلى وجهها لوائح الأمن والطمأنينة فتجدنى منتظراً مترقباً مشتاقاً بكل ما فى الشوق من الجوع والعطش.

ولم نخف قط عين الرقيب ولا شعرنا بوخز الضمير لأن النفس إذا تطهرت بالنار واغتسلت بالدموع تترفع عما يدعوه الناس عيباً وعاراً وتتحرر من عبودية الشرائع والنواميس التى سنتها التقاليد لعواطف القلب البشرى وتقف برأس مرفوع أمام غروس الآلهة.

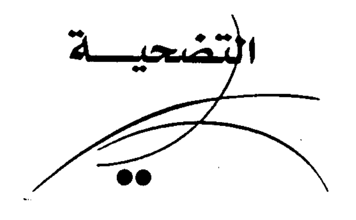
إن الجامعة البشرية قد استسلمت سبعين قرناً إلى الشرائع الفاسدة فلم تعد قادرة على إدراك معانى النواميس العلوية الأولية الخالدة، قد تعودت بصيرة الإنسان النظر إلى ضوء الشموع الضئيلة فلم تعد تستطيع أن تحدق بنور الشمس. لقد توارثت الأجيال الأمراض والعاهات النفسية بعضها عن بعض حتى أصبحت عمومية بل صارت من الصفات الملازمة للإنسان فلم يعد الناس ينظرون إليها كعاهات وأمراض بل يعتبرونها كخلال طبيعية نبيلة أنزلها الله على آدم فإذا ما ظهر بينهم فرد خال منها ظنوه ناقصاً محروماً من الكمالات الروحية.

أما الذين سيعيبون سلمى كرامة محاولين تلويث اسمها لأنها كانت تترك منزل زوجها الشرعى لتختلى برجل آخر فهم السقماء الضعفاء الذين يحسبون الأصحاء مجرمين وكبار النفوس متمردين. بل هم كالحشرات التى تدب فى الظلمة وتخشى الخروج إلى نور النهار كيلا تدوسها أقدام العابرين.

إن السجين المظلوم الذى يستطيع أن يهدم جدران سجنه ولا يفعل يكون جباناً وسلمى كرامة كانت سجينة مظلومة ولم تستطع الانعتاق فهل تلام لأنها كانت تنظر من وراء نافذة السجن إلى الحقول الخضراء والفضاء الوسيع، هل يحسبها الناس خائنة لأنها كانت تجىء من منزل منصور بك غالب لتجلس بجانبى بين عشتروت المقدسة والجبار المصلوب؟ ليقل الناس ما شاؤوا فسلمى قد اجتازت المستنقعات التى تغمر أرواحهم الذئاب وبلغت ذلك العالم الذى لا يبلغه عوى الذئاب وفحيح الأفاعى. وليقل الناس ما أرادوا عنى فالنفس التى شاهدت وجه الموت لا تذعرها وجوه اللصوص، والجندى الذى رأى السيوف محتبكة فوق رأسه وسواقى الدماء تحت قدميه لا يحفل بالحجارة التى يرشقه بها صبيان الأزقة.

■ ■ ■

التضحيــة



ففى يوم من أواخر حزيران وقد ثقلت وطأة الحر فى السواحل وطلب الناس أعالى الجبال سرت كعادتى نحو ذلك المعبد واعداً نفسى بلقاء سلمى حاملاً بيدى كتاباً صغيراً من الموشحات الأندلسية التى كانت فى ذلك العهد ولم تزل إلى الآن تستميل روحى.

بلغت المعبد عند الأصيل فجلست أرقب الطريق المناسبة بين أشجار الليمون والصفصاف، وأنظر من وقت إلى آخر إلى وجه كتابى هامساً فى مسامع الأثير أبيات الموشحات التى تستهوى القلب برشاقة تراكيبها ورنة أوزانها وتعيد إلى النفس ذكرى أمجاد الملوك والشعراء والفرسان الذين ودعوا غرناطة وقرطبة وأشبيلية تاركين فى قصورها ومعاهدها وحدائقها كل ما فى أرواحهم من الآمال والأميال ثم تواروا وراء حجب الدهر والدمع فى أجفانهم والحسرة فى أكبادهم.

وبعد ساعة التفت فإذا بسلمى تميس بقدها النحيل بين الأشجار المحتبكة وتقترب نحوى مستندة على مظلتها كأنها تحمل كل ما فى العالم من الهموم والمتاعب ولما بلغت باب الهيكل وجلست بقربى نظرت إلى عينيها الكبيرتين فرأيت فيهما معانى وأسراراً جديدة غريبة توحى التحذر والانتباه وتثير حب الاستطلاع والاستقصاء.

وشعرت سلمى بما يجول فى خاطرى فلم تشأ أن يطول الصراع بين ظنونى وهواجسى فوضعت يدها على شعرى وقالت "اقترب منى، اقترب منى يا حبيبى اقترب ودعنى أزود نفسى منك فقد دنت الساعة التى تفرقنا إلى الأبد".

فصرخت قائلاً "ماذا تقولين يا سلمى وأية قوة تستطيع أن تفرقنا إلى الأبد؟.

فأجابت "إن القوة العمياء التى فرقتنا بالأمس ستفرقنا اليوم. القوة الخرساء التى تتخذ الشريعة البشرية ترجماناً عنها قد بنت بأيدى عبيد الحياة حاجزاً منيعاً بينى وبينك.

القوة التى أوجدت الشياطين وأقامتهم أولياء على أرواح الناس قد حتمت علىّ، أن لا أخرج من ذلك المنزل المبنى من العظام والجماجم".

فسألتها قائلاً "هل علم زوجك باجتماعاتنا فصرت تخشين غضبه وانتقامه؟".

فأجابت "إن زوجى لا يحفل بى ولا يدرى كيف أصرف أيامى فهو مشغول عنى بأولئك الصبايا المسكينات اللواتى تقودهن الفاقة إلى أسوق النخاسين فيتعطرن ويتكحلن ليبعن أجسادهن بالخبز المعجون بالدماء والدموع".

فقلت إذاً ما يصدك عن المجىء إلى هذا المعبد والجلوس بجانبى أمام هيبة الله وأشباح الأجيال؟ هل مللت النظر إلى خفايا نفسى فطلبت روحك الوداع والتفريق؟".

فأجابت - والدمع يراود أجفانها - "لا يا حبيبى إن روحى لم تطلب فراقك لأنك شطرها ولا ملت عيناى النظر إليك لأنك نورهما. ولقد إذا كان القضاء قد حكم علىّ أن أسير على عقبات الحياة مثقلة بالقيود والسلاسل فهل أرضى بأن يكون نصيبك من القضاء مثل نصيبى؟".

فقلت "تكلمى يا سلمى وأخبرينى عن كل شىء ولا تتركينى ضائعاً بين هذه المعميات".

فأجابت " لا أقدر أن أقول كل شىء لأن اللسان الذى أخرسته الأوجاع لا يتكلم، والشفاه التى ختم عليها اليأس لا تتحرك وكل ما أقدر أن أقوله لك هو أنى أخاف عليك من الوقوع فى شرك الذين نصبوا لى الحبائل واصطادونى".

فقلت "ماذا تعنين يا سلمى ومن هم الذين تخافين علىّ منهم".

فسترت وجهها بيدها وتأوهت ملتاعة ثم قالت مترددة "إن المطران بولس غالب قد صار يعلم بأننى أخرج مرة فى الشهر من القبر الذى وضعنى فيه".

فقلت "وهل علم المطران بأنك تلتقين بى فى هذا المكان".

فأجابت "لو علم بذلك لما رأيتنى الآن جالسة بقربك" ولكن الشكوك تخامره والظنون تتلاعب بأفكاره وقد بث علىّ العيون لترقبنى وأوعز إلى خدمه ليتجسسوا حركاتى حتى صرت أشعر بأن للمنزل الذى أسكنه والطرقات التى أسير عليها نواظر تحدق بى وأصابع تشير إلىّ وآذاناً تسمع همس أفكارى".

وأطرقت هنيهة ثم زادت والدمع ينسكب على وجنتيها "أنا لا أخاف على نفسى لأن الغريق لا يخشى البلل، ولكننى أخاف عليك وأنت حر كنور الشمس أن تقع مثلى فى أشراكه فيقبض عليك بأظافره وينهشك بأنيابه.. أنا لا أخاف من الدهر لأنه أفرغ جميع سهامه فى صدرى. ولكننى أخاف عليك وأنت فى ربيع العمر أن تلسع الأفعى قدميك وتوقفك عن المسير نحو قمة الجبل حيث ينتظرك المستقبل بأفراحه وأمجاده".

فقلت "إن من لا تلسعه أفاعى الأيام وتنهشه ذئاب الليل يظل مغروراً بالأيام والليالى. ولكن اسمعى يا سلمى، اسمعينى جيداً، أليس أمامنا غير الفراق لنتقى صغارة الناس وشرورهم؟ هل سدت أمامنا سبل الحب والحياة والحرية فلم يبق غير الاستسلام إلى مشيئة عبيد الموت؟"

فأجابت بلهجة يساورها القنوط والحسرة "لم يبق أمامنا غير الوداع والتفرق".

فأخذت يدها وقد تمردت روحى فى داخلى وتبدد الدخان عن شعلة فتوتى فقلت متهيجاً " لقد استسلمنا طويلاً إلى أهواء الناس يا سلمى.. منذ تلك الساعة التى جمعتنا حتى الآن ونحن ننقاد إلى العميان ونركع أمام أصنامهم. منذ عرفتك ونحن فى يد المطران بولس غالب مثل كرتين يلعب بنا كيفما أراد ويقذفنا حيثما شاء فهل نبقى خاضعين لديه محدقين بظلمة نفسه حتى يلوكنا القبر وتبتلعنا الأرض؟ هل وهبنا الله نسمة الحياة لنضعها تحت أقدام الموت؟ وأعطانا الحرية لنجعلها ظلاً للاستعباد؟ إن من يخمد نار نفسه بيده يكون كافراً بالسماء التى أوقدتها. ومن يصبر على الضيم ولا يتمرد على الظلم يكون حليف الباطل على الحق وشريك السفاحين بقتل الأبرياء. وقد أحببتك

يا سلمى وأحببتى والحب كنز ثمين يودعه الله النفس الكبيرة الحساسة. فهل نرمى بكنزنا إلى حظائر الخنازير لتبعثره بأنوفها وتذريه بأرجلها؟ أمامنا العالم مسرحاً وسيعاً مملوءاً بالمحاسن والغرائب فلماذا نسكن فى هذا النفق الضيق الذى حفزه المطران وأعوانه؟ أمامنا الحياة من الحرية وما فى الحرية من الغبطة والسعادة فلماذا لا نخلع النير الثقيل عن عاتقينا ونكسر القيود الموثوقة بأرجلنا ونسير إلى حيث الراحة والطمأنينة؟ قومى يا سلمى نذهب من هذا المعبد الصغير إلى هيكل الله الأعظم هلمى نرحل من هذه البلاد وما فيها من العبودية والغباوة إلى بلاد بعيدة لا تصل إليها أيدى اللصوص ولا تبلغها لهات الأبالسة. تعالى نسرع إلى الشاطئ مستترين بوشاح الليل فنعتلى سفينة تقلنا إلى ما وراء البحار وهناك نحيا حياة مكتنفة بالطهر والتفاهم، فلا تنفثنا الثعابين بأنفاسها ولا تدوسنا الطوارئ بأقدامها. لا تترددى يا سلمى فهذه الدقائق أثمن من تيجان الملوك وأسمى من سرائر الملائكة. قومى نتبع عمود النور فيقودنا من هذه الصحراء القاحلة إلى حقول تنبت الأزاهر والرياحين".

فهزت رأسها وقد شخصت عيناها بشىء غير منظور فى فضاء ذلك الهيكل، وسالت على شفتيها ابتسامة محزنة تعلن ما فى داخل نفسها من الشدة والألم، ثم قالت بهدوء "لا لا يا حبيبى، إن السماء قد وضعت فى يدى كأساً مفعمة بالخل والعلقم وقد تجرعتها صرفاً ولم يبق فيها غير قطرات قليلة سوف أشربها متجلدة لأرى ما فى قاع الكأس من الأسرار فأنا لا أستحقها ولا أقوى على احتمال أفراحها وملذاتها، لأن الطائر المكسور الجناحين يدب متنقلاً بين الصخور ولكنه لا يستطيع أن يسبح محلقاً فى الفضاء، والعيون الرمداء تحدق بالأشياء الضئيلة ولكنها لا تقوى على النظر إلى الأنوار الساطعة، فلا تحدثنى عن السعادة لأن ذكرها يؤلمنى كالتعاسة، ولا تصور لى الهناء لأن ظله يخيفنى كالشقاء.. ولكن انظر رماد صدرى.. انت تعلم بأننى أحبك محبة الأم وحيدها وهى المحبة التى علمتنى أن أحميك حتى ومن نفسى. هى المحبة المطهرة بالنار التى توقفنى الآن عن اتباعك إلى أقاصى الأرض وتجعلنى أن أميت عواطفى وأميالى لكى تحيا أنت حراً نزيهاً وتظل فى مأمن من لوم الناس وتقولاتهم الفاسدة. إن المحبة المحدودة تطلب

امتلاك المحبوب، أما المحبة غير المتناهية فلا تطلب غير ذاتها.. المحبة التى تجىء بين يقظة الشباب وغفلته تستكفى باللقاء وتقنع بالوصل وتنمو بالقبل والأعناق، أما المحبة التى تولد فى أحضان اللانهاية وتهبط مع أسرار الليل فلا تقنع بغير الأبدية ولا تستكفى بغير الخلود ولا تقف متهيبة أمام شىء سوى الألوهية.. عندما عرفت بالأمس أن المطران بولس غالب يريد أن يمنعنى عن الخروج من منزل ابن أخيه ويسلبنى اللذة الوحيدة التى عرفتها منذ تزوجت، وقفت أمام نافذة غرفتى ونظرت نحو البحر مفكرة بما وراءه من البلاد الوسيعة والحرية المعنوية والاستقلال الشخصى، وتخيلت نفسى عائشة بقربك محاطة بخيالات روحك، مغمورة بانعطافك، ولكن هذه الأحلام التى تنير صدور النساء المظلومات وتجعلهن يتمردن على التقاليد الباطلة ليعشن فى ظل الحق والحرية لم تمر فى خاطرى حتى جعلتنى أستصغر نفسى وأستضعفها وأرى محبتنا واهية محددة لا تستطيع الوقوف أمام وجه الشمس. فبكيت بكاء ملك أضاع ملكه وغنى فقد كنزه، ولكنى ما لبثت أن رأيت وجهك من خلال دموعى وأبصرت عينيك محدقتين بى فتذكرت ما قلته لى مرة وهو (هلمى يا سلمى نقف أمام الأعداء متلقين شفار السيوف بصدورنا فإن صرعنا نمنا كالشهداء وإن تغلبنا نعش كالأبطال، لأن عذاب النفس بثباتها أمام المصاعب والمتاعب هو أشرف من تقهقرها إلى حيث الأمن والطمأنينة).. هذه الكلمات قلتها لى يا حبيبى عندما كانت أجنحة الموت ترفرف حول مضجع والدى، وقد ذكرتها بالأمس وقد كانت أجنحة اليأس تصفق حول رأسى، فتقويت وتشجعت وشعرت وأنا فى ظلمة السجن بنوع من الحرية النفسية التى تستهون الشدائد وتستصغر الأحزان، ورأيت حبنا عميقاً كالبحر، عالياً كالنجوم، متسعاً كالفضاء، وقد جئت اليوم إليك وفى نفسى المتوجعة المنهوكة قوة جديدة وهى المقدرة على الأمر العظيم للحصول على أمر أعظم - تضحية سعادتى بقربك لكى تبقى أنت شريفاً بعرف الناس بعيداً عن غدرهم واضطهادهم.. كنت أجىء بالأمس إلى هذا المكان والقيود الثقيلة تغل قدمىّ الضعيفتين، أما اليوم فقد جئت شاعرة بعزم يهزأ بثقل القيود ويستقصر الطريق. كنت أجىء مثل طيف طارق خائف أما اليوم فقد جئت مثل امرأة حية تشعر بوجوب التضحية وتعرف قيمة الأوجاع وتريد أن

تحمى من تحب من الناس والأغبياء ومن نفسها الجائعة. كنت أجلس حذاءك مثل ظل مرتجف وقد أتيت اليوم لأريك حقيقتى أمام عشتروت المقدسة ويسوع المصلوب. أنا شجرة نابتة فى الظل وقد مددت أغصانى اليوم لكى تنتعش ساعة النهار. وقد جئت لأودعك يا حبيبى فليكن وداعنا عظيماً وهائلاً مثل حبنا ـ ليكن وداعنا كالنار التى تصهر الذهب لتجعله أشد لمعاناً".

ولم تترك لى سلمى مجالاً للكلام والاحتجاج بل نظرت إلىّ وقد أبرقت عيناها فأحاطت أشعتها بوجدانى واتشحت ملامح وجهها بنقاب من الهيبة والجلال فبانت كمليكة توحى الصمت والتخشع. ثم ارتمت على صدرى بانعطاف كل ما عهدته فيها قبل الساعة وطوقت عنقى بزندها الأمس وقبلت شفتى قبلة طويلة عميقة محرقة أيقظت الحياة فى جسدى وأثارت الأسرار الخفية فى نفسى وجعلت الذات الوضعية التى أدعوها (أنا) أن تتمرد على العالم بأسره لتخضع صامتة أمام الناموس العلوى الذى اتخذ صدر سلمى هيكلاً ونفسها مذبحاً.

ولما غربت الشمس ولمحت أشعتها الأخيرة تبعد عن تلك الحدائق والبساتين انتفضت سلمى ووقفت فى وسط الهيكل ونظرت طويلاً إلى جدرانه وزواياه كأنها تريد أن تسكب نور عينيها على رسومه ورموزه ثم تقدمت قليلاً وجثت خاضعة أمام صورة يسوع وقبلت قدميه المكلومتين مرات متوالية ثم همست قائلة "ها قد اخترت صليبك يا يسوع الناصرى وتركت مسرات عشتروت وأفراحها؛ قد كللت رأسى بالأشواك بدلاً من الغار، واغتسلت بدمى ودموعى بدلاً من العطور والطيوب وتجرعت الخل والعلقم بالكأس التى صنعت للخمر والكوثر، فاقبلنى بين تابعيك الأقوياء بضعفهم وسيرنى نحو الجلجلة برفقة مختاريك المستكفين بأوجاعهم المغبوطين على كآبة قلوبهم".

ثم انتصبت والتفتت نحوى قائلة "سأعود الآن فرحة إلى الكهف المظلم حيث تتراكض الأشباح المخيفة فلا تشفق علىّ يا حبيبى ولا تحزن من أجلى لأن النفس التى ترى ظل الله مرة لا تخشى بعد ذلك أشباح الأبالسة، والعين التى تكتحل بلمحة واحدة من الملأ الأعلى لا تغمضها أوجاع العالم".

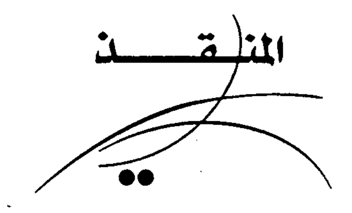
وخرجت سلمى من ذاك المعبد ملتفة بملابسها الحريرية وتركتنى حائراً ضائعاً مفكراً مجذوباً إلى مسارح الرؤيا حيث تجلس الآلهة على العروش وتدون الملائكة أعمال البشر وتتلو الأرواح مأساة الحياة وتترنم عرائس الخيال بأناشيد الحب والحزن والخلود.

ولما صحوت من هذه السكرة وكان الليل قد غمر الوجود بأمواجه القاتمة، وجدتنى هائماً بين تلك البساتين مسترجعاً إلى حافظتى صدى كل كلمة لفظتها سلمى، معيداً إلى نفسى حركاتها وسكناتها وملامح وجهها وملامس يديها، حتى إذا ما اتضحت لى حقيقة الوداع وما سيجىء من ألم الوحشة ومرارة الشوق جمدت فكرتى وتراخت خيوط قلبى وعلمت للمرة الأولى بأن الإنسان وإن ولد حراً يظل عبداً لقساوة الشرائع التى سنها آباؤه وأجداده، وأن القضاء الذى نتوهمه سراً علوياً لهو استسلام اليوم إلى مآتى الأمس، وخضوع الغد إلى أميال اليوم. وكم مرة فكرت منذ تلك الليلة إلى هذه الساعة بالنواميس النفسية التى جعلت سلمى تختار الموت بدلاً من الحياة. وكم مرة وضعت نبالة التضحية بجانب سعادة المتمردين لأرى أيهما أجل وأجمل ولكننى للآن لم أفهم سوى حقيقة واحدة وهى أن الإخلاص يجعل جميع الأعمال حسنة وشريفة، وسلمى كرامة كانت الإخلاص متأنساً وصحة الاعتقاد متجسدة.

■ ■ ■



المنقذ



ومرت خمسة أعوام على زواج سلمى ولم ترزق ولداً ليوجد بكيانه العلاقة الروحية بينها وبين بعلها ويقرب بابتسامته نفسيهما المتنافرتين مثلما يجمع الفجر بين أواخر الليل وأوائل النهار.

والمرأة العاقر مكروهة فى كل مكان لأن الأنانية تصور لأكثر الرجال دوام الحياة فى أجساد الأبناء فيطلبون النسل ليظلوا خالدين على الأرض.

إن الرجل المادى ينظر إلى زوجته العاقر بالعين التى يرى بها الانتحار البطىء فيمقتها ويهجرها ويطلب حتفها كأنها عدو غدار يريد الفتك به، ومنصور بك غالب كان مادياً كالتراب وقاسياً كالفولاذ وطامعاً كالمقبرة وكانت رغبته بابن يرث اسمه وسؤدده تكرهه بسلمى المسكينة وتحوّل محاسنها فى عينيه إلى عيوب جهنمية..

إن الشجرة التى تنبت فى الكهف لا تعطى ثمراً، وسلمى كرامة كانت فى ظل الحياة فلم تثمر أطفالاً؛ إن البلبل لا يحوك عشاً فى القفص كيلا يورث العبودية لفراخه. وسلمى كرامة كانت سجينة الشقاء فلم تقسم السماء حياتها إلى أسيرين؛ إن أزاهر الأودية هى أطفال يلدها الحب والحنو، فسلمى كرامة لم تشعر قط بأنفاس الحنو وملامس الانعطاف فى ذلك المنزل الفخم النائم على شاطئ البحر فى رأس بيروت، ولكنها كانت تصلى فى سكينة الليالى ضارعة أمام السماء لتبعث إليها بطفل يجفف بأصابعه الوردية دموعها ويزيل بنور عينيه خيال الموت من قلبها.

وقد صلت سلمى متوجعة حتى ملأت الفضاء صلاة وابتهالاً وتضرعت مستغيثة حتى بدّد صراخها الغيوم، فسمعت السماء نداءها وبثت فى أحشائها نغمة مختمرة بالحلاوة والعذوبة وأعدتها بعد خمسة أعوام من زواجها لتصيّرها أما وتمحو ذلها وعارها.

الشجرة النابتة فى الكهف قد أزهرت لتثمر.

البلبل المسجون فى القفص قد هم ليحوك عشاً من ريش جناحيه.

القيثارة التى طرحت تحت الأقدام قد وضعت فى مهب نسيم المشرق ليحرك بأمواجه ما بقى من أوتارها.

سلمى كرامة المسكينة قد مدت ذراعيها المكبلتين بالسلاسل لتقبل موهبة السماء.

وليس بين أفراح الحياة ما يضارع فرح المرأة العاقر عندما تهيئها النواميس الأزلية لتصيرها أما، كل ما فى يقظة الربيع من الجمال، وكل ما فى مجىء الفجر من المسرة يجتمع بين أضلع المرأة التى أحرمها الله ثم أعطاها.

لا يوجد نور أشد سطوعاً وأكثر لمعاناً من الأشعة التى يبعثها الجنين السجين فى ظلمة الأحشاء.

وكان نيسان قد جاء متنقلاً بين الروابى والمنحدرات عندما تمت أيام سلمى لتلد بكرها، وكأن الطبيعة قد وافقتها وعاهدتها فأخذت تضع حمل أزاهرها وتلف بأقمطة الحرارة أطفال الأعشاب والرياحين.

مضت شهور الانتظار وسلمى تترقب الخلاص مثلما يترقب المسافر طلوع كوكب الصباح، وتنظر إلى المستقبل من وراء دموعها فتراه مشعشعاً وقد طالما ظهرت الأشياء القاتمة متلمعة من خلال الدموع.

ففى ليلة وقد طافت أشباح الظلام بين تلك المنازل فى رأس بيروت، انطرحت سلمى على مضجع المخاض والأوجاع فانتصب الموت والحياة يتصارعان بجانب فراشها، ووقف الطبيب والقابلة ليقدما إلى هذا العالم ضيفاً جديداً، وسكنت حركة عابرى الطريق

وانخفضت نغمة أمواج البحر ولم يعد يسمع فى ذلك الحى سوى صراخ هائل يتصاعد من نوافذ منزل منصور بك غالب.. صراخ انفصال الحياة من الحياة.. صراخ محبة البقاء فى فضاء اللاشىء والعدم.. صراخ قوة الإنسان المحدودة أمام سكينة القوى غير المتناهية. صراخ سلمى الضعيفة المنطرحة تحت أقدام جبارين: الموت والحياة.

عندما لاح الفجر ولدت سلمى ابناً، ولما سمعت إهلاله فتحت عينيها المغلقتين بالألم ونظرت حواليها فرأت الأوجه متهللة فى جوانب تلك الغرفة.. ولما نظرت ثانية رأت الحياة والموت ما زالا يتصارعان بقرب مضجعها فعادت وأغمضت عينيها وصرخت لأول مرة "يا ولدى". ولفت القابلة الطفل بالأقمطة ووضعته حذاء أمه، أما الطبيب فظل ينظر بعينين حزينتين نحو سلمى ويهز رأسه صامتاً بين الدقيقة والأخرى.

وأيقظت نغمة الفرح بعض الجيران فجاؤوا بملابس النوم ليهنئوا الوالد بولده، أما الطبيب فبقى ينظر بعينين كئيبتين نحو الوالدة وطفلها.

وأسرع الخدم نحو منصور بك ليبشروه بقدوم وريثه ويملؤوا أيديهم من عطاياه أما الطبيب فلبث واقفاً ينظر بعينين يائستين إلى سلمى وابنها.

ولما طلعت الشمس قربت سلمى ولدها من ثديها ففتح عينيه لأول مرة ونظر فى عينها ثم اختلج وأغمضها لآخر مرة. فدنا الطبيب وأخذه من بين ذراعيها وانسكبت على وجنتيه دمعتان كبيرتان ثم همس فى سره قائلاً "هو زائر راحل؟"

مات الطفل وسكان الحى يفرحون مع الوالد فى القاعة الكبرى ويشربون نخبه ليعيش طويلاً، وسلمى المسكينة تحدق بالطبيب وتصرخ قائلة "أعطنى ولدى لأضمه" ثم تحدق ثانية فترى الموت والحياة يتصارعان بجانب سريرها.

مات الطفل ورنة الكؤوس تنمو بين أيدى الفرحين بمجيئه.

ولد مع الفجر ومات عند طلوع الشمس...

ولد مع الفجر ومات عند طلوع الشمس، فأى بشرى يستطيع أن يقيس الزمن ليخبرنا ماذا كانت الساعة التى تمر بين مجىء الفجر وطلوع الشمس. هى أقصر من الدهر الذى يمر بين ظهور الأمم وتواريها.

ولد كالفكر ومات كالتنهدة واختفى كالظل فأذاق سلمى كرامة طعم الأمومة ولكنه لم يبق ليسعدها ويزيل يد الموت عن قلبها..

حياة قصيرة ابتدأت بنهاية الليل وانقضت بابتداء النهار فكانت مثل قطرة الندى التى تسكبها أجفان الظلام ثم تجففها ملامس النور.

كلمة لفظتها النواميس الأزلية ثم ندمت عليها وأعادتها إلى سكينة الأبدية.

لؤلؤة قذفها المد إلى الشاطئ ثم جرفها الجزر إلى الأعماق.

زنبقة ما انبثقت من كمام الحياة حتى انسحقت تحت أقدام الموت.

ضيف عزيز ترقبت سلمى قدومه ولكنه ما حل حتى ارتحل وما فتح مصراعى الباب حتى اختفى.

جنين ما صار طفلاً حتى صار تراباً: وهذه حياة الإنسان بل حياة الشعوب، بل حياة الشموس والأقمار والكواكب..

وحولت سلمى عينيها نحو الطبيب وتنهدت بشوق جارح ثم صرخت قائلة "أعطنى ابنى لأضمه بذراعى... أعطنى ولدى لأرضعه.."

فنكس الطبيب رأسه وقال والغصات تخرسه "قد مات طفلك يا سيدتى فتجلدى وتصبرى لكى تعيشى بعده".

فصرخت سلمى بصوت هائل ثم سكتت هنيهة، ثم ابتسمت ابتسامة فرح ومسرة، ثم تهلل وجهها وكأنها عرفت شيئاً لم تكن تعرفه وقالت بهدوء "أعطنى جثة ولدى، قربه منى ميتاً".

فحمل الطبيب الطفل الميت ووضعه بين ذراعيها فضمته إلى صدرها وحولت وجهها نحو الحائط وقالت تخاطبه "قد جئت لتأخذنى يا ولدى، قد جئت لتدلنى على الطريق المؤدية إلى الساحل، ها أنذا يا ولدى فسر أمامى لنذهب من هذا الكهف المظلم".

وبعد دقيقة دخلت أشعة الشمس من بين ستائر النافذة وانسكبت على جسدين هامدين منطرحين على مضجع تخفره هيبة الأمومة وتظلله أجنحة الموت.

فخرج الطبيب باكياً من تلك الغرفة، ولما بلغ القاعة الكبرى تبدلت تهاليل المهنئين بالصراخ والعويل، أما منصور بك غالب فلم يصرخ ولم يتنهد ولم يذرف دمعة ولم يفه بكلمة بل لبث جامداً منتصباً كالصنم قابضاً بيمينه على كأس الشراب.

وفى اليوم التالى كفنت سلمى بأثواب عرسها البيضاء ووضعت فى تابوت موشى بالمخمل الناصع، أما طفلها فكانت أقمطة أكفانه وتابوته ذراعى أمه وقبره صدرها الهادئ.

حملوا الجثتين فى نعش واحد مشوا ببطء متلف يشابه طرقات القلوب فى صدور المنازعين فسار المشيعون وسرت بينهم وهم لا يعرفوننى ولا يدرون ما بى.

بلغوا المقبرة فانتصب المطران بولس غالب يرتل ويعزم ووقف الكهان حوله ينغمون ويسبحون.

ولما أنزلوا التابوت إلى أعماق الحفرة همس أحد الواقفين: قائلاً: هذه أول مرة رأيت فيها جسدين يضمهما تابوت واحد".

وقال آخر:

"تأملوا بوجه منصور بك فهو ينظر إلى الفضاء بعينين زجاجيتين كأنه لم يفقد زوجته وطفله فى يوم واحد".

وظل الكهان يرتلون ويسبحون حتى فرغ حفار القبور من ردم الحفرة فأخذ المشيعون إذ ذاك يقتربون واحداً واحداً من المطران وابن أخيه يصبرونهما ويواسونهما بمستعذبات الكلام.

أما أنا فبقيت واقفاً منفرداً وحدى وليس من يعزينى على مصيبتى كأن سلمى وطفلها لم يكونا أقرب الناس إلىّ.

عاد المشيعون وبقى حفار القبور منتصباً بجانب القبر الجديد وفى يده رفشه ومحفره، فدنوت منه وسألته قائلاً:

"أتذكر أين قبر فارس كرامة؟

فنظر إلى طويلاً ثم أشار نحو قبر "سلمى" وقال:

"فى هذه الحفرة قد مددت ابنته على صدره، وعلى صدر ابنته مددت طفلها وفوق الجميع قد وضعت التراب بهذا الرفش".

فأجبته:

"وفى هذه الحفرة أيضاً قد دفنت قلبى أيها الرجل... فما أقوى ساعديك".

ولما توارى حفار القبور وراء أشجار السرو...

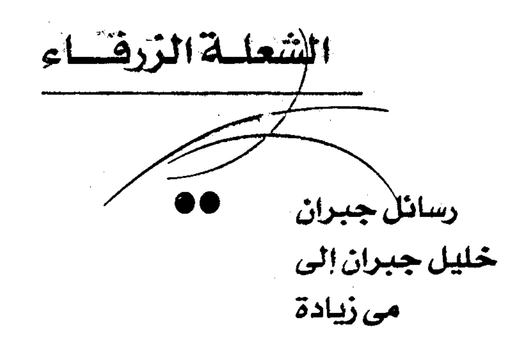
خاننى الصبر والتجلد

فارتميت على قبر "سلمى"

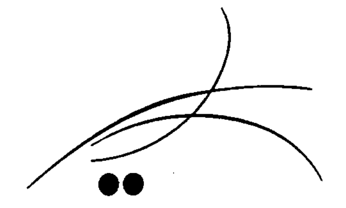
أبكيها...

وأرثيها

■■■


الشعلة الزرقاء
رسائل جبران
خليل جبران إلى
مي زيادة





نيويورك ٢ كانون الثانى

حضرة الأديبة الفاضلة.

قد فكرت بأمور كثيرة فى تلك الشهور الخرساء التى مرت بدون خطاب ولا جواب ولكنه لم يخطر على بالى كونك " شريرة" أما الآن وقد صرّحت لى بوجود الشر فى روحك فلا يجمل بى سوى تصديقك فأنا أصدق وأثق بكل كلمة تقولينها لى! أنت بالطبع تفتخرين بقولك ـ أنا شريرة ـ ويحق لك الافتخار لأن الشر قوة تضارع الخير بعزمها وتأثيرها. ولكن اسمحي لى أن أقول لك مصرحاً بأنك مهما تماديت بالشر فلا تبلغين نصف ما بلغته فأنا شرير كالأشباح الساكنة فى كهوف الجحيم بل أنا شرير كالروح السوداء التى تحرس أبواب الجحيم! وأنت بالطبع ستصدقين كلامى هذا!.

غير أننى للآن لم أفهم الأسباب الحقيقية التى دعتك إلى استخدام الشر ضدى فهلا تكرمت بافهامى؟ قد أجبت على كل رسالة تكرمت بها علىّ واسترسلت متعمقاً بمعانى كل لفظة تعطفت بهمسها فى أذنى فهل هناك أمر آخر كان يجب علىّ أن أفعله؟ أو لم تبدعى لى من " لا شىء" ذنباً لتبينى لى مقدرتك على الاقتصاص؟ لقد فلحت وأحسنت البيان، أما أنا فقد آمنت باقنومك الجديد الكلى المطلق الجامع بين أسياف " كالى" ربة الهند وسهام " ديانا" معبودة الأغريق.

والآن وقد فهم كل منا ما فى روح الآخر من الشر والميل إلى الاقتصاص فلنعد إلى متابعة الحديث الذى ابتدأنا به منذ عامين. كيف أنت وكيف حالك؟ هل أنت بصحة

وعافية (كما يقول سكان لبنان)؟ هل خلعت ذراعاً ثانية فى الصيف الماضى أم منعتك والدتك من ركوب الخيل فعدت إلى مصر صحيحة الذراعين؟ أما أنا فصحتى أشبه شىء بحديث السكران وقد صرفت الصيف والخريف متنقلاً بين أعالى الجبال وشواطئ البحر ثم عدت إلى نيويورك أصفر الوجه نحيل الجسم لمتابعة الأعمال ومصارعة الأحلام ـ تلك الأحلام الغريبة التى تصعد بى إلى قمة الجبل ثم تهبط بى إلى أعماق الوادى.

وقد سررت باستحسانك مجلة الفنون فهى أفضل ما ظهر من نوعها فى العالم العربى، أما صاحبها فهو فتى عذب النفس دقيق الفكر وله كتابات لطيفة وقصائد مبتكرة ينشرها تحت اسم " ليف" ومما يستدعى الإعجاب بهذا الشاب هو أنه لم يترك شيئاً مما كتبه الافرنج إلا وعرفه حق المعرفة. أما صديقنا أمين الريحانى فقد ابتدأ بنشر رواية جديدة طويلة فى مجلة فنون وقد قرأ لى أكثر فصولها فوجدتها جميلة للغاية ولقد أخبرت صاحب الفنون بأنك سوف تبعثين إلىّ بمقالة ففرح وبات يترقب.

بكل أسف أقول اننى لا أحسن الضرب على آلة من آلات الطرب ولكننى أحب الموسيقى محبتى الحياة ولى ولع خاص بدرس قواعدها ومبانيها والتعمق بتاريخ نشأتها وارتقائها، فان ابقتنى الأيام سأكتب رسالة طويلة فى الدوائر العربية والفارسية وكيفية ظهورها وتدرجها وتناسخها.

ولى ميل للموسقى الغربية يضارع ميلى للأنغام الشرقية فلا يمر أسبوع إلا وأذهب مرة أو مرتين إلى الأوبرا غير أنى أفضل من البيان الموسيقى الأفرنجى تلك المعروفة بالسنفونى والسوناتا والكنتاتا على الأوبرا والسبب فى ذلك خلوّ الأوبرا من البساطة الفنية التى تناسب أخلاقى وتتمايل مع أميالى. واسمحى لى الآن أن أغبط يدك على عودك وعودك على يدك وأرجوك أن تذكرى اسمى مشفوعاً باستحسانى كلما ضربت نغم النهوند على الأوتار فهو نغم أحبه ولى رأى فيه يشابه رأى " كارليل فى النبى محمد". (كارلايل: أديب ومؤرخ انجليزى درس بعضا من العربية فى جامعة كمبردج سنة ١٧٩٥

وكتب عن النبى محمد فصلا ضمنه إعجابه بشخصيته البطولية فى مؤلفه " الأبطال، عبادة الأبطال، والبطولة فى التاريخ ").

وهلا تكرمت بذكرى أمام هيبة أبى الهول؟ عندما كنت فى مصر كنت أذهب مرتين فى الأسبوع واصرف الساعات الطوال جالساً على الرمال الذهبية محدقاً بالأهرام وكنت فى ذلك العهد صبياً فى الثامنة عشرة ذا نفس ترتعش أمام المظاهر الفنية ارتعاش الأعشاب أمام العاصفة، أما أبو الهول فكان يبتسم لى ويملأ قلبى بحزن عذب وندبات مستحبة.

أنا معجب مثلك بالدكتور شميل فهو واحد من القليلين الذين انبتهم لبنان ليقوموا بالنهضة الحديثة فى الشرق الأدنى وعندى أن الشرقيين يحتاجون إلى أمثال الدكتور شميل حاجة ماسة كرد فعل للتأثير الذى أوجده الصوفيون والمتعبدون فى القطرين مصر وسوريا.

هل قرأت الكتاب الفرنساوى الذى وضعه خير الله افندى خير الله؟ أنا لم أره بعد وقد أخبرنى صديق أن فى الكتاب فصل عنك وفصل آخر عنى فإذا كان لديك نسختان تكرمى بإرسال نسخة منهما إلىّ وأجرك على الله.

ها قد انتصف الليل فليسعد الله مساءك ويبقيك للمخلص.

جبران خليل جبران

●●●

نيويورك ٢٤ كانون الثانى ١٩١٩

حضرة الأديبة الفاضلة الآنسة مى زيادة المحترمة.

سلام على روحك الطيبة الجميلة. وبعد فقد استلمت اليوم أعداد المقتطف التى تفضلت بإرسالها إلىّ فقرأت مقالاتك الواحدة أثر الأخرى وأنا بين السرور العميق والإعجاب الشديد. ولقد وجدت فى مقالاتك سرباً من تلك الميول والمنازع التى طالما حامت حول فكرتى وتتبعت أحلامى ولكن هناك مبادئ ونظريات أخرى وددت لو كان

بامكاننا البحث فيها شفاها. فلو كنت الساعة فى القاهرة لاستعطفتك لتسمحى لى بزيارتك فنتحدث مليا فى " أرواح الأمكنة " وفى " العقل والقلب " وفى بعض مظاهر " هنرى برغسن" (هنرى برغسن فيلسوف فرنسى حاز على جائزة نوبل عام ١٩٢٧ وهو صاحب نظرية الروحانية ضد هجمات المذاهب المادية. من مؤلفاته " المادية والذاكرة" و" التطور والأخلاق".) غير أن القاهرة فى مشارق الأرض ونيويورك فى مغاربها وليس من سبيل إلى الحديث الذى أوده وأتمناه.

إن مقالاتك هذه تبين سحر مواهبك وغزارة إطلاعك وملاحة ذوقك فى الانتقاء والانتخاب، وعلاوة على ذلك فهى تبين بصورة جلية اختباراتك النفسية الخاصة - وعندى أ، الاختبار أو الاقتناع النفسى يفوق كل علم وكل عمل - وهذا ما يجعل مباحثك من أفضل ما جاء من نوعها فى اللغة العربية.

ولكن لى سؤال استأذنك بطرحه لديك وهو هذا: ألا يجىء يوم يا ترى تتصر فيه مواهبك السامية من البحث فى مآتى الأيام إلى إظهار أسرار نفسك واختباراتها الخاصة ومخبآتها النبيلة؟ أفليس الابتداع أبقى من البحث فى المبدعين؟ ألا ترين أن نظم قصيدة أو نثرها أفضل من رسالة فى الشعر والشعراء؟ إنى كواحد من المعجبين بك أفضل أن اقرأ لك قصيدة فى ابتسامة أبى الهول مثلا من أن أقرأ لك رسالة فى تاريخ الفنون المصرية وكيفية تدرجها من عهد إلى عهد ومن دولة إلى دولة لأن بنظمك قصيدة فى ابتسامة أبى الهول تهبينى شيئاً نفسياً ذاتياً أما بكتابتك رسالة فى تاريخ الفنون المصرية فانك تدليننى على شىء عمومى عقلى. وكلامى هذا لا ينفى كونك تستطيعين اظهار اختباراتك النفسية الذاتية فى كتابة تاريخ الفنون المصرية بيد أنى أشعر بأن الفن - والفن اظهار ما يطوف ويتمايل ويتجوهر فى داخل الروح- هو أحرى وأخلق بمواهبك النادرة من البحث - والبحث اظهار ما يطوف ويتمايل ويتجوهر فى الاجتماع. ليس ما تقدم سوى شكل من الاستعطاف باسم الفن.

فأنا استعطفك لأنى أريد أن استميلك إلى تلك الحقول السحرية حيث سافو (شاعرة اغريقية ولدت فى مدينة ليزبوس فى أوائل القرن السادس قبل الميلاد، لها تسع دواوين

من الشعر الغنائى والاناشيد لم يصلنا منها سوى بضع قصائد) وايليزبيت براوننغ (شاعرة بريطانية مبدعة تمتاز قصائدها بالعمق والرقة والنزعة الصوفية. وهى زوج الشاعر الانكليزى روبيرت براوننغ الذى أحبها من خلال قصائدها قبل أن يتعرف إليها ثم زارها فى بيتها فأحبته حباً عارماً جعلها تتغلب على مرض عضال كان قد أقعدها.) وأليس شراينر (كاتبة انكليزية دعت فى مؤلفاتها إلى تحرير النساء) وغيرهن من أخواتك اللواتى بنين سلّما من الذهب والعاج بين الأرض والسماء.

أرجوك أن تثقى بإعجابى وأن تتفضلى بقبول احترامى الفائق والله يحفظك للمخلص.

جبران خليل جبران

●●●

نيويورك فى ٧ شباط ١٩١٩

عزيزتى الآنسة مى..

لقد أعادت رسالتك إلى نفسى ذكرى ألف ربيع وألف خريف وأوقفتنى ثانية أمام تلك الأشباح التى كنا نبتدعها ونسيرها موكباً إثر موكب. تلك الأشباح التى ما ثار البركان (يقصد بذلك الحرب العالمية الأولى) فى أوربا حتى انزوت محتجبة بالسكوت ـ وما أعمق ذلك السكوت وما أطوله.

هل تعلمين يا صديقتى أننى كنت أجد فى حديثنا المتقطع التعزية والأنس والطمأنينة، وهل تعلمين بأننى كنت أقول لذاتى هناك فى مشارق الأرض صبية ليست كالصبايا قد دخلت الهيكل قبل ولادتها ووقفت فى قدس الأقداس فعرفت السر العلوى الذى تخفره جبابرة الصباح ثم اتخذت بلادى بلاداً لها وقومى قوماً لها، هل تعلمين بأننى كنت أهمس هذه الأنشودة فى إذن خيالى كلما وردت علىّ رسالة منك؟ لو علمت لما انقطعت عن الكتابة إلىّ- وربما علمت فانقطعت وهذا لا يخلو من أصالة الرأى والحكمة.

أما مقالة أبى الهول فالسماء تعلم بأننى لم أطلبها منك إلا بعد إلحاح مستمر من صاحب مجلة الفنون ـ سامحه الله. فان من طبعى استهجان اقتراح المواضيع على الأدباء

خصوصاً تلك الفئة القليلة التى لا تدون إلا ما توحيه الحياة إليها ـ وأنت من تلك الفئة القليلة ـ وفوق ذلك فأنا أعلم أن الفن يطلب ولا يطلب منه، وأن فى نفس اقتراح المواضيع شيئاً مانعاً عن الإجادة فيها، فلو كتبت إلى فى ذلك الزمن قائلة " لا ميل لى الآن إلى كتابة مقالة فى أبى الهول " لقلت مترنماً:

" لتعش مىّ طويلا فهى ذات مزاج فنى لا غش فيه " الخلاصة أننى سأسبقك فى كتابة مقالة، فى ابتسامة أبى الهول! وبعد ذلك سأنظم قصيدة فى ابتسامة مىّ ولو كان لدى صورتها مبتسمة لفعلت اليوم، ولكن علىّ أن أزور مصر لأرى مىّ وابتسامتها. وماذا عسى أن يقول الكاتب فى ابتسامة المرأة؟ أفلم يقل ليونردو دافنشى آخر كلمة فى الموضع عندما انتهى من صورة " لا جوغندا "؟، ولكن، أليس فى ابتسامة الصبية اللبنانية سر لا يستطيع ادراكه واعلانه غير اللبنانى، أم هى المرأة لبنانية كانت أم ايطالية تبتسم لتخفى أسرار الأبدية وراء ذلك النقاب الرقيق الذى تحوكه الشفاه.

والمجنون (أول مؤلفات جبران باللغة الانجليزية) وماذا يا ترى أقول لك عن المجنون؟ أنت تقولين أن فيه ما يدل على " القسوة" بل وعلى " الكهوف المظلمة". وأنا الآن لم أسمع مثل هذا الانتقاد مع اننى قرأت الكثير مما نشرته جرائد ومجلات اماركا وانكلترا فى هذا الكتاب الصغير. والغريب أن أكثر الأدباء الغربيين قد استحسنوا القطعتين:

My Minds و The Sleep Walkers

(مقالتان لجبران، عقلى والسائرون فى نومهم)

واستشهدوا بهما أو ذكروهما بصورة خاصة. أما أنت يا صديقتى فقد وجدت فيهما القسوة ـ وماذا ينفع الانسان إذا ربح استحسان العالم وخسر استحسان مىّ؟ وقد يكون ارتياح هؤلاء الغربيين إلى المجنون واخيلته ناتجاً عن ملهم أخيلة نفوسهم وعن ميلهم الطبيعى إلى الغريب والغير مألوف خصوصاً إذا كان شرقى المظاهر. أما تلك الأمثال والقصائد المنثورة التى نشرت فى الفنون فقد ترجمها عن الأصل الانكليزى أديب محبته لى أوسع قليلا من معرفته بدقائق البيان الانجليزى.

ولقد رسمت بالحبر الأحمر دائرة حول لفظة " اشمئزاز" التى جاءت فى كلامك عن المجنون، فعلت ذلك لعلمى بأنك إذا وضعت كلمات The Sleep W.lkers

بين شفاه الأمس والغد بدلا من وضعها على لسان أم وابنتها لأبدلت لفظة الاشمئزاز بلفظة أخرى ـ أليس كذلك؟.

وماذا أقول عن كهوف روحى؟ تلك الكهوف التى تخيفك ـ انى التجئ إليها عندما أتعب من سبل الناس الواسعة وحقولهم المزهرة وغاباتهم المتعرشة. إنى أدخل كهوف روحى عندما لا أجد مكاناً آخر أسند إليه رأسى، ولو كان لبعض من أحبهم الشجاعة لدخول تلك الكهوف لما وجدوا فيها سوى رجل راكع على ركبتيه وهو يصلى.

أما استحسانك الرسوم الثلاثة فى المجنون فقد سرنى ودلنى على وجود عين ثالثة بين عينيك، وقد طالما عرفت أن وراء أذنيك آذان خفية تسمع تلك الأصوات الدقيقة الشبيهة بالسكوت ـ تلك الأصوات التى لا تحدثها الشفاه والألسنة بل ما وراء الألسنة والشفاه من الوحدة العذبة، والألم المفرح، والشوق إلى ذلك العالم البعيد الغير معروف.

وأنت تسألين ما إذا كنت أريد أن يفهمنى أحد بعد قولى:

For those who understand us enslave something in us

"لأن الذين يدركون خبايا نفوسنا يأسرون شيئا منها"

لا، لا أريد أن يفهمنى بشرى إذا كان فهمه إياى ضرباً من العبودية المعنوية. وما أكثر الذين يتوهمون أنهم يفهموننا لأنهم وجدوا فى بعض مظاهرنا شيئاً شبيهاً بما اختبروه مرة فى حياتهم. وليتهم يكتفون بادعائهم ادراك أسرارنا ـ تلك الأسرار التى نحن ذواتنا لا ندركها ـ ولكنهم يصموننا بعلامات وأرقام ثم يضعوننا على رف من رفوف أفكارهم واعتقاداتهم مثلما يفعل الصيدلى بقنانى الأدوية والمساحيق! أوليس ذلك الأديب الذى يقول بأنك تقليديننى فى بعض كتاباتك من هؤلاء البشر الذين يدعون فهمنا ومعرفة خفايانا؟ وهل تستطيعين اقناعه بأن الاستقلال هو محجة الأرواح وإن أشجار السنديان والصفصاف لا تنمو فى ظلال بعضها البعض؟

ها قد بلغت هذا الحد من رسالتى ولم أقل كلمة واحدة مما قصدت أن أقوله عندما ابتدأت. ولكن من يا ترى يقدر أن يحول الضباب اللطيف إلى تماثيل وانصاب؟ ولكن الصبية اللبنانية التى تسمع ما وراء الأصوات سترى فى الضباب الصور والأشباح.

والسلام على روحك الجميلة ووجدانك النبيل وقلبك الكبير والله يحرسك.

المخلص

جبران خليل جبران

●●●

نيويورك ١١ حزيران ـ ١٩١٩

عزيزتى الآنسة ميّ

رجعت اليوم من سفره مستطيلة إلى البرية فوجدت رسائلك الثلاث والمقال الجميل الذى تفضلت بنشره فى جريدة المحروسة. ولقد علمت من خادمى أن هذه الرسائل بل هذه الثروة الجليلة قد وصلت معاً منذ أربعة أيام. الظاهر أن البريد المصرى قد توقف عن اصدار الرسائل من القطر مثلما حجز الرسائل الواردة إليه.

ولقد انصرفت عن كل ما وجدته بانتظارى فى هذا المكتب لأصرف نهارى مصغياً إلى حديثك الذى يتمايل بين العذوبة والتعنيف ـ أقول التعنيف لأننى وجدت فى رسالتك الثانية بعض الملاحظات التى لو سمحت لنفسى الفرحة أن تتألم لتألمت منها. ولكن كيف اسمح لنفسى النظر إلى شبه سحابة فى سماء صافية مرصعة بالنجوم؟ وكيف أحول عينى عن شجرة مزهرة إلى ظلّ من أغصانها؟ وكيف لا أقبل وخزة صغيرة من يد عطرة مفعمة بالجواهر؟ إن حديثنا الذى أنقذناه من سكوت خمسة أعوام لا ولن يتحول إلى عتاب أو مناظرة، فأنا أقبل بكل ما تقولينه لاعتقادى بأنه يجمل بنا وسبعة آلاف ميل تفصلنا ألا نضيف فتراً واحداً إلى هذه المسافة الشاسعة بل أن نحاول تقصيرها بما وضعه الله فينا من الميل إلى الجميل والشوق إلى المنبع والعطش إلى الخالد. يكفينا يا صديقتى ما فى هذه الأيام وهذه الليالى من الأوجاع والتشويش والمتاعب والمصاعب.

وعندى أن فكرة تستطيع الوقوف أمام المجرد المطلق لا تزعجها كلمة جاءت فى كتاب أو ملاحظة أتت فى رسالة. إذا فلنضع خلافاتنا، وأكثرها لفظية - فى صندوق من ذهب ولنرمى بها إلى بحر من الابتسامات.

ما أجمل رسائلك يا مىّ وما أشهاها، فهى كنهر من الرحيق يتدفق من الأعالى ويسير مترنماً فى وادى أحلامى، بل هى كقيثارة اورفيوس (شاعر وموسيقى تحدثت عنه أساطير اليونان، سحر بأنغامه وحش الغاب وآلهة الجحيم.) تقرب البعيد وتبعد القريب وتحول بارتعاشاتها السحرية الحجارة إلى شعلات متقدة والأغصان اليابسة إلى أجنحة مضطربة. إن يوماً يجيئنى منك برسالة واحدة لهو من الأيام بمقام القمة من الجبل فما عسى أن أقول فى يوم يجيئنى بثلاث رسائل؟ ذلك يوم انتحى فيه عن سبل الزمن لأصرفه متجولا فى إرم ذات العماد.

وبما أجيب على سؤالاتك؟ وكيف أستطيع متابعة الحديث وفى النفس مالا يسيل مع الحبر؟ ولكن لا بد من متابعة الحديث. فما بقى صامتاً ليس بالغير مفهوم لديك.

تقولين فى رسالتك الأولى " لو كنت أنا فى نيويورك لكنت زرت مكتبك الفنى فى هذه الأيام " أفلم تزورى مكتبى قط؟ أليس رواء أثواب الذكرى الظاهرة جسد خفى للذكرى؟ انما مكتبى هيكلى وصديقى ومتحفى وجنتى وجحيمى. هو غاب تنادى فيه الحياة الحياة وهو صحراء خالية أقف في وسطها فلا أرى سوى بحر من رمال وبحر من أثير. إن مكتبى يا صديقى هو منزل بدون جدران وبدون سقف.

ولكن فى مكتبى هذا أشياء كثيرة أحبها وأحافظ عليها. أنا مولع بالآثار القديمة وفى زوايا هذا المكتب مجموعة صغيرة من طرائف الأجيال وبعض نفائسها كتماثيل وألواح مصرية ويونانية ورومانية وزجاج فينيقى وخزف فارسى وكتب قديمة العهد ورسوم ايطالية وفرنسية وآلات موسيقية تتكلم وهى صامتة. ولا بد من الحصول يوما ما على تمثال كلدانى من الحجر الأسود. إنى أميل بكليتى إلى كل شىء كلدانى فأساطير هذا الشعب وشعره وصلواته وهندسته بل وأصغر أثر أبقاه الدهر من فنونه وصنائعه ينبّه فى

داخلى تذكارات غامضة بعيدة ويعود بى إلى الماضى الغابر ويجعلنى أرى الحاضر من نافذة المستقبل. أحب الآثار القديمة وأشغف بها لأنها من أثمار الفكرة البشرية السائرة بألف قدم من الظلام نحو النور ـ تلك الفكرة الخالدة التى تغوص بالفن إلى أعماق البحار وتصعد به إلى المجرة.

أما قولك " ما أسعدك أنت القانع بفنك " فقد جعلنى أفتكر طويلاً، لا يا مىّ لست بقانع ولا أنا بسعيد. فى نفسى شىء لا يعرف القناعة ولكنه ليس كالطمع، ولا يدرى ما السعادة غير أنه لا يشابه التعاسة. فى أعماقى خفقان دائم وألم مستمر ولكننى لا أريد ابدال هذا ولا تغيير ذاك ـ ومن كان هذا شأنه فهو لا يعرف السعادة ولا يدرى ما هى القناعة ولكنه لا يشكو لأن فى الشكوى ضرباً من الراحة وشكلاً من التفوق.

وهل أنت سعيدة وقانعة بمواهبك العظيمة؟ أخبرينى يا مىّ هل أنت قانعة وسعيدة؟ أكاد أسمعك هامسة: " لا لست بقانعة ولا أنا بسعيد " إن القناعة هى الاكتفاء والاكتفاء محدود وأنت غير محدودة.

أما السعادة فهى أن يملأ المرء نفسه من خمرة الحياة ولكن من كان كأسه سبعة آلاف فرسخ بالطول وسبعة آلاف فرسخ بالعرض لا ولن يعرف السعادة حتى تنسكب الحياة بكاملها فى كأسه. أفليس كأسك يا مىّ سبعة آلاف فرسخ وفرسخ؟

وماذا أقول عن " جوى المعنوى؟" لقد كانت حياتى منذ عام أو عامين لا تخلو من الهدوء والسلامة أما اليوم فقد تبدل الهدوء بالضجيج والسلامة بالنزاع. إن البشر يلتهمون أيامى ولياليّ ويغمرون أحلامى بمنازعهم ومراميهم فكم مرة هربت من هذه المدينة الهائمة إلى مكان قصىّ لأتخلص من الناس ومن أشباح نفسى أيضاً. إنما الشعب الأماركى جبار لا يكل ولا يمل ولا يتعب ولا ينام ولا يحلم، فإذا بغض هذا الشعب رجلا قتله بالإهمال وإذا أحبه قتله بالانعطاف فمن شاء أن يحيى فى نيويورك عليه أن يكون سيفاً سنيناً ولكن فى غمد من العسل: السيف لروع الراغبين فى قتل الوقت والعسل لارضاء الجائعين!

وسوف يجئ يوم أهرب فيه إلى الشرق. إن شوقى إلى وطنى يكاد يذيبنى ولولا هذا القفص الذى حبكت قضبانه بيدى - لاعتليت متن أول سفينة سائرة شرقاً. ولكن أى رجل يستطيع أن يترك بناءً صرف عمره بنحت حجارته وصفّها؟ حتى وإن كان ذلك البناء سجناً له فهو لا يقدر أو لا يريد أن يتخلص منه فى يوم واحد.

سامحينى أيتها الصديقة العزيزة فقد أزعجتك بالكلام عن نفسى وبشكواى من أمور أدعى إلى الجهاد منها إلى التذمر.

إن استحسانك " المواكب" قد جعلها عزيزة لدىّ. أما قولك بأنك ستستظهرين أبياتها فمنّة أحنى أمامها رأسى، غير أننى أشعر بأن حافظتك خليقة بقصائد أسمى وأبلغ وأنبل من كل ما جاء فى المواكب، بل ومن كل ما كتبته وأكتبه. وأما قولك فى رسوم الكتاب " أنتم أهل الفن تبرزون هذه البدائع بقوى أثيرية احتفظتكم عليها ملوك الجوزاء فنأتى بغباوتنا أشقياء مظلومون ونحن بها أشقياء خاسرون " فكلام لا أقبله بل إنى استميحك بالتمرد عليه و(ما أكثر تمردى) - أنت يا مىّ منا وفينا. بل وأنت بين بنات الفن وأبنائه كالوردة بين أوراقها. إن ما جاء فى مقالتك التى نشرت فى " المحروسة" عن رسوم المجنون لأكبر دليل على شعور فنى عميق وفكرة خاصة دقيقة وبصيرة نفاذة ترى ما لا يراه غير القليل من الناس. ولست بمبالغ إذا قلت بأنك أول صبية شرقية مشت فى غابة " الأخوات التسع (إشارة إلى الآلهات التسع فى الميثولوجيا الاغريقية المشرفات على الآداب والفنون وقد عرفن بأسماء عديدة فى عصور التاريخ القديم.) بقدم ثانية ورأس مرفوع وملامح منفرجة كأنها فى بيت أبيها. الا فأخبرينى كيف عرفت كل ما تعرفين وفى أى عالم جمعت خزائن نفسك وفى أى عصر عاشت روحك قبل مجيئها إلى لبنان؟ إن فى النبوغ سراً أعمق من سر الحياة.

وأنت تريدين أن تسمعى ما يقوله الغربيون عنى، فألف شكر لك على هذه الغيرة وهذا الاهتمام القومى. لقد قالوا الشئ الكثير وكانوا مبالغين فى أقوالهم متطرفين فى ظنونهم متوهمين وجود الجمل فى وكر الأرنب. ويعلم الله يا صديقتى بأننى ما قرأت شيئاً حسناً عنى إلا ونحت فى قلبى. إن الاستحسان نوع من المسؤولية يضعها الناس على

عواتقنا فتجعلنا نشعر بضعفنا. ولكن لا بد من المسير حتى ولو قوّص الحمل الثقيل ظهورنا، ولا بد من استنباط القوة من الضعف. أنا باعث إليك فى غلاف آخر بشىء من أقوال الجرائد والمجلات وستعلمين منها أن الغربيين قد ملوا أشباح أرواحهم وضجروا من ذواتهم فأصبحوا يتمسكون بالغريب الغير مألوف خصوصاً إذا كان شرقياً. هكذا كان الشعب الأثينى بعد انقضاء عصره الذهبى. لقد بعثت منذ شهر أو أكثر بمجموعة من أقوال الصحف فى المجنون إلى اميل زيدان (تولى رئاسة تحرير مجلة الهلال سنة ١٩١٤ التى أسسها والده الأديب العلامة جرجى زيدان.) وهو بالطبع من أصدقائك.

أحمد الله وأشكره على انقضاء الأزمة عندكم. ولقد كنت أقرأ أخبار تلك المظاهرات فأتخيلك هائبة فأهاب، مضطربة فاضطرب. ولكننى كنت أردد فى الحالين قول شكسبير:

“align=left]Do not fear our person .
There”s such divinity doth hedge a king
That treason can but peep to what it would
Acts little of his will .[/align]

لا تخافى منا

فالملك تحيط به هالة من القداسة

وليس فى مقدور الخيانة

أن تبلغ ما ترمى إليه

أو تحد من عزيمته

وأنت يا مىّ من المحروسين وفى نفسك مَلَكٌ يحميه الله من كل مكروه.

وتسألين ما اذا كان لكم من صديق فى ربوعنا؟

أى والحياة وما فى الحياة من حلاوة جارحة ومرارة مقدسة إن لكم فى ربوعنا صديقاً إرادته تدافع عنكم ونفسه ترغب فى الخير لكم وابعاد السوء عنكم وتحميكم من كل أذى.

وقد يكون الصديق الغائب أدنى وأقرب من الصديق الحاضر. أفليس الجبل أكثر هيبة وأشد وضوحاً وظهوراً لسائرٍ في السهل منه لساكنيه؟

ها قد غمر المساء هذا المكتب بوشاحه فلم أعد أرى ما تخطه يدى. وألف تحية لك وألف سلام عليك والله يحفظك ويحرسك دائماً.

صديقك المخلص

جبران خليل جبران

●●●

نيويورك ٢٥ تموز ١٩١٩

عزيزتى الآنسة مىّ..

منذ كتبت إليك حتى الآن وأنتِ فى خاطرى. ولقد صرفت الساعات الطوال مفكراً بكِ مخاطباً إياكِ مستجوباً خفاياك مستقصياً أسراركِ. والعجيب أننى شعرت مرات عديدة بوجود ذاتك الأثيرية فى هذا المكتب ترقب حركاتى وتكلمنى وتحاورنى وتبدى رأيها فى مآتىَّ وأعمالى.

أنت بالطبع تستغربين هذا الكلام، وأنا أستغرب حاجتى واضطرارى إلى كتابته إليك. وحبذا لو كان بامكانى معرفة ذلك السر الخفى الكائن وراء هذا الاضطراب وهذه الحاجة الماسة.

قد قلت لى مرةً " ألا إن بين العقول مساجلةً وبين الأفكار تبادلاً قد لا يتناوله الإدراك الحسى ولكن من ذا الذى يستطيع نفيه بتاتاً من بين أبناء الوطن الواحد؟" .

إن فى هذه الفقرة الجميلة حقيقة أولية كنت فيما مضى أعرفها بالقياس العقلى، أما الآن فإنى أعرفها بالاختيار النفسى. ففى الآونة الأخيرة قد تحقق لى وجود رابطة معنوية دقيقة قوية غريبة تختلف بطبيعتها ومزاياها وتأثيرها عن كل رابطة أخرى، فهى أشد وأصلب وأبقى بما لا يقاس من الروابط الدموية والجينية حتى والأخلاقية. وليس

بين خيوط هذه الرابطة خيط واحد من غزل الأيام والليالى التى تمر بين المهد واللحد. وليس بين خيوطها خيط غزلته مقاصد الماضى أو رغائب الحاضر أو أمانى المستقبل، فقد تكون موجودة بين اثنين لم يجمعهما الماضى ولا يجمعهما الحاضر ـ وقد لا يجمعهما المستقبل.

وفى هذه الرابطة يا مىّ، فى هذه العاطفة النفسية، فى هذا التفاهم الخفى، أحلام أغرب وأعجب من كل ما يتمايل فى القلب البشرى ـ أحلام طىّ أحلام طىّ أحلام.

وفى هذا التفاهم يا " مىّ" أغنية عميقة هادئة نسمعها فى سكينة الليل فتنتقل بنا إلى ما وراء الليل، إلى ما وراء النهار، إلى ما وراء الزمن، إلى ما وراء الأبدية.

وفى هذه العاطفة يا مىّ غصّات أليمة لا تزول ولكنها عزيزة لدينا ولو استطعنا لما أبدلناها بكل ما نعرفه ونتخيله من الملذات والأمجاد.

لقد حاولت فى ما تقدم ابلاغك ما لا ولن يبلغك إياه إلا ما يشابهه فى نفسك. فإن كنت قد أبنت سراً معروفاً لديك كنت من أولئك الذين قد حبتهم الحياة وأوقفتهم أمام العرش الأبيض. وإن كنت قد أبنت أمراً خاصاً بى وحدى فلكِ أن تطعمى النار هذه الرسالة.

استعطفك يا صديقتى أن تكتبى إلىَّ، واستعطفك أن تكتبى إلىَّ بالروح المطلقة المجردة المجنحة التى تعلو فوق سبل البشر. أنت وأنا نعلم الشىء الكثير عن البشر، وعن تلك الميول التى تقربهم إلى بعضهم البعض، وتلك العوامل التى تبعد بعضهم عن البعض. فهلا تتحينا ولو ساعة واحدة عن تلك السبل المطروقة ووقفنا محدقين ولو مرة واحدة بما وراء الليل، بما وراء النهار، بما وراء الزمن، بما وراء الأبدية؟

والله يحفظك يا مىّ ويحرسك دائماً

صديقك المخلص

جبران خليل جبران

●●●

نيويورك ٩ تشرين الثانى ١٩١٩

عزيزتى الآنسة "مى"..

أنتِ حاقدة علىّ، ناقمة علىّ، ولك الحق، ومعك الحق، وما علىّ سوى الامتثال فهلا نسيت إثماً اقترفته وأنا بعيد عن عالم المقاييس والموازين؟ هلا وضعت فى " صندوق الذهب" ما لا يستحق الحفظ فى الصندوق الأثيرى؟

إن ما يعرفه الحاضر يجهله الغائب وليس من العدالة أن تحسب جهل الغائب جريمة فالجرائم لا تكون الا فى موضع الإدراك والمعرفة، وأنا لا أريد أن أسكب سهواً قليلاً من الرصاص المذوب أو الماء الغالى على أصابع العارفين المدركين لعلمى أن الجريمة نفسها عقاب المجرمين وأن مصائب أكثر الناس فى ما أسند إليهم من الأعمال.

لقد استأنست بذلك العنصر الشفاف الذى تتلاشى أمامه المسافة والحدود والحواجز، والنفس المستوحشة لا تستأنس إلا بذلك العنصر ولا تستصرخ سواه ولا تستنجد غيره. وأنتِ - أنتِ التى تعيشين كثيراً فى عالم المعنى تعلمين أن العنصر الشفاف فينا يتنحى عن جميع أعمالنا ويبتعد حتى وعن أجمل ميولنا البيانية وأنبل رغائبنا الفنية، فهو وإن جاور الشاعرية فينا لا ينظم ذاته نشيداً غنائياً ولا يضع خفاياه فى الخطوط والألوان. كل بشرى يستطيع التكلف بمنازعه واللعب بمطامعه والمتاجرة بأفكاره ولكن ليس بين البشر من يستطيع التكلف بوحشته أو اللعب بألمه أو المتاجرة بجوعه وعطشه. ليس بين الناس من يقدر أن يحول أحلامه من صورة إلى صورة أو ينقل أسرار نفسه من مكان إلى مكان. وهل بإمكان الضعيف والصغير فينا أن يؤثر على القوى والعظيم فينا؟ هل بإمكان الذات المقتبسة وهى من الأرض أن تحور وتغير الذات الوضعية وهى من السماء؟ إن تلك الشعلة الزرقاء تنير ولا تتغير وتحول ولا تتحول وتأمر ولا تأتمر. وهل تظنين حقيقةً، وأنت أبعد الناس فكراً، أن " التهكم الدقيق " ينبت فى حقل يفلحه الألم وتزرعه الوحشة ويحصده الجوع والعطش؟ هل تظنين أن "النكتة الفلسفية " تسير بجانب الميل إلى الحقيقة والرغبة فى المجرد المطلق؟ لا يا صديقتى، أنت أرفع من

الشك والارتياب. الشك يلازم الخائفين السلبيين والارتياب يلاحق من ليس لهم الثقة بنفوسهم، أما أنت فقوية إيجابية ولكِ الثقة التامة بنفسك فهلا كنتِ مؤمنة بكل ما تضعه الأيام فى راحتيك؟ هلا حولتِ عينيكِ عن المظاهر الجميلة إلى الحقيقة الجميلة؟

قد صرفت شهور الصيف فى منزل منفرد منتصب كالحلم بين البحر والغاب فكنت كلما أضعت نفسى فى الغاب أذهب إلى البحر فأجدها وكلما فقدتها بين الأمواج أعود إلى ظل الأشجار فألتقى بها. إن غابات هذه البلاد تختلف عن غابات الأرض كافةً، فهى غضة كثيفة متعرشة تعود بالذكرى إلى الأزمنة الغابرة، إلى البدء اذ كان الكلمة عند الله وكان الكلمة لله! أما بحرنا فبحركم وذلك الصوت المجنح الذى تسمعونه على شواطئ مصر نسمعه نحن على هذه الشواطئ، وذلك القرار الرهاوى الذى يملأ صدوركم بهيبة الحياة وهولها يملأ صدرنا بهول الحياة وهيبتها. لقد أصغيت إلى نغمة البحر فى مشارق الأرض ومغاربها فكانت ولم تزل هى هى الأغنية الأزلية الأبدية التى تعلو وتهبط بالروح فتكسبها تارةً الحزن وطوراً الطمأنينة. لقد أصغيت إلى تلك النغمة حتى وعلى رمال الإسكندرية - نعم على رمال الإسكندرية - وكان ذلك فى صيف ١٩٠٢ فسمعت اذ ذاك حديث الدهور من بحر المدنية القديمة مثلما سمعته بالأمس من بحر المدنية الحديثة، ذلك الحديث الذى سمعته للمرة الأولى وأنا فى الثامنة فاحترت بأمرى وألبست علىّ حياتى فأخذت أحارب بسؤالاتى الكثيرة صبر المرحومة أمى وجلدها، ذلك الحديث الذى أسمعه اليوم فأطرح السؤالات ذاتها ولكن على الأم الكلية فتجيبنى بغير الكلام وتفهمنى أموراً كلما حاولت اظهارها للآخرين تحولت الألفاظ فى فمى إلى سكوت عميق. أنا اليوم، وقد صرت فى (الثمانين) مثلما كنت وأنا فى الثامنة، أجلس على شط البحر وأنظر إلى أبعد نقطة من الأفق الأزرق وأسأل ألف سؤال وسؤال: " ترى هل لنا من مجيب فى ربوعكم؟" ترى هل تتفتح الأبواب الدهرية ولو لدقيقة واحدة لنرى ما ورائها من الأسرار والخفايا؟ أليس بامكانكم أن تقولوا لنا كلمة واحدة عن تلك الأنظمة السرية النافذة حولنا فى الحياة قبل أن يضع الموت نقابه الأبيض على وجوهنا؟" وأنت تسألين ما اذا كنت لا " أستطيب الفائدة فى التفكهة بلا اجهاد " إنى أستطيب الفائدة، أستطيبها

إلى درجة قصوى ولكن بعد أن أترجم لفظها إلى لغتى الخاصة!!! أما الاجهاد فسلّم نصعد عليه لنبلغ العليّة. أنا بالطبع أفضل الصعود إلى عليتى طائراً ولكن الحياة لم تعلّم جانحىّ الرفرفة والطيران فماذا أفعل؟ وأنا أفضل الحقيقة الخفية على الحقيقة الظاهرة، وأفضل الحاسة الصامتة اكتفاءً واقتناعاً على الحاسة التى تحتاج إلى التفسير والتعليل. غير أننى وجدت أن السكوت العلوى يبتدئ دائما بكلمة علوية.

إنى أستطيب الفائدة، بل وأستطيب كل شىء فى الحياة إلا الحيرة، فإذا جاءت الفائدة وعلى منكبيها غمر من الحيرة أغمضت عينىَّ وقلت فى سرى " هذا صليب آخر على أن أحمله مع المئة صليب التى أحملها " وليست الحيرة بذاتها من الأمور المكروهة ولكننى قد رافقتها حتى مللتها - قد أكلتها خبزاً وشربتها ماءً وتوسدتها فراشاً ولبستها رداءً حتى صرت أتبرم من لفظ اسمها وأهرب من ظل ظلها.

أظن أن مقالتك فى " المواكب" هى الأولى من نوعها باللغة العربية. هى أول بحث فى ما يرمى إليه الكاتب بوضع كتاب. حبذا لو كان بإمكان أدباء مصر وسوريا أن يتعلموا منكِ استجواب أرواح الكتب دون أجسادها واستفسار ميول الشعراء النفسية قبل استقصاء مظاهر الشعر الخارجية. يجب علىّ أن لا أحاول اظهار امتنانى الشخصى على تلك المقالة النفيسة لأننى أعلم أنها كتبت وأنت منصرفة عن كل شىء شخصى. وإذا ما حاولت اظهار امتنانى القومى بصورة عمومية أوجب علىّ ذلك كتابة مقالة فى تلك المقالة وهذا أمر يحسبه الشرقيون فى الوقت الحاضر من الأمور التى لا تجاور الذوق السليم! ولكن سيجىء يوم أقول فيه كلمتى فى " مى " ومواهبها، وستكون كلمتى هائلة! وستكون طويلة عريضة! وستكون صادقة لأنها ستكون جميلة.

إن الكتاب الذى سيصدر فى هذا الخريف هو كتاب رسوم خالٍ من " ضجيج التمرد والعصيان." ولولا اضراب العمال فى المطابع لظهر منذ ثلاثة أسابيع. وفى السنة القادمة سيصدر كتابان الأول " المستوحد " وربما دعوته باسم آخر " وهو مؤلف من قصائد وأمثال والثانى كتاب رسوم رمزية باسم " نحو الله " وبهذا الأخير انتهى من عهد وابتدئ

بعهد آخر. وأما " النبى " فكتاب فكرت به منذ ألف سنة ولكننى لم أكتب فصلاً من فصوله حتى أواخر السنة الغابرة. وماذا عسى أقول لك عن هذا النبى؟ هو ولادتى الثانية ومعموديتى الأولى. هو الفكرة الوحيدة التى تجعلنى حرياً بالوقوف أمام وجه الشمس. ولقد وضعنى هذا النبى قبل أن أحاول وضعه، وألفنى قبل أن أفكر بتألفيه، وسيرنى صامتاً وراءه سبعة آلاف فرسخ قبل أن يقف ليملى علىّ ميوله ومنازعه.

أرجوك أن تسألى رفيقى ومعاونى العنصر الشفاف عن هذا النبى وهو يقص عليك حكايته. اسألى العنصر الشفاف، اسأليه فى سكينة الليل عندما تنعتق النفس من قيودها وتتملص من أثوابها وهو يبوح لكِ بأسرار هذا النبى وبخفايا من تقدمه من الأنبياء أجمعين.

أنا أعتقد يا صديقى أن فى العنصر الشفاف من العزم ما لو وضعنا ذرةً منه تحت جبل لانتقل من مكان إلى مكان آخر، واعتقد، بل واعلم، أننا نستطيع أن نمد ذلك العنصر سلكاً بين بلاد وبلاد فنعلم بواسطته كل ما نريد أن نعلمه ونحصل على كل ما نشوق إليه ونبتغيه.

ولدّى أمور كثيرة أريد أن أقولها عن العنصر الشفاف وغيره من العناصر ولكن علىّ أن أبقى صامتاً عنها. وسوف أبقى صامتاً حتى يضمحل الضباب وتتفتح الأبواب الدهرية ويقول لى ملاك الرب " تكلم، فقد ذهب زمن الصمت وسر فقد طال وقوفك فى ظلال الحيرة."

أى متى يا ترى تتفتح الأبواب الدهرية؟ هل تعلمين؟ هل تعلمين أى متى تتفتح الأبواب الدهرية ويضمحل الضباب؟

والله يحفظك يا " مى" ويحرسك دائماً

صديقك المخلص

جبران خليل جبران

●●●

نيويورك ١٥ تشرين الثانى ١٩١٩

وفى ١٥ تشرين الثانى ١٩١٩ تلقت مى زيادة رسالة يحمل مغلفها التاريخ الآنف الذكر كانت عبارة عن بطاقة دعوة لمعرض فنى كبير أقيم فى نيويورك لفنانين أجانب وأميركان. وقد كتب جبران على تلك البطاقة إلى مى العبارة التالية:

(هذه دعوة إلى وليمة فنية فهلا تكرمت وشرّفتينا!!)

●●●

نيويورك ٣٠ تشرين الثانى ١٩١٩

وبعد أسبوعين، أى بتاريخ ٣٠ تشرين الثانى ١٩١٩ استنادا إلى ختم البريد فى مصر المسجل على المغلف تلقت مى رسالة أخرى تتضمن دعوة من نادى " ماكدويل" فى نيويورك، كما هو واضح فى الصورة اللاحقة، لحضور أمسية فنية أدبية فى ٢ كانون الأول ١٩١٩ يقرأ فيها جبران بعضاً من حكاياته وأمثاله، وينشد فيها " ويتر باينرز " بعضاً من أناشيده، وقد كتب جبران على هامش البطاقة بالانكليزية ما يلى:

Would that you were here to lend wings to my voice and turn my mutterings into songs . Yet I shall read knowing that among the " strangers" an invisible " friend" is listening and smiling sweetly and tenderly

(حبذا لو كنت هنا لتعيرى أجنحة إلى صوتى وتحيلى همهماتى إلى تراتيل. ومع ذلك فسوف أقرأ وأنا واثق أن لى بين الغرباء صديقاً لايُرى يسمعنى ويبتسم لى بعذوبة وحنان.")

●●●

نيويورك ٢٨ كانون الثانى ١٩٢٠

عزيزتى الآنسة مى

تريدين أن تعلمى بالضبط معنى ندامتى وماورء طلبى المغفرة منك من الأسرار النفسية. وإليك بالضبط البسيط ما كان وسيكون وراء تلك الندامة وتلك المعانى وتلك الأسرار وتلك النفسيات.

لم أندم على كتابة تلك الرسالة المعروفة لديك " بالنشيد الغنائى " - ولن أندم.

لم أندم على أصغر حرف فيها لا ولا على أكبر نقطة فيها - ولن أندم.

لم أكن فى ضلال لذلك لم أر داعياً للاهتداء.

وكيف يا ترى أندم على أمر موجود الآن فى نفسى مثلما كان موجوداً إذ ذاك؟

وأنا لست ممن يندمون على وضع ما فى نفوسهم بين شفاههم.

ولست ممن ينفون فى يقظتهم ما يثبتونه فى أحلامهم، لأن أحلامى هى يقظتى ويقظتى هى أحلامى، لأن حياتى لا تقسم إلى خطوة إلى الأمام وخطوتين إلى الوراء.

أما الاثم الذى اقترفته - أو توهمت بأنى اقترفته وأنا بعيد عن عالم الموازين والكمية - فهو هذا: بعد أن قرأت كلامك عن ذلك اللبنانى الذى زارك قبل مغادرتك القاهرة إلى رمال الاسكندرية - أعنى ذلك الرجل الذى " بكل أسف لم تسكبى سهواً بعض قطرات من الماء الغالى على يده " معاقبة له على " أمر غير محمود" - بعد أن قرأت كلامك هذا انتبهت لشىء كان من الواجب علىَّ أن أفطن له قبل أن أضع تلك الرسالة فى صندوق البريد، فظننت أو تخيلت، أو تصورت، أن تلك الرسالة قد سببت لك بعض الانزعاج من هذه الوجهة. ومن منا لا يتأفف ويتبرم إذا علم أن الأشياء المختصة به دون سواه قد مرت بين أصابع وأمام عيون من ليس لهم الحق بمعرفتها؟

هذا هو الأمر الذى انتبهت له فندمت وهذا هو الشىء الوحيد الذى طلبت إليك وضعه فى صندوق النسيان. وقد دعوت " قلم المراقبة " والأسباب التى أوجدته والنتائج التى أوجدتها " بعالم الموازين والكمية "- دعوته بهذا الاسم لبعده عن العالم الذى كان يشغل فكرى حينئذ بعد الجحيم عن غابة الحق.

ولقد عرفت فى العام الغابر عن " قلم المراقبة" ما يضحك البوم بين القبور! فقد كان بعض الفتيان الموظفين فى تلك الادارة النبيلة يفتحون الرسائل الواردة إلىّ من الشرق ويذيلونها بالحواشى والسلامات والتحيات والملاحظات السياسية والعمرانية والأدبية وبعضهم كان يطلب منى المال لأغراض لم أسمع بمثلها.

وأغرب من هؤلاء جميعهم مراقب فى دمشق وجد فسحة بيضاء واسعة فى رسالة موجهة إلىّ فنمقها وطرزها بقصيدة طويلة يمدحنى بها! ولو أخبرتك حكاية تلك القصيدة بتمامها لغضبت علىّ.

أما تلك الرسالة المعروفة " بالنشيد الغنائى " فهى منى وبى وفىّ، وهى أنا مثلما كنت ومثلما سأكون، وهى الآن مثلما كانت بالأمس ومثلما ستكون فى الغد فهلا آمنت وصدقت يا توما! (هو القديس توما أحد رسل المسيح الاثنى عشر. لم يؤمن بقيامته الا بعد أن رأى آثار جراحاته ووضع فيها اصبعه. وهو الذى أدخل المسيحية إلى الهند.) أتريدين وضع اصبعك فى الجرح يا مىّ؟

واسمحى لى أن أقول ثانية أننى أكره التهكم الدقيق والغير دقيق بين الأصدقاء، وأكره النكتة الفلسفية والغير فلسفية بين المتفاهمين بالروح، وأكره التكلف والتصنع فى كل أمر حتى وفى الصعود إلى السماء. وأما سبب كرهى هذه الأشياء فهو ما أراه حولى فى كل دقيقة من مظاهر هذه المدنية الآلية ونتائج هذا الاجتماع السائر على دواليب لأنه بدون أجنحة.

أظن أن السبب الذى يجعلك أن تعزى إلىّ " التهكم الدقيق " هو بعض ما جاء فى " المجنون" وإذا صح ظنى أكون أول ضحايا ذلك الكتاب لأن " المجنون" ليس أنا بكليتى، والأفكار والمنازع التى أردت بيانها بلسان شخصية ابتدعتها ليست كل ما لدى من الأفكار والمنازع، واللهجة التى وجدتها مناسبة لميول ذلك المجنون ليست اللهجة التى اتخذها عندما أجلس لمحادثة صديق أحبه وأحترمه. ولكن إذا كان لا بد من الوصول إلى حقيقتى بواسطة ما كتبته فما عسى يمنعك عن اتخاذ فتى الغاب فى كتاب " المواكب " لهذه الغاية بدلا من " المجنون"؟ إن روحى يا مى أقرب بما لا يقاس إلى " فتى الغاب" ونغمة نايه منها إلى " المجنون" وصراخه. وسوف يتحقق لديك بأن " المجنون" لم يكن سوى حلقة من سلسلة طويلة مصنوعة من معادن مختلفة. لا أنكر أن " المجنون" كان حلقة طويلة مصنوعة من معادن مختلفة. لا أنكر أن " المجنون" كان حلقة خشنة مصنوعة من حديد، ولكن هذا لا يدل على أن السلسلة بكليتها ستكون من الحديد الخشن. لكل روح فصول يا مى، وشتاء الروح ليس كربيعها، ولا صيفها كخريفها.

■ ■ ■



